إيفان تورجينيف

قصتان قصيرتان

آسيا

وجداول الربيع

ترجمة : محمد مفيد الشوباشي

أقلام عربية
للنشر والتوزيع

قَصَّتَان قَصِيرَتَان

آسيا وجَداول الربيع

تورجيف، ايفان، 1818-1883.
آسيا وجداول الربيع: قصتان قصيرتان
تأليف أ. تورجيف،ترجمة محمد مفيد الشوباشي- القاهرة.
أقلام عربية للنشر والتوزيع، 2017، 383ص 14.5 × 21.5 سم
1 - القصص الروسية
2- القصص القصيرة
أ.السوباشي، محمد مفيد (مترجم)
ب. العنوان 891.73
رئيس التحرير: طارق هاشم
المؤلف: أ.تورجيف
المترجم: محمد مفيد الشوباشي
طبعة أقلام عربية الأولى 2017/2018
رقم الإيداع: 17528/ 2017

العنوان: 1 كريم الدولة - أمام جروبي - طلعت حرب
تليفاكس: 20225740228 +   موبايل: 201011745806+
info@daraqlam.com
Aqlam Arabia Bookstore
www.daraqlam.com

© جميع الحقوق محفوظة لدى دار أقلام عربية للنشر والتوزيع

قَصَّتَان قَصِيرَتَان

آسيا وجَداول الربيع

تأليف

ا. تورجنيف

ترجمة

محمد مفيد الشوباشى

أقلام عربية
للنشر والتوزيع

القصة الأولى

آسيا

- 1 -

أخـذ ن. ن. يقـول: كنـت وقتـذاك فـي الخامسـة والعشـرين من سـني، وهكـذا تـرون أن المسـألة برُمتها أصبحـت تاريخًا قديمًا. وعلـىَ أثّر تخلصي مـن الوصايـة اعتزمـت السـفر إلـىَ الخـارج. ولم يكـن ذلك لإتمام دراسـتي، علـى حـد القـول الشـائع فـي تلك الأيـام، ولكـن لأنـي أردت أن أُلقـىِ نظرة علـىَ العالـم الفسـيح. كنـت متمتعًـا بالصحـة والشـباب والـروح العاليـة، وبوفـرة مـن المـال، ولكنـي لم أضطلـع بأية مسـئولية. كنت أعيش للسـاعة التـي أنـا فيهـا، ومجمـل القول أنّـى كنت أتبع هـواي. لم تكن تلـك الأيام إلا رَبِيِـع عمـري، ولـم يخطـر ببالـي، كما خطـر لي فيمـا بعد، إنَ الإنسـان ليسَ نباتـا، وإن ربيعـه قصيـر الأسـد إن الشـباب يـأكُل "كعـك الزنجبيـل" ويتخـذ منـه طعامًـا يوميًـا، ولكنـه لـن يلبـث أن يضطـرب بعـد حيـن لكسـرة خبـز يحصـل عليهـا ومـع ذلـك فهـذا القول خـارج عـن الموضوع.

سـافرت مـن بلـد إلـىَ بلـد بـلا خطـه أو هـدف. وتخلفـت فـي المكان الـذي كان يطيـب لـي، ثـم واصلـت السـفر كلمـا شـاقتني رؤيـة وجـوه

جديـدة، فمـا كنـت أتلهـف علـى شـيء مثـل الوجـوه الجديـدة، ولـم يكـن يسـتثير اهتمامـي غيـر النـاس. فأنـا أكـره الأنصـاب الأثريـة، ومجموعـات التحـف الباهـرة. بـل إن رؤيـة "الدليـل" كانـت تثيـر فـي نفسـي النفـور والامتعـاض. وقـد كاد الملـل يقْتُلنـي وأنا فـي متحف مدينة "درسـدن" وفي الواقـع إن الطبيعـة تؤثـر فـي نفسـي، ولكنـي لا أهتم بمـا يدعونـه الجمال الطبيعـي، أو المناظـر المثيرة، مثـل قمم الجبال ووديانها، وشـلالات الأنهار. فأنـا لا أحـب أن تتحكـم الطبيعـة في خاطـري، ولا أحتمل أن تقحم نفسـها فـي شـئوني. ولكـن الوجـوه، الوجـوه البشـرية الحيـة، وأحاديـث النـاس، وحـركات النـاس وإشـاراتهم وضحكاتهـم... هـذه الأشـياء الحيـة هـي التـي لا أجـد غنـى عنهـا. كان هـذا شـأني، فأنـا لـم أشـعر بالسـعادة الحقيقيـة، وبراحـة النفـس، إلا وأنـا محـوط بالنـاس. ولـم يسُـرَني إلا أن أذهـب حيـث ذهـب النـاس، وأن أصيـح حيـن يصيحـون. وكان يشـوقني في نفـس الوقت أن أرقبهـم وهـم يصيحـون. كانـت تسـليتي الكبرى أن أرقب النـاس. بل إني لـم أكتـف بملاحظتهـم ولكنـي كنـت أمتحنهم مستشـعرًا نوعًـا مـن الفضول النهـم المـرح. ولكـن هأنـذا أضل مـرّة أُخـرى، وأنحرف عن موضـوع قصتي.

حسـنًا. كنـت منذ عشـرين عامًا أعيش في بلدة (ز) وهـي بلدة ألمانية صغيـرة تقـع علىَ يسـار نهـر الراين. ولـم أكن التمـس بها غيـر الوحدة بعد أن وقـع قلبـي الولهـان فـي حبائـل أرمـل فـي ريعـان الشـباب التقيـت بهـا فـي أحـد المنتزهـات العامـة. كانـت رائعـة الجمـال لعوبًـا طروبًـا تداعـب

الرجال كافة على اختلاف ألوانهم، ولم تستثن حتى شخصي الضعيف. شجعتني في أول الأمر، ولكن ذلك لم يكن منها إلا لتطعن قلبي بغلظة، وتهجرني لتقبل عليَّ ضابط باڤارى محتقن الخدين. ولابد من ان أُسلم بأن جرح قلبي لم يكن شديد العمق، ولكنى وجدت نفسي مع ذلك مكرها على الاستسلام للكآبة، والركون بعض الوقت إلى الوحدة، والشباب قريب العزاء وهكذا اتخذت بلدة (ز) وقتذاك مقرًا.

استحوذت هذه البلدة على لبي بموقعها القابع بين جبلين سامقين، وبأسوارها وأبراجها المتداعية، وبأشجار الزيزفون الأثرية، وبالقنطرة المقامة على النهر المتلألئ، أحد روافد الرين ثم بما هو أهم من ذلك جمعيه وهو نبيذها الجيد. كانت أفتن شقراوات ألمانيا يخطرن في شوارع المدينة الضيقة صعودًا وهبوطًا عقب غروب الشمس (كان ذلك في شهر يونيو)، وكن يحيين الأجانب بعبارة "جوتن أبيند" يرددها صوتهن الجميل.

وكان بعضهن يواصل النزهة حتىَ طلوع القمر وراء سطوح المنازل القديمة، وإلقاء ضوئه على الأحجار الصغيرة المزركشة المبعثرة في الطريق، المتألقة وهيَّ تستقبل أشعته وتعكسها... هذه اللحظات هيَّ التي كان يشوقني أن أجوس الشوارع خلالها. وكم خيل إلى أن القمر كان ينظر من سمائه الصافية إلى المدينة، وأنها لم تغفل عن نظراته، وإنما شعرت بها، وتهدجت لها، وغرقت في

لألاء أشعته. تلك الأشعة الهادئة الرقيقة التي كانت تقلق النفس رغم رقتها وهدوئها. وكان مؤشر الريح فوق البرج القوطي العالي يبدو في لون ذهبي باهت، وأخذت صفحة النهر الداكنة المومضة تعكس مثل ذلك اللون الذهبي الباهت. وبدت وراء النوافذ تحت السطوح الحجرية المائلة شموع نحيلة. (فالألمان شعب مقتصد) تخفق (في أعلاها) ضواؤها متواضعة. وبرزت من وراء الأسوار، بطريقة خفية، أفرع الكرم المجعّدة المتشابكة. وكأنهما مرقت أشياء غامضة في ظل البئر القديمة القائمة وسط الميدان المثلث الشكل. ثم قطع الصمت المخيم عليَّ حين فجأة صفير الحارس الوسنان، وعوى الكلب عواء خافتا سالما. وداعب النسيم العليل وجوه الناس أرق مداعبة. وتضوع عبير شجر الليمون، واستافت منه الأنوف أنفاسًا عميقة.

تقع بلدة (ز) على بعد ميل أو ميلين من شاطئ نهر الرين. وكثيرا ما كنت أتوجه إلى ذلك الشاطئ لأتأمل النهر الكبير، وكُنت أقضي الساعات جالسًا على مقعد صخري، في ظل شجرة ضخمة منعزلة، مشغول البال بالأرمل المتلونة. كنت أتخيلها تمثالا للعذراء حزينا يتطلع إلى من مخبأه، له وجه شبيه بوجه الأطفال، وقلب يبدو من أكمامه أحمر قانيا وقد نشبت فيه النصال.

وعلىَ الشاطئ الآخر قبعت بلدة (ل)، وهي أكبر قليلا من البلدة التي اتخذتها لي مقرًا. وفي إحدى الليالي جلست فوق مقعدي

المُختار، وأخذت أحدق في النهر تارة، وفي السماء ثم في جواسق الكرم تارة أخرىَ. وشاهدت صبية شقراء يتعلقون بسفينة طُليت بالقار إلى حافتها العليا، ويجذبونها إلى الشاطئ. وانسابت السفن بطيئة متراخية الشراع فوق صفحة الماء. ومرت الأمواج تقرقر الواحدة إثر الأخرى؛ ثم صافحت أدني علىَ حين فجأة أنغام موسيقية. وأرهفت السمع فأدركت أنها موسيقىَ رقصة "الفالس" تتهادى من بلدة (ل). كانت نغمة "الباس" تضج ضجيجا، ولحن الكمان ينساب عذبًا غامضًا، وصفير الناي يتراقص طربًا.

سألت شيخًا يرتدى صدارا من المخمل، وجوربًا أزرق، وحذاء عتيق الطُراز وكان يقترب منى في هذا الوقت بالذات.

ـ ما هذا؟

فأجاب وهو ينقل غليونه من ركن فمه الشمال إلى ركنه اليمين.

ـ هذا؟ إنهم الطلبة الذين جاءوا من بلدة (ب) ليحيوا حفلة "الكومارز".

وقلت لنفسي إني أحب أن أشاهد حفلة "الكومارز" هذه. ثم إني لم أر كذلك بلدة (ل) وركبت قاربا لينقلني إلى الشاطئ المقابل.

- 2 -

قد يكون هناك من لا يعلم شيئًا عن حفلة "الكومارز". إنه نوع من الأعياد الجدية التِّي يحتقل بها طلبة المقاطعة الواحدة، أو الجامعة الواحدة وترتدى أكثرية المحتفلين زي الطلبة الألمان وهو عبارة عن قميص عسكري قصير، وحذاء عال، وقبعة صغيرة موشاه بأشرطة ملونة. وغالبًا ما يبدأ حفل الطلبة يتناول طعام الغذاء تحت رعاية رئيسهم، وهو أكبرهم سنًّا، ويستمر إلى ما بعد منتصف الليل، ويواصل الطلبة خلاله الأكل والغناء والتدخين، وسب رجال الأعمال الجشعين. ويستأجر الطلبة أحيانًا جوقة موسيقية لهذه المناسبة.

وكان حفل بلدة (ل) يطابق حفلات "الكومرز" التي وضعناها.

وقد أقيم في حديقة تطل علىَ الشارع، وتواجه فندق "الشمس" المتواضع. وازدانت الحديقة وكذلك الفندق بالأعلام الخفاقة. وجلس الطبلة حول الموائد المصطفة تحت أشجار الزيزفون الحليقة الأغصان. وقبع كلب ضخم (بولدوج) تحت إحدىَ الموائد. وانتحى الموسيقيون ناحية من المكان يظللها شجر اللبلاب، وأخذوا بعد تسللهم إليها يروون ظمأهم بجرعات من الجعة الرطبة. وتجمع عدد غير قليل من الناس في الشارع، وتزاحموا على الأمكنة التي تتيح لهم مشاهدة الحفل بسهولة. لقد صمم قطان البلدة الطيبون على أن يغتنموا الفرصة، ويتملوا بتتبع حفل ضيوفهم، وانضممت أنا إلى أولئك النظارة الراجلين. ووجدت

متعة في النظر إلى وجوه الطلية السمحة، وإلى تعانقهم، وصياحهم، وتظاهرهم البريء، ونظراتهم الحادة، وتضاحكهم دون ما سبب – وهذا هو أمتع أنواع الضحك – لقد كان هذا العباب الصاخب المرح، عباب الحياة الفتية الناضرة! وهذه الحيوية الدافقة الدافعة إلى الأمام إلى أي مكان بشرط أن يكون إلى الأمام – وهذا الإسراف الطيب الساذج. كان هذه كله يؤثر في نفسي أشد تأثير... ويلهمني، وقد أحسست رغبة في الانضمام إليهم...

وسمعت صوت رجل يقف خلفي يقول باللغة الروسية:

ـ ألم تكتف بما رأيت يا آسيا؟

وأجاب صوت فتاة باللغة نفسها:

ـ دعنا نمكث مدة أطول.

ودرت برأسي في سرعة. ووقع نظري علىَ فتىً حسن الوجه، يرتدى سترة محلولة الأزرار، ويضع على رأسه قبعة دقيقة. وقد أمسك بذراع فتاة ليست فارعة الطول، اختبا الجزء الأعلىَ من وجهها في ظل قبعة كبيرة مصنوعة من عيدان القش.

وأفلت من بين شفتي هذا السؤال:

ـ أأنتم روس؟!

وابتسم الفتىَ وأجاب.

ـ نعم.

وعاودت الكلام:

ـ لم أكن أتوقع... في هذا الجب النائى!!.

وقاطعني بقوله:

ـ ونحـن كذلـك. ولكـن هـذا مـن حسـن الحظ. دعنـي أعرفك بنفسـي. أسـمي جاجيـن... وهذه...

وتلعثم برهة ثم استطرد القول.

ـ وهذه أختي.... وهل أستطيع سؤالك عن اسمك؟

وذكـرت لـه اسـمي. ودار بيننـا الحديـث. وعلمت منه أنه يتنقـل مثلى من بلـد إلـى بلـد فـي طلـب المتعـة. وأنـه حـل ببلـدة (ل) منذ أسـبوع، وأقـام بها حتـى التقينـا. وفـي الحـق إنـي لـم أكـن أتـوق إلـى مصاحبـة مواطني الروسـي وأنـا فـي بـلاد الغربـة. كنـت أسـتطيع تمييزهـم عـن بعـد بمشـيتهم الخاصـة، وبطـراز هندامهـم، وعلـى الأخص بتعبيـر وجوههم التـي تنضح غالبا بالبشاشـة والتعالـي والاعتـداد بالنفـس، ولكنهـا سـرعان مـا كانـت تتبـدل فتنم عـن القلق والحـذر. وإذا الواحـد منهـم يدور بعينيـه مضطربًا يقظًا، وكأنما نظراته تسـألك: "آه يـا عزيـزي! أرجـو ألا أكـون قـد ارتكبـت حماقـة... إنهـم لا يضحكـون منِّـي، أليـس كذلـك؟..." ولا تمـر برهـة حتـى يسـتعيد وقـاره المهيـب الذي لا تشـوبه إلا دهشـة جوفـاء تعـروه بيـن حيـن وحين.

نعـم، كنـت أتحاشـى مواطنـي الـروس، ولكنـى سـرعان مـا تعلقـت بجاجيـن. فهنـاك وجـوه يـود كل إنسـان أن يطيـل النظر إليها. وجـوه تدفئ القلـب وتريحـه. وكان وجـه جاجيـن واحـدا منهـا، كان رقيقـا مبهجـا تزينـه عينـان هادئتـان، وشـعر ناعـم متمـوج... وإذا حدثـك صاحـب هـذا الوجـه تشـعر أنـه يبتسـم حتـىَ وأنـت لا تنظر إليـه، فإن نبـرات صوتـه تدلك على ذلك.

وقـد راعنـي مـن الفتـاة التـي قـال إنهـا أُخْتُـه، جمـال خـارق للعـادة، كان وجههـا المسـتدير ذو الجلـد الزيتونـي الناعـم، والأنـف الجميل الصغير، والخـدود الشـبيهة بخـدود الأطفـال، والعينـان السـوداوان اللامعتـان... كان ينـم عـن شـخصية وإصالة. وكان قدهـا لطيف البنيـان، إلا أن أنوثته لم تكن قـد اكتملـت بعـد ثـم إن الفتـاة لـم تكن تشـبه أخاهـا بحال.

واقترح على جاجين:

ـ أتـود العـودة معنـا إلـى منزلنا؟ أظن أننـا قد أطلنا النظـر إلى الألمان حتـى شـبعنا. ولـو كانت هـذه حفلة أقامهـا طلبتنا لما صبروا إلـى الآن على تحطيـم الكراسـي والأوانـي. إن هـؤلاء الألمـان هادئـون إلى حـد قبيح. وما رأيـك أنت يا آسـيا فـي العودة إلـى المنزل؟

وأومأت الفتاة إيماءة الموافقة.

وواصل جاجين الكلام:

ـ نحن نعيش خارج المدينة في منزل منعزل تحوطه كرمة مرتفعة. إن المكان جميل، ولسوف يعجبك: وقد وعدتنا مالكة الأرض أن تَعُد لنا لبنًا رابيًا للعشاء. ثم إن الظلام يوشك أن يخيم. ولابد لك أن تنتظر طلوع القمر حتىَ تستطيع عبور النهر علىَ ضوئه.

سرنا في طريقنا، واجتزنا أبواب المدينة. (كانت محوطة بسلسلة من قلاع قديمة تعلوها أسوار بقيت على عهدها العابر) ثم خرجنا إلى الخلاء وسرنا إلى جانب حائط المدينة زهاء مائة خطوة وقفنا بعدها أمام باب خشبي صغير. وتقدم جاجين وفتح الباب، وسلك بنا الطريق المرتفع إلى الكرمة، وامتدت على الجانبين شجيرات الكرم المزروعة في أحواض عالية. وكانت الشمس قد غُرِبت في تلك اللحظة، وانسكب من بقايا ضوئها سائل ذهني غمر الشجر الأخضر، وكؤوس الزهر الفارعة، وسمرة الأرض الجافة، وأحجار الرصيف المشققة، وجدران المنزل البيض، ودعائمه السود المائلة، ونوافذه المضيئة. وسبح فيه ذلك المنزل القائم على ربوة عالية.

وصاح جاجين عندما اقتربنا من المنزل:

ـ هذا هو مسكننا. وها هي ذي مالكته تقبل علينا حاملة وعاء الحليب. أنعمت مساء يا سيدتي... سيتوفر لنا المأكل بعد لحظة....

ثم أضاف:

ـ ولكـن انظـر خلفـك أولا – كيـف تجـد هـذا المنظـر الطبيعـي: وكان المنظـر فـي الواقـع فاتن الجمال. فنهر الراين يبدو تحتنا عن بعد، وينسـاب شـريطه الفضـي بيـن الشـاطئين الأخضريـن. بيـد أنـه كان يتوهـج فـي لون الذهـب عنـد اقترابـه مـن مـكان الغـروب. وأبـدت المدينـة المعششـة في حضـن الشـاطئ جميع منازلها وشـوارعها. وتجلت التـلال والحقول المتوغلة فـي الفضـاء. كان المنظـر مـن تحتنا بديعًـا، ولكنه من فوق البُـرج كان أفتن جمـالا. فنقـاء السـماء، وعمق تدويرهـا، والجو المتألق الشـفاف... كان لكل هـذا أشـد وقـع فـي نفسـي. وكأنمـا شـعر الهـواء النقـي الطلـق أيضًـا، وهو يمـرح كمـا يشـاء، أنـه ينعم بحريـة أتم في هـذه القمة السـامقة.

وصحت مأخوذا:

ـ لقد عرفت كيف تختار مكانًا بديعًا لسُكْنَاك.

وأجاب جاجين:

ـ إنها آسيا التي اختارته.

ثم أردف:

ـ تعالـي يـا آسـيا وأصـدري أمـرك أن ينقـل إلينـا طعـام العشـاء هنـا، فنحـن نريـد تناولـه فـي هـدأة الخـلاء. وسـنتمكن مـن سـماع الموسـيقىَ الصاعـدة إلينـا علـى نحـو أوضـح...

والتفت إليَّ مستأنفا حديثه:

ـ ألـم تلاحـظ أن موسـيقى الفالـس التـي تبـدو لـك قبيحـة مبتذلـة النغمـات حيـن تسـمعها عـن قـرب، تتبدل فـي أذنـك، وتحرك أوتار نفسـك الرومانسـية حيـن تسـمعها عـن بعـد؟

وتوجهـت آسـيا إلـى المنـزل، (إن اسـمها الحقيقـي هـو آنـا، ولكـن جاجيـن يدعوهـا آسـيا. واسـتأذنكم فـي أن أدعوها أنـا كذلك) ثـم لم تلبث أن عـادت فـي صحبـة ربـة الـدار، متعاونـة معهـا علـىَ حمـل وعـاء حـوى إبريقًـا مـن اللبـن، وبعـض الخبـز والفاكهة، وعددا مـن الصحـون والملاعق. وخلعـت آسـيا قبعتهـا. وتهـدل شـعرها الأسـود كثيفًـا علـى كتفيهـا، بعد أن كان يبـدو قصيـرًا وهـو معقـوف وممشـط كشـعر الرجـال. وكانـت تخجـل منـى أول الأمـر، ولكـن أخاهـا قـال لهـا مؤنبًا:

ـ كفىَ تجهما، فهو لن يعضك.

وافتـر ثغرهـا عـن ابتسـامة عذبـة، ولـم يمضـي وقـت طويـل حتـى طفقـت تحدثنـي بمحـض رضاهـا. وفـي الحـق إنـى لـم أر مـن قبل إنسـانا دائـم الحركـة مثلهـا. فهـي لـم تظـل قـط دقيقـة واحـده فـي مـكان واحـد. إنهـا لا تـكاد تجلـس إلـىَّ جانبًـا حتـىَ تُغادرنـا متجهـة إلـى المنـزل، ثـم لا تلبـث أن تقبـل علينا مسـرعة، ولاتني تـردد نغمة مرقصـة، أو تطلق ضحكة غريبـة دون سـبب ظاهـر. ولعـل خواطـر كانـت تخطـر ببالهـا وتسـبب لهـا هـذا الضحـك. أمـا عيناهـا الواسـعتان فكانتـا ترسـلان نظراتهمـا الصريحـة

القويمـة دون تهيـب أو مواربـة ولكـن أهدابهمـا كانـت تلتقـي بيـن حيـن وحيـن، فـإذا انفرجـت بـدت نظرتهمـا رقيقـة عميقـة إلـى حـد بعيـد.

وظللنـا نثرثـر سـاعتين. وكان النهار قد لفظ أنفاسـه الأخيـرة منذ مدة، وأخـذ المسـاء يزحـف متوهجـا في أول أمـره، ثم تبدد وهجه شـيئا فشـيئا، وتحـول إلـى حمـرة قانيـة، ثـم تبـدل إلى حمـرة باهته لـم يلبـث الظلام أن ابتلعهـا. ولكـن حديثـا كان يجـرى مـع ذلـك هادئـا صافيـا كالجـو المحيـط بنـا. وطلـب لنـا جاجيـن زجاجـة مـن نبيـذ الريـن احتسـيناها وتحدثنـا عن جودتهـا حسـبما حـلا لنـا. وكانـت أنغـام الموسـيقىَ لا تـزال تصعـد إلينـا، ولكننـا خلناهـا أرق ممـا كانـت عليـه وأعـذب. وانبثقـت الأنـوار مـن نوافذ المدينـة، ورقصـت علـى صفحة النهر، ومال رأس آسـيا على كتفها، وتسـاقط شـعرها علـى عينيهـا، وتنهـدت وركنـت إلى الصمـت. ثم قالت إنها سـتأوى إلـى فراشـها. وغادرتنـا ودخلـت الـدار ولكنـى عـدت فأطلـت النظـر إليهـا وهـي واقفـة وراء نافـذة غرفتهـا غيـر المضـاءة. وبعـد لأي طلـع القمـر، وداعبـت أشـعته صفحـة الراين.

وتغيـرت معالـم المنظـر البـادي لنا فإذا الـذي كان خافيا يبـدو للعيان، وإذا الـذي كان ظاهـرا يتـوارى خلـف الظـلال. حتـى النبيـذ المتبقـي فـي أكوابنـا البلوريـة الشـفافة أومـض لألاؤه إيماضًـا خفـي المعانـي. وتسـاقط النسـيم كالطيـر الـذي يطـوى أجنحتـه، وسـكنت هباتـه سـكون المـوت. وتصاعـد مـن الأرض دفء المسـاء المتضـوع.

وصحت قائلا:

ـ آن أوان العـودة إلـى الـدار. فـإن لـم أنصـرف تـوا تعذر علـى أن أجد مركبـا ينقلنـي إلى الشـاطئ الآخر.

وردد جاجين قولي كرجع الصدىَ:

ـ آن أوان العودة إلى الدار.

وسـلكنا الممـر الهابـط مـن الربـوة. وتسـاقط الحصىَ علـيَّ حين فجأة مـن أعلـى الطريـق – كانت آسـيا تركض فـي إثرنا.

قال لها أخوها:

ـ ظننتك قد استغرقتِ في النوم.

ولكنهـا جاوزتنـا راكضـة دون أن تجيـب. وكانـت بقايـا المشـاعل المنتشـرة فـي حديقـة الحفـل تضـئ أوراق الشـجر، وتخلـع علـى المـكان بهجـة وسـحرًا. وقـد وجدنـا آسـيا على شـاطئ النهر تحـادث نوتيـا. وقفزت إلـى قـارب النوتـي وأنـا اسـتودع صديقـي وصديقتـي. ووعدنـي جاجين أن يـرد لـي الزيـارة فـي اليـوم التالـي. وشـددت علـى يـده محييًـا. ثـم مددت يـديَّ إلـى آسـيا ولكنهـا نظـرت إلـى جذلانـة واكتفت بإحنـاء رأسـها محيية. ومـرق القـارب وهـو يشـق صـدر النهـر المتدفـق. وضـرب النوتـي القـوى البنيـة مجدافيـه فـي المـاء الداكـن وهـو يجالـد التيـار.

وصاحت آسيا من الشاطئ:

ـ لقد اصطدم قاربك بعمود ضوء القمر.... لقد حطمه.

وتحـول نظـري إلـى العبـاب الزاخـر، وإذا أمواجـه العنيفـة تطبق على القـارب مـن مختلـف جوانبـه. وتـردد نداء آسـيا فـي الفضاء.

ـ مع السلامة.

وصاح جاجين:

ـ إلىَ الغد.

ولامـس القـارب الشـاطئ، وقفزت إلـى الأرض، وارتد بصـري إلى الوراء، ولكنـي وجـدت الشـاطئ خاليـا. وامتـد عمـود ضـوء القمـر عبـر النهـر كأنه قنطـرة مـن ذهـب. وترامـت أنغـام رقصـة "الفالـس" العتيقـة إلـى أُذُنِـي وكأنهـا تودعنـي. لقـد كان جاجيـن علـى حـق، فـإن أوتـار نفسـي جميعهـا كانـت تتجـاوب مـع تلـك الأنغـام الموحية.

سـرت فـي طريقـي إلـى الـدار بيـن الحقـول المظلمـة، وتمهلـت فـي استنشـاق النسـيم المحمـل بعبيـر الزهـور، ووصلـت إلـى غرفة نومـي منهك القـوى ممـا عانيتـه من إلحاح الأحـلام الغامضـة المنوعة التي كنـت أتوقعها، وأحسسـت أنـي سـعيد. ولكـن مـا الـذي جعلنـي سـعيدًا؟ لـم أكن أتـوق إلى شـيء.... بـل لـم أكـن أفكر فـي شـيء.... ولكنـي كنت سـعيدًا.

دسسـت نفسـي بيـن أغطيـة الفـراش. وابتسـمت مستشـعرًا الخوالـج المسـتفيضة اللذيـذة الناعمـة. ومـا كاد النعـاس يطـرق جفنـي

حتـىَ فطنـت إلـى أن ذكـرى الأرمـل الجميلة القاسـية لم تمـر ببالي مرة واحـدة طـول ذلك المسـاء، فسـألت نفسـي: "مـا معنـى ذلـك؟ّ! ألم أعد عاشـقًا لها؟َ!."

ولكـن النـوم زاحـم هـذا السـؤال فـي ذهنـي، ولابـد أن أكـون قـد اسـتغرقت فـي النـوم كطفـل يرقـد فـي مهـده.

- 3 -

وفـى الصبـاح، بينمـا كنـت لا أزال جالسـا فـي فراشـي، سـمعت دقات عصـا علـى زجـاج نافذتـي، وصوتـا لم ألبـث أن أدركـت أنه صـوت جاجين. وكان يـردد الأغنيـة التالية:

"إذا غلبك النعاس فاعلم أنى سأوقظك..."

"ستوقظك أوتار قيثارتي..."

وسـارعت إلـى البـاب كـي أفتحـه لـه. وحيانـي وهـو يتخطـىَ عتبتـه، وقال:

ـ لقـد أزعجتـك بهـذه الزيـارة المبكـرة. ولكـن أنظـر إلـى الصبـاح، فما أجملـه!! مـا أنقـى هـواءه!! إن أنـداءه ترصـع وجـه الأرض... وطيـوره تغرد. وبـدا لـي صديقـي وهـو عـاري الرقبـة، مـورد الخديـن، لامـع الشـعر، كأنـه أنضـر مـن الصباح نفسـه:

ارتديـت ملابسـي، ونزلنـا إلـى الحديقـة، واخترنـا مقعـدا جلسـنا فيـه، وأرسـلت فـي طلـب قهـوة الصبـاح، وتبادلنـا الحديـث، وأخبرني عمـا أعده مـن خطـط لمسـتقبل أيامـه. قـال إنـه اعتـزم الاشـتغال بالفـن نظـرا لأنه له دخـلا ثابتـا يكفيـه، ولأنـه غيـر مقيـد فـي حياته بأيـة قيـود. والشـيء الذي يأسـف لـه هـو ذلـك الوقـت الطويـل الـذي أضاعـه هبـاء فـي التـردد قبـل

أن يستقر على هذا الرأي. وبُحْت له أنا أيضا بما رسمته لمستقبلي. وأطلعتُه على سر حبي المخفق، وكان ينصت إلىَّ باهتمام. ولكني أدركت أن لواعجي لم تثر إشفاقه الفعلي. وبعد أن بادلني بعض التنهدات على سبيل المجاملة اقترح علىَّ أن أعود معه إلى منزله لأطلع على اللوحات التي رسمها. وقبلت هذه الدعوة علىَ الفور.

لم نجد آسيا في الدار. وأنبأتنا "صاحبة الملك" أنها، أي آسيا، توجهت إلى "الأطلال". والأطلال هذه تقع علىَ بُعد بضعه أميال من بلده (ل)، وهي بقايا قلعة متخلفة من عصر الإقطاع. وعرض علىَ جاجين مجموعة لوحاته فوجدت في فنه غير قليل من الحيوية والإخلاص، ووجدت فيه كذلك نوعا من الانطلاق وفسحة الأمل، ولكنه لم يتم رسم واحدة من تلك اللوحات، بل تركها جميعًا غير كاملة وبدا لي أن صنعته الفتية ضعيفة وغير مُعْنِى بها. وقد صارحتهُ برأيي دون مواربة.

وأجاب وهو يتنهد:

ـ أنتِ علىَ حق، فهذه اللوحات جميعها ضعيفة غير ناضجة، ولكن الأمر ليس بيدي. فأنا لم أدرس في الرسم دراسة حقيقية. ثم هناك تلك الخصلة "السلافية" اللعينة، وهىَّ التراخي... إننا نحوم كالنسور في أعلىَ الأجواء عندما نفكر فيما سنقوم به من عمل، ونشعر كأننا نستطيع زحزحة الجبال الشم عن مكانها. ولكننا نتحول وقت التنفيذ إلى ضعفاء متخاذلين.

وكُنْـت علـىَ وشـك تشـجيعه بكلمـة طيبة، ولكنه أسـكتني بإشـارة من يـده، وجميـع لوحاتـه وألقـى بها فـوق الأريكة.

وتمتم والكلمات تخرج من بين أسنانه المطبقة:

ـ لـو اسـتطعت الصبـر والمواظبـة لأمكـن أن أصنـع شـيئًا يُذكـر، وإلا فسـأبقى بليـدا غبيـا... لنخـرج ونبحـث عـن آسـيا.

وخرجنا من المنزل.

- 4 -

يدور الطريق المنحدر المؤدى إلى (الأطلال) حول غابة محصورة في واد ضيق. ويشتمل بطن ذلك الوادي علىَ مجرى نهر سريع يشق طريقه الوعر بين الصخر والحجر صاخبا كأنما يتعجل الامتزاج بالنهر الكبير الذي يبدو مشرقا وراء الحاجز المعتم المكون من سلسلة جبال شديدة الانحدار. وكان جاجين يلفت نظري إلى الأماكن التي يرقد فوقها النور فيعكس جمالاً غير عادي. ودلت عبارته علىَ أن له روح فنان حتى ولو لم تكن له موهبته. ثم بدت لنا (الأطلال) وهيَّ حصن مربع الشكل قائم علىَ صخرة عالية جرداء، ورغم أن صدعا أصابه وشطره شطرين إلا أنه ما زال متين البنيان. وأحاطت به من جانبيه أسوار من النباتات المتسلقة وتعلقت فروع اللبلاب بأحجاره. ومالت الأشجار المعوجة متهاوية من وراء أسوار الحصن المغبرة، وأقواسه المفتتة،

وهناك ممر مرصوف يؤدى إلى باب الحصن. وكان ذلك الباب قد بقي سليما لم تنل منه الأيام. وما اقتربنا من تلك الآثار حتى شاهدنا قامة فتاة تتسلق في خفة ومهارة كومة عالية من الأحجار المهشمة، وسرعان ما وصلت إلى أعلى سور ترتكن إليه تلك الأحجار، وبدت لنا مشرفة على الهاوية، فصاح جاجين:

ـ ماذا؟ إنها آسيا! يالها من مجنونة!!

اجتزنا باب الحصن ووجدنا أنفسنا وسط فناء تعلوه أشجار التفاح والحشائش. وكنا قد اقتربنا من الفتاة الواقفة في أعلىَ الجدار المرتفع فإذا هي آسيا فعلا ودارت بوجهها صوبنا وضحكت دون أن تغادر مكانها. وأشار جاجين إليها بأصبعه مؤنبًا. وصحت أعاتبها علىَ عدم مبالاتها. ولكن جاجين قال لي:

ـ دعها وشأنها... لا تغظها، فأنت لا تعرف طبعها. إنها لا تجد في تسلق هذه الأنقاض خطرًا. وخير لك أن تراقب حُسن تصرف الناس هنا وتعجب به.

ودرت حولي ببصري. ورأيت عجوزًا تحيك الجوارب وهيَّ جالسة في ظل كُشك صغير، وكانت تختلس النظر إلينا من وراء عويناتها. كانت تبيع الجعة والكعك والمياه المعدنية للسائحين، وسقتنا جعة شبه قارسة في أكواب من المعدن الثقيل. أما آسيا فكانت في ذلك الوقت تجلس القرفصاء في مكانها بلا حراك، وتعصب

رأسـها بوشـاح حريـري. وبـدا قدهـا الجميـل فاتنـا وراء الأفـق الصافـي. ولكنـي كنـت أنظـر إليهـا حينـذاك بنفـور، فقـد لاحظت فـي اليوم السـابق أن بهـا شـذوذا، وأنهـا شـيئا غيـر طبيعـي وقلت لنفسـي: (إنها تريـد بقفزها فـوق الصخـور أن تلفـت النظـر إليهـا. ومـا جـدوى ذلـك؟ يالهـا مـن حيلـة صبيانيـة!!) وكأنمـا حـزرت في تلـك اللحظة ما جـال بخاطـري فصوبت إليَّ علـيَ حيـن فجـأة نظـرة فاحصـة. ثـم ضحكـت، وابتعـدت عـن الحائـط في قفزتيـن، وجـاءت إلـى العجـوز تطلب منها كوبًـا من المـاء. وقالت تخاطب أخاها:

ـ أتظننـي عطشـىَ؟ لا، إنـي لـم أطلـب المـاء إلا لأروى بعـض الزهـور المحتاجـة إليه.

ولـم يعرهـا أخوهـا انتباهًـا. وعـادت إلـى الأنقـاض تتسـلقها والكـوب فـي يدهـا، وتتوقـف هنا وهنـاك، وتنحني فـي هيئة جديـة مضحكة لتصب قطـرة أو قطرتيـن مـن الماء الذي كان يتألق تحت أشـعة الشـمس. ولا شـك أن حركاتهـا كانـت جذابـة، ولكنـى ظللـت متبرمـا بهـا، غيـر أنِّى لم أسـتطع صـرف نفسـي عن الإعجـاب بخفتها ومهارتهـا. وتعالت صرختهـا المصطنعة إذ تعرضـت لخطـر الزلل، وبعد أن اسـتعادت توازنها اسـتغرقت كعادتها في الضحـك، فزادنـي ذلك ضيقـا بها.

ورفعت العجوز نظرها عن الجورب الذي تغزله وتمتمت:

ـ ماذا!! إنها تتسلق الأنقاض كالعنزة!

وعـادت آسـيا بعـد أن أفرغـت مـا حـوى الكـوب مـن مـاء، تتمايـل جذلـى وهـي مقبلـة علينـا، وكان حاجباهـا وأنفهـا وأركان فمهـا تـرف فـي سـخرية غريبـة، وضاقـت عيناهـا السـوداوان ضيقـا بعضـه تحـد وبعضـه جذل وانشـراح وكأنمـا كانـت أسـاريرها تقـول لـي:

ـ أنـا أعلـم أنـك تعـد سـلوكي مشـينًا، ولكنـى لا أعبـأ بذلـك. فأنـا أعلم أنـك معجـب بـي فـي الواقع.

وخاطبها أخوها خافت الصوت: "أحسنت يا آسيا أحسنت"

وبـدت كأنهـا شـعرت بالخجـل. فقـد أرخـت أهدابهـا، وجلسـت إلـى جانبنـا مسـتكينة كالمذنـب. ولأول مـرة أمعنـت النظـر في وجههـا الذي لم أر وجهًـا متقلبًـا مثلـه. ولـم تمـر دقائـق حتـى صـار ذلـك الوجه شـاحبًا، ثم اتخـذ سـيماء الحـزن والتفكيـر، وخيـل إلـى أن أسـاريره فقدت رونـق الصبا والبشاشـة، وأصبحـت أميـل إلـى الجديـة والسـذاجة. وكأنمـا صاحبتـه قـد غرقـت فـي سـكون عميـق الغور.

وطفنـا بالأنقـاض. وسـارت آسـيا فـي أعقابنـا مُعجبـة بمـا تـرى. وكان موعـد الغـداء يوشـك أن يحـل. ونقـد جاجيـن المـرأة العجـوز ثمـن الجعة، ثـم طلـب كوبًـا آخـر منهـا، ورفعـه وهـو ينظـر إلـيَّ نظـرة العـارف بباطـن الأمـور وصاح:

ـ في صحة السيدة التي خلبت لبك!

وباغتتنا آسيا بسؤالها:

ـ أهناك سيدة خلبت لبه؟ – ألك سيدة من هذا القبيل حقًا؟

ورد جاجين:

ـ ومن ذا الذي نجا من مثل هذا.

وأطرقت آسيا لحظة وهيَّ تفكر. وتغيرت أسارير وجهها مرة أُخْرَىَ، ودلت من جديد على التحدي والاستهزاء الساخر.

ولكنها ازدادت في طريق العودة ضحكا وضجيجا. وقطعت غصنًا طويلًا من إحدى الأشجار ووضعته علىَ كتفها كما توضع البندقية، وعقدت الوشاح الذي يعصب رأسها، وأذكر أننا قابلنا وقتذاك أُسر: إنجليزية كبيرة أفرادها شقر محافظون. وكان كل واحد من أولئك الأفراد يوجه بدوره إلى آسيا (وكأنه يؤدى واجبا) نظرات جامدة باردة مشحونة بالعجب والدهشة. وكانت آسيا تجيب على هذا التحدي بالترنم والغناء. وعلى إثر وصولنا إلى الدار احتجبت آسيا في غرفتها ولم تغادرها إلا بعد إعداد الطعام وأقبلت علينا في كامل زينتها، مرتدية أجمل أثوابها وممشطة الرأس بأناقة وعناية، ومشدودة الخصر بمشد محبوك، ولم تهمل حتى قفازها. والتزمت الوقار أثناء تناول الطعام، ورعت تقاليد المائدة فكانت تلتقط الأطعمة لمسًا، وتتذوق الماء الذي استبدلته بالنبيذ. وكان من الواضح أنها أرادت أن تقوم أمامي بتمثيل دور جديد. وهو دور السيدة الحسنة التربية والتهذيب.

أما جاجين فقد تركها وشأنها، ولم يغب عني أنه اعتاد أن يتجاوز عن نزواتها كافة. وكان كلما التقت نظرته العرضية الرقيقة بنظري يرفع إحدى كتفيه، وكأنما يُريد بذلك أن يقول: "كن رفيقا بها – فهي بعد طفلة". وعلى أثر انتهاء الغداء نهضت آسيا، وأومأت تأدبا، واستأذنت جاجين، وهي تتناول قبعتها، في التوجه إلى السيدة "لويز" لزيارتها.

وأجاب جاجين:

ـ منذ متى تستأذنينني في الخروج؟

وابتسم ابتسامته المعتادة، ولكن شائبة من الحرج كانت تشوبها هذه المرة وعاد يسأل:

ـ أترين مجلسنا مملا إلى هذا الحد...

ـ أبدًا... وكل ما في الأمر أنى وعدت السيدة لويز أن أؤدي لها هذه الزيارة، وأحسب كذلك أن ترككما منفردين يسعدكما...

وأشارت إليَّ وهي تستأنف القول:

ـ وسيستطيع السيد (ن) أن يحدثك عندئذ عن...

وتركتنا وانصرفت، وطفق جاجين يحدثني وهو يتحاشى نظراتي.

ـ السيدة لويز أرمل لعمدة سابق. وفي الحق أنها سيدة محترمة، ولكن رأسها فارغ. وهي معجبة بآسيا كل الأعجاب. ثم إن آسيا تميل إلى معرفة الناس الذين هم أقل منها مستوى، وقد أدركت بتجاربي أن

مثـل هـذا الميـل ينبـع من الكبـر والتعالي، وهـيَّ فتاة مدللة بعض الشـيء، ولابـد أنك لاحظـت عليهـا ذلك.

وصمد برهة ثم استطرد القول:

ولكـن مـا الحيلـة؟ أنـا لـم أسـتطيع أن أتشـدد قط فـي معاملـة الناس، وأجدنـى معهـا أشـد ضعفًـا، بل أنـا "مضطـر" إلى التجـاوز عـن هناتها.

لـم أعلـق على قوله بشـيء. ولـم يلبث أن طـرق موضوعًا آخـر. وكنت كلمـا خبرتـه ازددت بـه تعلقًـا، ولـم ألبـث أن عرفتـه حـق المعرفـة. فهـو يتميـز بطبيعـة روسـية أصليـة، بطبيعـة شـريفة صادقـة، وباسـتقلال فـي التفكيـر. إلا أنـه يميـل مـع الأسـف إلـى التراخـي، ويفتقـر إلـى العزيمـة والحماسـة. فالشـباب لـم يضطـرم فـي أحشـائه، ولكنـه ألقـى عليـه ضـوءًا هادئًـا. وهـو يتمتـع بالـذكاء والجاذبيـة، ولكنـى لا أسـتطيع أن أستشـف الحـال التـي سـيكون عليهـا عندمـا يبلـغ سـن النضج. أسـيصبح فنانًـا بحق؟ إن تحقيـق ذلـك يحتـاج إلـى عمل متواصـل طاحن. وقـد أدركـت وأنا أنظر إلـى ملامحـه السـمحة، وأسـتمع إلـى حديثـه الليـن البطـيء، أن مثـل هـذا العمـل لا يتوفـر بمجـرد الرغبـة فيـه، ولا يتحقـق بإرغـام النفـس عليـه. بيد أنـه مـن المسـتحيل أن يـرى الإنسـان جاجيـن ولا يهـواه. وإن قلب جليسـه يتجـه إليـه بكليتـه. وقـد أمضينـا ما يقرب مـن أربع سـاعات جالسـين جنبًا إلـى جنـب علـىَ الأريكة، أو متجولين أمـام الدار؛ وفي خلال تلك السـاعات توشـجت بيننـا صداقـة وثيقة.

غربت الشمس، وحان وقت أوبتي، ولم تكن آسيا قد عادت بعد، فصاح جاجين:

ـ يالها من عنيدة!! دعني أرافقك في طريق عودتك، فسنستطيع المرور بدار السيدة لويز والتماس آسيا هناك. إن دارها لا تبعد كثيرًا عن طريقنا.

ونزلنا إلى المدينة، ومررنا بشارع جانبي ضيق متعرج، ووقفنا بباب بناية ذات أربعة طوابق، ولا يتسع عرضها لغير نافذتين، وقد خرج الطابق الثاني عن حذاء أسفل الدار، وزاحم جو الشارع. وتجاوز الطابقان الثالث والرابع كذلك حذاء الطابق الثاني. وبدت الدار بأحجارها غير منتظمة البناء، وبالعمودين اللذين يسندان أدوارها العليا، وبسقفها المائل المرصوف، وبطابقها الأعلى الناتئ نتوء المنقار... بدت كأنها طائر ضخم جائم على الشارع. ونادى جاجين:

ـ آسيا! أأنِت هنا؟

وسمعنا صوت نافذة تفتح. ونظرنا فإذا هيَّ نافذة غرفة مضاءة بالطابق الثالث ورأينا رأس آسيا الأسود الشعر يطل علينا؟ ويشرئب من ورائه وجه محطم الأنياب مظلم العينين، هو وجه السيدة الألمانية المسنة.

صاحت آسيا وهي تضع بيدها برشاقة على حافة النافذة.

ـ هأنذا! كم أنا سعيدة!! خذ، التقط هذا.

وقذفت لجاجين عودا مرصعا بزهر الجيرانيوم، وقالت:

ـ خذ هذا الزهر، وازعم أنني "السيدة التي خلبت لبك!"

وضحكت السيدة لويز، وقال جاجين لآسيا:

ـ صديقنا (ن) يعتزم الرحيل، ويود أن يحييك قبل انصرافه.

ـ أيريد الرحيل حقًا؟ أعطه عود الزهر إذن. ولن يطول غيابي عنكم.

وأقفلت النافذة، ولابد أنها قُبلت السيدة الألمانية مودعة. وناولتني جاجين الغصن صامتا فوضعته في جيبي صامتا كذلك. وتوجهت إلى شاطئ النهر وركبت القارب الذي نقلني إلى الشاطئ الآخر.

وأذكر أنى مشيت إلى دارى دون أن أفكر في شيء معين، ولكنى كنت أشعر بعبء غريب يثقل قلبي، ولم ألبث أن ثبت فجأة إلى رشدي إذ شممت رائحة لاذعة عرفتها من قبل لا يكاد الإنسان يصادفها في ألمانيا. ودرت بعيني فرأيت إلى جانب الطريق أعواد من نبات القنب كانت رائحة "الستيبا" (أرض روسيا المدرجة) تفوح منه وتذكرني بلادي، وتوقظ في نفسي عاطفة الحنين إلى الوطن. واستحوذت على رغبة في استنشاق عبير روسيا والتجول في أراضيها. وسألت نفسي: "ماذا أصنع هنا؟ ولم أحوم في هذه الأرض الغريبة وأخالط الغرباء؟. وتحول الثقل المميت الجاثم على صدري إلى اضطراب مرير حارق. ووصلت إلى منزلي وأنا أعاني حالة تختلف كل الاختلاف عن الحالة

التي عانيتها أمس. واستبد بي شعور أشبه بالغضب ظل متمكنا مني بعض الوقت وانتابني غيظ كظيم نهش صدري دون أن أعرف له سببا. وبعد فترة من الوقت جلست أفكر في الأرمل الغادرة (كنت اختم كل يوم من تلك الأيام بذكرى الأرملة الغادرة.)

وأحضرت أحد خطاباتها لأقرأه، ولكني لم أقدم حتى على فض غلافة لأن تفكيري تحول فجأة إلى مجرى آخر. فقد أخذت أفكر في... آسيا ومما خطر ببالي أن جاجين أشار عرضا، في حديث جرىَ بيننا، إلى عقبة تحول دون عودته إلى روسيا. وسألت نفسي بصوت عال: "كفى تعمية... أهيَّ حقيقة أخته؟"

خلعت ملابسي، وأويت إلى فراشي، وحاولت أن أنام. ومرت ساعة رفعت بعدها رأسي، وجلست في سريري، وأسندت كوعي إلى الوسادة، وأطلقت العنان لأفكاري التي ظلت تحوم حول "الفتاة اللعوب ذات الضحكات المغتصبة. "وقلت لنفسي:" إن وجهها أشبه بوجه رافائيل في صورته المعلقة بمتحف فارنسينا... وأنا واثق من أنها ليست أخت جاجين...".

- 5 -

وفـى صبـاح اليـوم التالـي عبـرت النهـر مـرة أخـرى إلـى بلـدة (ل) زاعما لنفسـي أنـى أود لقـاء جاجيـن، ولكنـى كنـت في الواقـع أتوق إلـى معرفة أي مسـلك ستسـلكه آسـيا معـي، وهـل سـتعمد إلـى مثل الحيـل والألاعيـب التي عمـدت إليهـا أمـس؟ وجدتهما معـا في غرفة الجلـوس، ومن العجـب - ولعل ذلـك يرجـع إلـى طول تفكيري في روسـيا ليلة أمس - أن آسـيا بـدت لي كأنها نمـوذج للفتـاة الروسـية. نعـم، بـدت كأنها فتـاة عاديـة، بل لعلها بـدت أقرب إلـى خـادم روسـية، كانـت تجلـس إلـى جانـب النافـذة مرتديـة ثوبـا عاديـا، وشـعرها مشـدود إلـى مـا وراء أُذُنيهـا. وطفقـت ترسـم بالإبرة بعـض النقوش علـى قطعـة قمـاش. وكانـت فـي هُدوئهـا وتواضعهـا كأنهـا لـم تـزاول إلا هذا العمـل، ولـم تعـرف إلا مثـل هـذه الجلسـة. وظلت مطبقـة الفـم لا تتكلم إلا نـادرا، وعينهـا لا تتحـول عـن علمها. وارتسـم على وجهها تعبيـر مبتذل لا روح فيـه، فلـم أملـك إلا أن أتذكـر مـا تنضح بـه وجوه فتياتنـا العاديات مـن تعبير. وكأنمـا أرادت أن يكتمـل الشـبه بينهـا وبينهـن فأخـذت تـردد أغنيـة: "أمـي، أمـي الحبيبـة!" وتذكـرت وأنـا أتأمـل وجههـا الشـاحب الهامـد مـا ازدحـم بـه رأسـي أمـس من أحلام. وشـعرت بحسـرة لـم أعرف لها سـببا... لقـد كان أمس يومـا رائعًـا... وأعلـن جاجيـن أنـه سـيخرج إلـى الخلاء ليرسـم بعـض المناظر الطبيعيـة، فسـألته أن أصحبـه إذ لـم يكـن فـي ذلـك مـا يضايقـه. فأجابنـي بقوله:

ـ بل علىَ العكس، فأنت تستطيع أن تعينني بنصحك...

وارتـدى سـترة وقبعـة "هولندية"، ووضع أدوات الرسـم تحـت إبطه، وخرج وأنـا فـي أعقابـه. وتخلفـت آسـيا فـي المنـزل. وكان جاجيـن قـد أوصاهـا قبـل خروجـه أن تزيـد الحسـاء غليا حتـى يصبح كثيفا. فوعدته أن تشـرف على طهيه. وعندمـا وصـل جاجيـن إلـى الوادي الـذي أصبح مألوفـا لدى، جلس فـوق صخرة وبـدأ يرسـم شـجرة بلـوط عتيقـة ممددة الفـروع. وتمـددت أنا على الحشـائش، وأخرجـت مـن جيبـي كتابـا وفتحتـه وتصفحتـه، غيـر أنى لـم أتم إلا قـراءة بضع صفحـات منـه، وكذلـك كان جاجيـن لا يبـدأ الرسـم حتـىَ يمـزق الورقـة التـي يرسـم فيهـا، ويطـوح بهـا بعيـدا، ثـم يأتـي بغيرهـا... وأمضينـا أغلـب الوقت في المحادثـة. وناقشـنا بجـد وحكمـه – حسـبما اعتقـد – طريقة العمـل الصحيحة. أي ناقشـنا المنهـج الـذي يجـب اتباعـه، والأخطـاء التـي يجب تحاشـيها، وأهمية الفنـان فـي هـذا العصـر. ورأى جاجيـن أخيـرًا أنـه غيـر مهيـأ للعمـل فـي ذلـك اليـوم. وتمـدد إلـى جانبـي، وتدفـق حديثنـا منطلقـا انطـلاق الشـباب. وانهمكنا فـي مناقشـة من تلك المناقشـات التـي تحتدم أحيانـا، وتغنى بالفكر والتشـويق أحيانًـا أخـرى، ولكنهـا تتصـف غالبـا بالغمـوض الحبيـب إلـى نفـس كل روسـي. وعدنـا إلـى المنزل بعد أن أشـبعنا أنفسـنا بمتعـة الحديث، وشـعرنا بالرضا كأنما قـد قمنـا بعمـل ناجـح ووجـدت آسـيا علـى الحـال التـي تركتهـا عليهـا. وراقبتها عـن قـرب فلـم أُلاحـظ عليهـا مـا يـدل علـى رغبـة فـي التجمـل أو الهـرج. ولا أحسـب أحـدا يسـتطيع أن يتهمهـا هـذه المـرة بالتصنـع. قـال جاجين:

ـ آه! إنها كالسجينة، لقد تحولت إلى رماد.

وفـى المسـاء تثاءبـت عدة مـرات تثاؤبا حقيقيـا لا تصنع فيـه، ثم انصرفت قبـل الأوان إلـى فراشـها. واسـتأذنت أنـا بـدوري فـي الانصـراف، وعـدت إلـى منزلـي، ولـم أسـتغرق فـي أحـلام كأحـلام البارحـة. فقـد كان اليـوم يـوم مشـاعر متزنـة رزينـة. وعندمـا أويـت إلى فراشـي لـم أتمالك مـع ذلك أن صحـت: "يالها مـن حرباء!!."ثـم أردفـت:" ومـع ذلـك فأنـا واثـق من أنهـا ليسـت أختـه!"

- 6 -

مضىَ علـيَّ أسـبوعان كامـلان وأنـا أزور جاجيـن كل يـوم. والظاهر أنَّ آسـيا كانـت تتحاشـىَ لقائـي. وهـيَّ مـع ذلك لم تكـن ترتكب فـي حضوري تلـك النـزوات الطائشـة التي أدهشـتني ذلك الإدهـاش في اليوميـن الأولين لمعرفتـي بهـا. ويبـدو أنـه كان هناك عامل خفـي يُحزنها أو يُربكهـا. بل إنها لـم تعـد تطلـق ضحكاتهـا التـي كانـت تطلقهـا مـن قبـل. وقـد دعانـي هذا إلـى مراقبتها باهتمـام وفضول.

كانـت تجيـد الفرنسـية والألمانيـة، وتتحـدث بهما في طلاقـة. ولكن شـيئا مـن مظهرهـا لـم يـدل علـى أنهـا حظيت فـي سـني طفولتهـا بأنثى ترعاهـا وتسـدد خطاهـا. فهيَّ لـم تتلق من صفوف التعليـم إلا كل غريب شـاذ، وهـيَّ فـي ذلـك تختلـف كل الاختـلاف عـن جاجيـن... وإذا نحـن اسـتثنينا قبعـة جاجيـن الهولنديـة الطـراز، وسـترة الفنـان التـي يرتديهـا، فإنـه فيمـا عـدا ذلـك يبـدو كالسـيد الروسـي المدلـل. اما هـيَّ فمُجَـردة مـن أيـة مسـحة تـدل علـىَ أنهـا سـيدة راقيـة. ولا أدل علـىَ ذلـك مـن أنهـا دائمـة الحركـة، لا تسـتقر علـىَ حـال. فهـيَّ نبـات بـرى لـم يطعـم. أو هـي نبيـذ مـا زال فـي حالـة التخمـر، وهـي حييـة هيوبـة بطبيعتهـا، فـاذا ضاقـت بخجلهـا وإحجامهـا بذلـت جهدهـا لتظهـر بمنظر الشـجاعة والاسـتقلال، ولكـن جهدهـا لـم يكـن يصيـب التوفيـق. وقـد حاولـت

أن استدرجها في القول أكثر من مرة لأقف علىَ طرف من حياتها السابقة التي قضتها في روسيا، ولكنها كانت تَحَجُم دائمًا عن الرد علىَ أسئلتي. بيد أنني علمت مع ذلك أنها عاشت شطًرا طويلاً من حياتها في روسيا قبل أن تغترب. ولاقيتها يومًا علىَ انفراد. كانت منكفئه علىَ كتاب وقد أسندت رأسها بيديها، وغرست أصابعها في شعرها، وراحت عيناها تلتهمان إحدىَ صحائفه. قُلت وأنا مقبل عليها.

ـ مرحى، فكم أنتِ مجتهدة اليوم.

ورفعت رأسها، وصوبت إلى نظرات جادة قاسية:

ـ أنتَ تظُن أنيِ لا أحسن غير الضحك

وتظاهرت بأنها ستغادر المكان.

ولمَحَتَ اسم الكتاب. ووجدته قصة فرنسية فقلت:

ـ أخشىَ أنني لا أستطيع استحسان اختيارك لهذا الكتاب.

ـ وماذا أقرأ إذن؟

وألقت بالكتاب علىَ المائدة وأضافت قولها:

ـ أولىَ بيِ أن أغادر المنزل، وأبحث عن متعة أستمتع بها.

وخرجت إلى الحديقة ركضا.

وفـى المسـاء جلسـت إلـى جاجيـن، وأخـذت أقـرأ لـه قصـة "هيرمـان ودوروثـى" بصـوت عـال، وكانـت آسـيا، أثنـاء قراءتـي، تمـر بنـا مرورا بيـن حين وحيـن. ولكنهـا أقبلـت بعـد ذلـك مطأطئـة الـرأس، وجلسـت إلى جانبـي هادئة صامتـة منصتـة إلـى أن أتيـت علـى آخـر القصـة. وفـي اليـوم التالـي ظهـرت لي بمظهـر جديـد لـم أسـتطع أول الأمـر تفسـيره، ولكنـى فطنـت بعـد ذلـك إلـى أنهـا أرادت أن تغـدو رزينـة كربـات البيـوت، تشـبهًا "بدوروتى". ومجمـل القول إنهـا تبـدو لـي دائمًـا لغـزًا يحتـاج إلـى حل. لقـد كانت رقيقة حساسـة، بيـد أنها كانـت تسـتهويني حتـى فـي حالـة اسـتثارتها لغضبى. والشـيء الذي كُنـت أزداد بـه اقتناعـا يومـا بعـد يوم هـو أنها لم تكـن أُخت جاجيـن. فهو لم يكـن يعاملها معاملـة أخويـة. فقـد كان يمنحهـا مـن عطفـه وتسـامحه فـوق مـا يمنحـه الأخ. وكان يبـدو، فـي الوقـت نفسـه، عصبيـا بعـض الشـيء في مجلسـها.

ووقـع حـادث غريـب أيد اقتناعـي هذا. ففـي إحدى زياراتـي لجاجين وجـدت بـاب كرمتـه مغلقًا، ولـم أضيع الوقت فـي التفكير عن سـبب ذلك، بـل تخطيـت السـور مـن فجـوة فيـه كنـت قـد لاحظتها مـن قبـل واقتربت مـن جوسـق علـى جانـب الممـر، غيـر بعيـد مـن السـور، تظلله الأعشـاب، وكنـت علـىَ وشـك أن أتجـاوزه، ولكـن الدهشـة تملكتني فجأة إذ سـمعت آسـيا تقـول باكيـة الصوت

ـ أنـا لا أُريـد أن أُحـب غيـرك – لا، لا. وإنمـا أُريـد أن أُحبـك وحـدك... أُريـد أن أظـل لـك علىَ الـدوام.

ـ كفىَ يا آسيا. هدئي من روعك. أنكِ لا تجهلين مبلغ ثقتي في صدق قولك.

وكان صوتهما ينبعث من الجوسق، وقد رأيتهما من خلال الأعشاب جالسين داخله. أما هما فلم يفطنا إلى وجودي.

وكررت آسيا قولها:

ـ أنت... ولا أحد غيرك.

وكانت تترامىَ علىَ صدره وهيَّ تُرسل تنهُدات مُتشنجة، وتُقبله حينا بعد حين، وتضُمه إليها أما هو فكان لا يّنسى يمسح شعرها الناعم بيده، ويكرر قوله:

ـ ماذا هنالك! ماذا هنالك!...

وقفت دقيقة أو دقيقتين جامدًا في مكاني. ثم تحركت، وخطر ببالي كومض البرق "أأدخل عليهم؟ لا، ولو دفعوا لي مال الأرض" وعدت أدراجي مسرعًا إلى الحائط، وتخطيته إلىَ الطريق، وكدت أركض أثناء عودتي إلى دارى، وتبسمت وفركت يدا بيد، مغتبطا بهذه الواقعة التي أثبتت صدق حدسي من حيث لم أتوقع (بيد أني لم أكن أَشُك في صدقه قط). وشعرت في نفس الوقت بمضض يوجع قلبي، ومما لا شك فيه أنهما عرفا كيف يكتمان سرهما، ولكن فيم هذا الكتمان؟ ولم يريدا تضليلي؟ إني لم أكن أتوقع ذلك منه... لشد ما كانت اعترافاتها مؤثرة!!...

- 7 -

استيقظت في الصباح مبكرًا بعد أن قَضَيتُ ليلة مُرهقة. وشعرت بثُقل في جسمي وتوتر في أعصابي. وقُلت لربة البيت ألا تنتظرني قبل المساء. وصعدت في الجبل الممتد إلى جانب النهر الذي ترقد مدينة (ز) في حضنه. وهذا الجبل هو واحد من سلسلة الجبل المسماة "ظهر الكلب" هاندزروك وهذه الجبال ذات أهمية جيولوجية كُبرىَ. فهيَّ مشهورة، علىَ الأخص بجودة حجر البازلت المستخرج منها، بيد أنني لا أميل كثيرًا للبحوث الجيولوجية. ولم أدر حقيقة ما كان يدور بخلدي في ذلك الصباح، ولكن شعورًا واحدًا من مشاعري الغامضة كان واضحًا لي كل الوضوح، وهو رغبتي في عدم رؤية جاجين وآسيا مرة أخرى. وكنت أؤكد لنفسي أن السبب الوحيد الذي نفرني منهما هو نفاقهما، فمنذا الذي أرغمهما على الظهور بمظهر الأخوين؟ وحاولت أن أبعد عن ذهني سائر الخواطر التي كانت تخطر لي عنهما.

ظللت أدور في تلك النواحي وفق هواي، فتنقلت بين الوادي والجبل، واسترحت في خان القرية، وتحدثت إلى نزلائه ورواده. ثم استلقيت في الخلاء على صخرة ملساء دافئة وراقبت السحب البيض وهي تسبح شفافة في الفضاء... لقد كان الجو في ذلك اليوم رائعًا.

ومرت بي ثلاثة أيام أنفقنها في مثل هذا اللهو. بيد أنى كنت أشعر

بين وقت وآخر بوخز في قلبي. ولم يرحني إلا أن هدوء المناظر الطبيعية في تلك البقعة من الأرض كان يلائم حالة نفسي وخواطري وقتذاك كل الملاءمة.

وأسلمت نفسي للأحاسيس المفاجئة، وللمؤثرات الوقتية. كانت المشاعر تتعاقب على نفسي في هدوء، ثم تتصل وتندمج، وتتحول في النهاية إلى عاطفه واحدة تنطوي على كل ما نبض له قلبي، ووقعت عليه عيني، والتقطته أُذُني خلال هذه الأيام الثلاثة... فمن رائحة خفيفة منبعثة من أشجار الصنوبر، ومن صياح المحتطبين وضجيجهم، ومن خرير الجداول الذي لا ينقطع، ومن ألوان الأسماك الجارية تحت مائها الشفاف. ومن حسن استدارة قمم الجبال الهادئة، ومن دكنة الصخور الضخمة، وجمال القرى النظيفة، والكنائس القديمة المحوطة بالأشجار، وطيور البراري وطواحين الهواء التي لا تكف مراوحها عن الدوران، ووجوه الفلاحين الوديعة الصديقة، وملابسهم الزرق، وجواربهم الشهب، وعرباتهم البطيئة تجرها جيادهم السمينة أو أبقارهم... والحجاج ذوو الشعر الطويل يخترقون الطرق النظيفة بين صفين من أشجار التفاح والكمثرى.

وأني أجد متعة حتى اليوم في استعادة تلك المشاعر. فلك التحية أيتها البقعة المتواضعة من أرض ألمانيا. أيتها البقعة التي تكفي نفسها بمواردها القليلة، ويحمل كل مكان فيها طابع اليد العاملة، وأثر العمل المتمهل الصبور تحية لك، وسلاما عليكَ!

وعُدت إلى منزلي في آخر اليوم الثالث، وقد فاتني أن أذكر أنى حاولت منذ غضبت علىَ أسرة جاجين، أن أحي في قلبي صورة الأرمل الخؤون، ولكن جهودي ضاعت هباء. وأذكر أنه حدث مرة خلال تلك الأيام الثلاثة، أنى كُنت أسترجع ذكرياتها وإذا بي ألمح فلاحة صغيرة لا تتجاوز الخامسة من عمرها، ذات وجه مستدير وعينين يقظتين، تُرسل إلىَّ نظرات الطفولة البريئة. لقد أخجلني صفاء تلك النظرات فعجزت عن مواصلة الكذب والرياء.. ومنذ تلك اللحظة أقلعت عن فكرة إحياء تلك العاطفة القديمة.

وقد وجدت في انتظاري كلمة كتبها لي جاجين، لقد عبر لي عن دهشته للسرعة التي نفذت بها فكرة الصعود إلىَ الجبل، ولامني على عدم التفكير في استصحابه وسألني أن أزوره عقب عودتي من رحلتي الجبلية.

قرأت رسالته متأملا، ولكني ذهبت في اليوم التالي إلى بلدة (ل).

- 8 -

تلقاني جاجين بحفاوة. وأمطرني فيضا من العتاب الصادق. وما كادت آسيا تراني حتى قابلتني بتلك الضحكات التي تطلقها دون سبب، ولم تلبث أن غادرتنا مسرعة. وشعر جاجين بالارتباك، وقال مغمغما: "لابد أنها مجنونة" ورجاني أن أتجاوز عن خطئها. ولست أنكر أن تصرف آسيا كان يثير أعصابي، كان يقلقني – وتلك الضحكات المفتعلة، والألاعيب الشاذة لم يكن من شأنها أن تعالج حالتي النفسية... وقد حاولت مع ذلك أن أظهر بمظهر من يجهل الحقيقة، وطفقت أحدث جاجين عن رحلتي القصيرة. وحدثني هو بدوره عما حدث له أثناء غيابي. ولكن محادثتنا انقطعت، فقد اقتحمت علينا آسيا الغرفة، ثم ارتدت راكضة. وأخبرت جاجين على أثر ذلك أن ورائي عملا هاما لابد أن أنجزه، وأن وقت أوبتي قد حان. وحاول جاجين في أول الأمر أن يستبقيني. ولكنه عاد فنظر إليَّ مليا، ثم قال إنه سيصحبني في طريق عودتي. وظهرت آسيا فجأة في الردهة، وأقبلت عليَّ ومدت يدها محيية، ولكنى اكتفيت بلمس أطراف أًصابعها، وانحنيت انحناءة خفيفة.

ركبت القارب مع جاجين إلى الشاطئ الآخر، ومررنا تحت الشجرة الحبيبة إلى نفسي، شجرة البلوط التي تحمل تمثال العذراء،

بيـن أفرعهـا وجلسـنا علـىَ مقعـد هنـاك، وأخذنـا نتأمـل المنظـر الطبيعـي المتجلـي لنـا. ثـم دارت بيننـا محادثـة هامـة.

لقـد بدأناهـا بتبـادل بضـع كلمات لا ربـاط بينها، ثم ركنـا إلى الصمت وأخذنـا نتأمل النهر المتدفـق المتلألئ.

وسألني جاجين فجأة، وعلى ثغرة ابتسامته العذبة المعتادة:

ـ خبرني يا صديقي، ما رأيك في آسيا؟ أظنك تجدها غريبة الأطوار.

أجبته وقد أخذتني الدهشة، فإني لم أتوقع أن يحدثني عنها:

ـ أي نعم.

لابـد أن تعرفهـا حـق المعرفة قبل أن تصـدر حكمك عليهـا، فهيَّ طيبة القلـب جـدًا، ولكـن بهـا لوثـة، وعشـرتها ليسـت سـهلة والذنـب فـي ذلـك ليـس ذنبهـا، فإنـك إذا عرفـت حكايتها...

وقاطعته متسائلًا:

ـ حكايتها؟!، أظن أنك قلت لي إنها...

وواصل كلامه دون أن يعير ارتباكي أهمية:

ـ أعقـدت الـرأي علـىَ أنهـا ليسـت أُختـي؟ ألا فاعلـم أنهـا أُختـي حقيقة، ولكنهـا ليسـت شـقيقتي. فهـيَّ ابنـة أبـى. وأنـى أسـتطيع ولا شـك أن أأتمنـك علـىَ سـرها، ولـن أخفـي عنـك مـن تفاصيلـه شـيئًا... كان أبـى علـىَ أكبـر

جانب من الحكمة والعطف والعلم، ولكنه كان سيء الحظ. وإذا كانت الأقدار لم تخصه دون غيره بويلاتها، فإنه كان أقل احتمالا من سواه فلم يستطع الصمود لأول صدمة من صدماتها. تزوج في صباه امرأة أَحَبها، ولكن زوجته، وهيَّ أمي، ماتت وأنا لم أتجاوز شهري السادس. وأخذني أبى بعد موتها إلى الريف حيث أقمنا أثنى عشر عامًا. وكان في تلك الأثناء يتولى تربيتي وتعليمي بنفسه، ولم يكن يخطر بباله أن يفارقني حتى جاء أخوه، أي عمى، إلى الريف لزيارتنا. كان عمى هذا يعيش في مدينة بطرسبرج ويتولى هناك منصبًا هامًا. واستطاع أثناء إقامته معنا أن يقنع أبى بأن يستصحبني معه. ويتولى أمري، مادام أبى لا يرى داعيا يدعوه إلى ترك الريف. وقد أشار إليه أنه لا يحسن بغلام في مثل سني أن يعيش في تلك الوحدة والوحشة، وقال إن أثر حالة أبى السيئة في نفسي سيؤدي إلى تخلفي عن الصبية الذين هم في مثل سني، بل إنه سيؤثر في استعدادي. وظل أبى يناقش حجج عمى مدة، ثم سلم بها في النهاية. وتحدرت دموعي وأنا أُودع أبى فقد كنت أُحبه رغم أنى لم أُشاهد ثغره يفتر عن ابتسامة واحدة. ولكنى ما وطئت أرض بطرسبورج حتىَ نسيت داري الريفية المظلمة الكئيبة. وأرسلني عمى إلى مدرسة عسكرية، ومنها ألحقت بكتيبة الحرس. وتعودت أن أزور الريف كل عام حيث أقضي أسبوعا أو أسبوعين. وكُنت أجد أبى في كل زورة أشد كآبة مما كان عليه في الزورة السابقة، وأميل إلى العزلة، حتى صار من فرط التفكير والتأمل كالناسك المغتزل الهيوب. كان لا ينقطع عن زيارة

الكنيسـة يومًـا واحـدًا، وكاد يفقـد عـادة الـكلام وحـدث فـي إحـدى زياراتـي لـه، وكنـت حينـذاك فـي العشـرين مـن عمـري، أن لاحظـت لأول مـرة وجـود فتـاة فـي المنـزل، سـوداء العينيـن، لـم تتجـاوز عامها العاشـر. ولـم تكن هذه الفتـاة إلا آسـيا بعينهـا، وقـد قـال لـي أبـى عنهـا "إنهـا صبيـة يتيمـة آواهـا ليطعمهـا ويحميهـا" – هـذه هـي عبارتـه بألفاظهـا – ولـم ألـق بـالا إلـى تلك الصبيـة، كانـت فـي صمتهـا وخجلهـا وسـكونها أشـبه بحيـوان صغيـر. وأذكـر أننـي كنـت كلمـا دخلـت الغرفـة المفضلـة عنـد أبـى، وهـي الغرفـة المظلمة الفسـيحة التـي ماتـت فيهـا أمـي، والتـي لـم يكـن بـد مـن إضاءتها بالشـموع حتـى فـي وضـح النهـار، أذكـر أن تلـك الصبيـة كانـت عنـد ذلـك تهـرب منى، وتتـوارى خلـف أحـد الصناديـق أو خلـف مقعـد أبـى العالـي المسـند، ثـم حـدث بعـد هـذه الزيـارة أن حالـت واجباتـي العسـكرية مـدة ثلاث سـنوات أو أربـع دون تكرارهـا. وكنـت أتلقـى مـن أبـى كل شـهر رسـالة مقتضبـة، ولكنـه لـم يكـن يشـير إلـى آسـيا فـي رسـائله هـذه إلا نـادرًا، وإلا عرضـا، كان فـي ذلـك الوقـت قـد تجـاوز الخمسـين مـن سـنيه، ولكنـه كان لا يـزال يبـدو فـي سـن الشـباب. فتصـور حالتـي عندمـا تلقيـت مـن وكيلـه، وأنـا مطمئـن كل الاطمئنـان إلـى موفـور صحتـه، نبـأ تعرضـه لمـرض قتـال يقتضـي السـفر إليـه فيمـا إذا رغبـت فـي لقائـه قبـل أن يحيـن حينـه، واندفعـت فـي طريقي إليـه، ووجدتـه لا يـزال علـى قيـد الحيـاة، وإن كان فـي رمقـه الأخيـر. وقـد فـرح بلقائـي فرحـا لا يوصـف، وطوقنـي بذراعيـه الواهنتيـن، وأطـال النظـر فـي عينـي محدقًـا تحديقًـا فيه أسـئلة وفيه توسـلات، وبعد أن وعدتـه بتنفيذ

رغباته الأخيرة طلب إلى خادمه القديم أن يستدعى آسيا. وعندما دخلت علينا الغرفة كانت لا تكاد تقف على قدميها من شدة الانتفاض.

وقال أبى في صعوبة:

ـ هائذا أوصيك خيرًا يا بنتي – بأختك، وسيحيطك يعقوب بالأمر جميعه .

قال ذلك وهو يشير إلى الخادم المسن. وانفجرت آسيا بكاء وزفيرا، وأخفت وجهها في فراش أبيها، ولم يمر غير نصف ساعة حتى كان المحتضر قد لفظ أنفاسه الأخيرة.

هذا ما علمته فآسيا ابنة أبى من "تاتيانا" التي كانت خادما للمغفور لها أمي. وأنى ما زلت أذكر تاتيانا هذه بوضوح... ما زلت أذكر وجهها المستطيل، وأساريرها الجميلة الجادة الفطنة، وعينيها الواسعتين السوداوين. كانت في نظر الناس أبية أنوفا بعيدة المنال. وكل ما استطعت أن استخلصه من حديث يعقوب المتحفظ أن أبى اتصل بهذه الفتاة بعد مرور سنوات على موت أمي. وقد أبت الفتاة أثناء تلك الصلة أن تعيش في قصرنا الكبير، وآثرت النزول في كوخ أخت لها متزوجة تضطلع برعى الماشية.

وكان أبى شديد التعلق بها. وقد أراد بعد رحيلي مع عمى أن يتزوجها، ولكنها لم تذعن لإرادته رغم رجائه وتوسله.

ومما قاله لي يعقوب وهو واقف إلىَ جانب الباب في أدب واحترام: "إن المغفور لها تاتيانا ڤاسيلييفنا كانت مثالا للحكمة وحسن الإدراك، وقد حرصت على ألا تسئ إلى أبيك بحال. كانت تقول له: "إذا تزوجتني فأية زوجة تكون قد تزوجت؟!... أنا لست سيدة راقية" هكذا كانت ترد على المغفور له وكان مثل هذا الحديث يجرى أمامي."

وقد رفضت تاتيانا أن تنتقل إلى منزلنا بعد أن وضعت آسيا، وظلت تقيم مع ابنتها في كوخ أختها. وأنا لم أكن أرى تاتيانا أيام صباي إلا في الكنيسة أيام الآحاد. كانت تقف بين الحشد إلى جانب النافذة متدثرة بشال مزركش تضعه على كتفها، ومعصوبة الرأس بمنديل أسود. وكانت الخطوط الجانبية لوجهها الصارم تبدو واضحة المعالم خلف زجاج النافذة اللامع. وإذا استغرقت في الصلاة انحنت في وقار متواضع، وكاد جبينها، وفقا للعادة القديمة، يلمس الأرض وعندما استصحبني عمى إلى بطرسبورج كانت آسيا قد أنمت عامين من عمرها. وعندما ماتت أمها كانت في الثامنة.

وعلى أثر موت تاتيانا استدعى أبى آسيا لتقيم معه في المنزل الكبير، وكان قد أبدى رغبته قبل ذلك في ضمها إليه، ولكن تاتيانا لم تسمح حتى بتلبية تلك الرغبة، وتصور يا صديقي المشاعر التي استولت على آسيا عندما وجدت نفسها بين جدران المنزل الكبير!!

إنها لـم تنس إلـى اليـوم تلـك اللحظـة التـي ارتـدت فيها ثوبهـا الحريـري الأول، وجـاء إليهـا خـدم القصـر واحـدًا بعد الواحـد يلثمون يدهـا، وبعد أن تعـودت حـزم أمهـا فـي تنشـئتها، وجـدت نفسـها متمتعـة فـي منـزل أبيهـا بحريـة مطلقة...

لقـد أصبـح أبوهـا معلمهـا ورفيقهـا الوحيد، وهـم لم يفسـدها، بل لم يدللهـا، ولكنـه كان يهيـم بهـا هيامـا فتركهـا تصنـع مـا بدالهـا، وكان يشـعر فـي قـرارة نفسـه أن هـذه الخطـة تضـر بهـا، ولكنـه لم يملـك الحيـدة عنها وأدركـت آسـيا علـى التو أنها أهم فرد فـي المنزل الكبيـر، وأن أباها صاحب المنـزل وسـيده، ولكنهـا أدركـت فـي الوقت نفسـه زيـف وضعهـا. فنما في نفسـها كبـر أخـذ يشـتد ويسـتفحل، ونمـا معـه خجـل لا يقـل عنه اشـتدادا واسـتفحالا. وتأصلـت فيهـا خصلـة سـيئة، وتبـددت بسـاطتها وأصالتها. وقد صارحنـي فـي أحـد الأيام بـأن حلمها في الحيـاة هو أن تحمل العالم بأسـره علـى نسـيان أصلهـا، وكانـت تخجل مـن أمها، بـل كانت تخجل مـن خجلها، وتباهـى فـي نفـس الوقت بـه تحديا.

وكـم سـمعت أُذُناهـا الصغيرتـان مـن قـول غيـر مناسـب لسـنها!!. أتـرى هـذا. ولكـن، أكان الذنـب ذنبهـا فيمـا حـدث؟... لقـد ظلـت تندفـع مأخـوذة بنشـوة الصبـا. وحـرارة دم الشـباب، دون أن تتـاح لهـا يـد تقودها إلـى جـادة الصـواب، ولـم تكـن لحريتهـا المطلقـة حـدود، ولـم يثقـل كاهلهـا أي حمـل، وكـم عقـدت العـزم علـى أن تصبـح سـيده خيـره كسـائر

من في سنها من سيدات المجتمع، وانكبت على القراءة بنهم، ولكن أية فائدة كانت ترجى من كل هذا مادامت حياتها قد بدأت بداية سيئة وتطورت تطور غير سليم؟! إلا أن قلبها ظل مع ذلك طاهرًا، وعقلها غير مأفون.

وهكذا وجدت نفسي شابًا في حوالي العشرين مسئولا عن فتاة في الثالثة عشر تعيش معه تحت سقف واحد، وفي الأيام الأولى التي تلت وفاة أبى كان سماع صوتي يكفي لإشعال جذوة الحمى في بدنها، وكانت ملاطفتي تشقيها، ومضت مدة قبل أن تألف عشرتي، ولكنها في الحق تبدلت بعد ذلك، فما تحققت من أنى أعدها أختي فعلا، وأنى متعلق بها تعلُق الأخ الصادق حتى تحولت إلى نقيض ما كانت عليه وهامت بي هيامًا – فعواطفها لم تكن تعرف الاعتدال...

وسافرت بها إلى بطرسبورج. ولم تكن صحبتها سهلة على نفسي، ولم يكن من الميسور أن أعيش معها تحت سقف واحد، فألحقتها بأحسن مدرسة داخلية في المدينة. وسلمت آسيا بأن فراقنا كان ضرورة لابد منها، ولكنها وقعت فريسة لمرض كاد يصبح قاتلا عقب ابتعادها عنى، ثم اعتادت حياة المدرسة شيئًا فشيئًا، وظلت تواصل تلك الحياة أربع سنوات، وخرجت من المدرسة كما دخلتها، خلافا لما كنت أتوقع. وكانت ناظرة المدرسة تشكوها إلىَّ باستمرار، وتقول "إن عقابها لا يثمر، والتلاطف معها لا يحدث صدى في

نفسها" كانت آسيا تلميذة لامعة ممتازة، بل كانت تفضل التلميذات جميعا، ولكن أية قوة لم تكن تستطيع أن تخضعها، فقد كانت عنيدة صارمة. ولم يكن قلبي يطاوعني على تأنيبها، فقد كانت حالتها تفرض عليها أحد مسلكين، فإما أن تذل وتستكين، وإما أن تتمرد وتثور. وهي لم تصاحب من زميلاتها إلا فتاة مسكينة ساذجة منبوذة أما سائر الزميلات، وهن كريمات المحتد، فكن ينفرنَّ منها، ويسعين إلى إيلامها ما وسعهن ذلك؛ ولكن آسيا لم تخضع لهن فتيلا، وبينما كان مدرس الدين يتحدث مرة عن الرذيلة صاحت آسيا: "الملق والجبن هما شر الرذائل". ومجل القول إنها واصلت خطتها كما بدأتها. ولم يطرأ أي تحسين إلا على سلوكها، ولو أن هذا التحسين كان طفيفًا.

وبلغت آسيا أخيرًا سن السابعة عشر، ولم يعد من المستطاع بقاؤها في المدرسة بعد تلك السن. وشعرت بحرج موقفي. ثم خطر لي على حين فجأة ذلك الخاطر السعيد وهو أن أستقيل من الخدمة العسكرية، وأسافر في صحبة أُختي إلى الخارج حيث أقضي عامًا أو عامين. وما كاد هذا الخاطر يطوف برأسي حتى قمت على الفور بتنفيذه. وها نحن الإثنين على شاطئ الراين كما ترانا، أحاول أنا أن أشغل نفسي بالتصوير بينما هي تتصرف تصرفًا أشد تطرفًا وشذوذًا. وأرجو بعد ذلك أن تكون في حكمك عليها أكثر كرمًا وتسامحًا. ثم اعلم أنها رغم كل ما تتظاهر به، تهتم كل الاهتمام برأي الناس فيها. لاسيما رأيك أنت...

وظهـرت علـى ثغر جاجين، بعـد أن أتم حكايته، بسـمته الهادئة ثانية. وأمسـكت يده، وشـددت عليها بقـوة. وقال وهو يعـود إلى الموضوع:

ـ لقـد فـات هـذا جميعـه، بيد أنـى أعاني معهـا الآن وقتًـا عصبيًا. فهي مخـزن بـارود. وإذا كانـت لـم تتلـق إلـى اليـوم بإنسـان، فمـاذا يكـون مـن أمرهـا لـو وقعـت فـي حبائـل الحب!!! وإنـي لا أبـرح أُفكر فيما قـد يصيبها فـي مثـل هـذه الحالـة؟! وأحـزر مـا طـاف برأسـها منـذ أيـام. أتهمتنـي أول الأمـر أنـى بـدأت أجفوهـا. ثـم أخـذت تؤكـد لـي أنها لا تحـب غيـرى، ولن تحـب غيـري فـي يوم مـن الأيـام، وكـم بكت يومـذاك!!

وقلت وأنا أُصحح رأيي فيهما:

ـ آه: هذا هو إذن ما حدث...

ثم سألته (قد أصبحنا نتحدث بصراحة):

ـ قـل لـي، أتقصـد أنهـا لـم تصادف أحـدًا علق بـه قلبها إلـى الآن؟ لابد أنهـا صادفت في بطرسـبورج شُـبَانًا...

ـ إنهـا لـم تشـعر لأولئـك الشُـبان بـأي ميـل. فهـيَّ تنتظر ولا شـك بطلا تنتظـر رجـلا مرموقًـا – أو تنتظر راعى غنم غير طبيعي يمـر بأعلى الجبل... ولكنـي أضعت وقتـك وأنا أثرثـر هكذا...

وهب واقفًا، فقلت له:

ـ اسمع – إني أود أن أعود معك ثانية.

ـ والعمل الذي جئت من أجله!!!

لـم أجـب، فابتسـم جاجيـن عـن رضـى. وعدنا إلـى بلـدة (ل). وعندما طالعـت الكرمـة المعهـودة، والمنـزل المسـتوى علـى رأس الجبـل، شـعرت بعذوبـة تغمـر جوانبـي. بل كأن شـهدًا خالصًـا أخذ يقطر في شـفاف قلبي.

- 9 -

قابلتنا آسيا على عتبة الباب. وكُنت أنتظر أن تضج بالضحك ولكنها أقبلت ممتقعة اللون، كاسفة البال، مطبقة الفم، وقال جاجين:

ـ ها هو ذا يعود. بل هو الذي عرض من تلقاء نفسه أن يعود... تصوري، وصوبت آسيا إلى نظرات فاضحة، ومددت أنا إليها في هذه المرة يدي، وضغطت بقوة على أناملها الباردة. وتولاني إشفاق شديد عليها، فقد وضح لي اليوم من أمرها ما كان يحيرني أمس. فقد أدركت جانبًا كبيرًا مما يقلقها ويعجزها عن التصرف برزانة، ويدفعها إلى التظاهر – لقد استطعت أن أتغلغل إلى أعماقها... فبين جوانحها حافز خفي يحفزها دائمًا إلى تلك التصرفات، وزهو جريح يمزق صفوها. ولكنها تقاوم ذلك بكل ما تملك من قوة. وقد أدركت كذلك شرف تعلقي بتلك الفتاة الغريبة، فلم تكن فتنتها البريئة التي تسبغ على قوامها النحيل ذلك الحسن والإشراق هيَّ وحدها التي تجذبني إليها. ولكن روحها هو الذي كنت أعشق.

أخذ جاجين يقلب أوراق رسومه، فعرضت على آسيا أن نقوم سويا بجولة في الحديقة، فقبلت عرضي على الفور في خضوع وغبطة. وما وصلنا إلى منتصف الطريق المنحدر إلى باب الحديقة حتى صادفنا صخرة كبيرة فجلسنا عليها. وبدأت آسيا الحديث بقولها:

ـ الم تشتق إلينا أثناء غيبتك... ولو قليلا؟

وأجبت على سؤالها بمثله:

ـ وأنتم! ألم تشتاقوا إلى تلك الأثناء؟

ورمقتني آسيا بطرف لحظها وأجابت:

ـ نعم...

ثم أردفت على عجل:

ـ أطاب مقامك في أعلى الجبل؟ أكان علوه شاهقًا؟ أهو أعلى من السحاب؟ حدثني عما شاهدت هناك. لقد خصصت أخي بأحاديثك وبخلت بها عليَّ...

ـ ولكنك كنت تؤثرين دائمًا أن تتباعدي...

ـ كنت أتباعد... لآن... ولكن سأبقى معك الآن.

ثم أسرت في أذني:

ـ لقد كنت غاضبًا اليوم... كما تعلم.

ـ أنا غاضب!!...

ـ نعم أنت.

ـ وأي شيء هنالك يغضبني!

ـ لسـت أدرى. ولكنـك غاضبًا عند حضـورك، وكذلك كنت عند انصرافك وقـد شـعرت بالأسـف لانصرافـك علـى تلـك الحـال. ولم يسـرني شـيء مثل رجوعـك ثانية.

وأجبت.

ـ وأنا كذلك شعرت بالسرور لعودتي،

واهتـزت أكتـاف آسـيا علـى نحـو مـا يحـدث للصغـار عندمـا يتولاهـم السـرور وقالـت:

ـ أنـا أسـتطيع أن أحـزر دائمًـا ما يعتمل فـي ضمير النـاس فما من مرة سـمعت فيهـا سـعال أبى من الغرفـة المجاورة إلا وأدركت مـا إذا كان راضيًا عنـى أم غاضبًا على.

ولـم تكـن آسـيا قـد حدثتنـي قبـل هـذه المـرة عـن أبيهـا ولذلـك أثـر حديثهـا عنـه فـي نفسـي تأثيـرًا عميقًـا. وسـألتها فجـاءة.

ـ أكنت تحبين أباك.

وشـعرت بالاحمـرار يتصاعـد إلـى وجهـي، فحـز ذلـك فـي نفسـي. ولم تجـد آسـيا جوابـا، واحمر وجههـا كذلك، وسـاد بيننا الصمت. وبـدت لنا في تلـك الأثنـاء باخـرة كانـت تمخـر الرايـن، وترسـل وراءهـا ذيلا مـن الدخان، فظللنـا نرقبها.

ثم قالت لي آسيا بصوت أشبه بالهمس:

ـ لماذا لا تحدثني عن أعلى الجبل؟

فسألتها:

ـ ولماذا أغرقت في الضحك أول ما رأيتني اليوم؟

ـ أنا نفسي أجهل السبب! فكم من مرة أضحك وأنا أود أن أبكى.

فلا تحكم علىَّ بما. أفعل. والشيء بالشيء يذكر... ما أجمل أسطورة "لوريلي"! فهذه هي صخرتها؛ أليس كذلك؟ قالوا إنها كانت تغرق كل من يهيم بها. فلما وقعت هي بدورها في حبائل الحب أغرقت نفسها... كم أحب هذه الأسطورة! إن السيدة لويز تروى لي ألوانا من مثل هذه القصة... وفي دار السيدة لويز قطة سوداء ذات عينين سوداوين.

ورفعت آسيا عينيها إلىَّ، وهزت رأسها فتهدلت خصائل شعرها.

وقالت متهللة:

ـ آه! كم أنا سعيدة!!.

وغمرت آذاننا في تلك اللحظة نغمات رتيبة متقطعة، ثم تبينا انها دعوات ترتلها بين حين وحين حناجر مئات الحجاج الذين كانوا يعبرون الطريق الممتد تحتنا حاملين صلبانهم وأعلامهم.

قالت آسيا وهي ترهف أُذُنَيها لتلتقط بقايا تلك الأنغام المتلاشية.

ليتني أستطيع الذهاب معهم.

ـ أأنت تقية إلى هذا الحد؟!.

ـ أود أن أذهـب إلـى مـكان بعيـد. بعيـد جـدًا، وأن أصلـى. وأقدم على عمـل شـاق خطير.

ثم أضافت:

ـ إن الأيام تمر، والحياة تنقضي، ونحن لا نؤدي عملا.

قلت معلقا:

ـ أنـتِ فتـاة طمـوح تأبـىَ أن تنقضـي حياتهـا سـدى. أنـتِ تريديـن أن تتركـي أثـرًا وراءك.

ـ أتظن ذلك مستحيلًا؟

وكادت عبـارة "نعـم، أظنـه مسـتحيلًا" تفلـت مـن لسـاني، ولكنـى مـا رأيـت وميـض عينيهـا حتـىَ قُلـت.

ـ عليكِ أن تجتهدي...

وصمتـت فتـرة، ومـرت علـى وجهها ظـلال يطـرد بعضهـا بعضـا، ثـم شـحب لونهـا. وقالـت:

ـ خبرنـي!.. أأحببـت تلـك السـيدة بحـق؟ أنـت تعلـم مـن أقصـد. تلك السـيدة التـي شـرب أخـي الجعة بين الأطلال فـي صحتهـا.. وكان ذلك اليوم التالـي لتعارفنا.

أجبت ضاحكًا.

ـ كان أخـوك يمازحنـي، فأنـا لـم أحـب سـيدة بحـق. وأنـا الآن خالـي القلـب علـى أيـة حـال.

وعادت تسألني وهي تثنى رأسها إلى الوراء منفعلة بفضولها البريء:

ـ ما الذي يعجبك في السيدات؟

ـ ياللهُ من سؤال غريب!!

ـ كان يجب ألا أوجه لك مثل هذا السؤال، أليس كذلك؟

لا تؤاخذنـي، لقـد اعتـاد لسـاني أن يقـذف بـكل كلمـة تمـر بخاطـري. ولذلـك أخشـىَ أن أتكلـم.

فقلت لها:

ـ باللـه عليـكِ قولـي مـا شـئتِ دون تهيـب، فقـد أسـعدني أن تتغلبـي فـي النهايـة علـى حيائُكِ.

وأرخـت آسـيا هدبيهـا، وأرسـلت ضحكـة قصيـرة خفيفـة، ضحكـة لـم ترسـل مثلهـا أمامـي مـن قبـل. وقالـت متوسـلة وهـيَّ تسـوى طـرف ثوبهـا المنسـدل علـى سـاقيها كأنمـا تسـتعد لجلسـة طويلـة:

ـ هيـا حدثنـي، أو أسـمعني شـيئًا مـن محفوظاتـك، فـإن الطريقة التي كنـتِ تلقـيِ بها بشـعر يوشـكين فـي المـرة الماضية.

وتوقفت عن الكلام، ثم أنشدت مطبقه الفكين:

"أيـن الصليـب وأيـن ظـلال الأشـجار التـي كُنـت أراهـا فـوق قبـر أُمي التعسة".

فقلت مستدركا:

ـ ولكنك حرقت شعر يشكين هذا.

واستطردت وهي لا تزال مستغرقة في التأمل:

ـ وددت لو كنت مكان تاتيانا، بطلة قصة يوشكين...

ثم صاحت وقد انفعلت فجأة.

ـ ولكن حدثني... استمر في حديثك...

بيـد أنـى لـم أكـن علـى اسـتعداد للـكلام. ونظـرت اليهـا وهـي هادئة. وديعـة. متألقـة فـي ضـوء الشـمس، وكان كل مـا يحيـط بنـا، وكل مـا فوقنا ومـا تحتنـا مـن سـماء وأرض ومـاء. متألقا كذلك. بـل لقد خُيل إلـيَّ أن الجو نفسـه يتـلألأ، وقلـت لهـا وأنا أخفـض صوتـي دون قصد:

ـ أنظري كم كل شيء جميل حولنا!!

وأجابت وهي تخفض صوتها كذلك، وتتحاشى نظراتي:

ـ جميـل!!. لـو أننـا طيـر فكـم كنـا نطيـر! وكـم كنـا نحلـق! وكـم كنـا نغـوص فـي هـذه الزرقـة! ولكنـا لسـنا طيـرا.

قلت:

ـ قد نستطيع أن نثبت في جنبينا أجنحة:

ـ وكيف ذلك؟

تعلمي على كر الأيام. فهناك شعور يستطيع أن يرتفع بنا عن الأرض.. لا تتلقى. فسوف تكون لك أجنحة في يوم من الأيام.

ـ وهل كانت لك أنتَ أجنحة؟

ـ ليس من السهل أن أجيب... ولكنى أحسب أنى لم أحلق بعد.

وصمتت آسيا، وملت نحوها قليلا. وخرجت عن صمتها فجأة وسألت؟

ـ أترقص "الفالس"؟..

أجبت وقد حيرني سؤلها:

ـ نعم.

ـ تعال إذن... تعال! سأطلب إلى أخي أن يعزف لنا لحن تلك الرقصة... وسنتظاهر بأننا نطير... وسنتظاهر بأن لنا أجنحة.

وارتدت إلى المنزل راكضة، وركضت وراءها، وبعد بضع دقائق كنا ندور معًا في غرفة الجلوس، وننفعل على نغم "فالس اللانر".

ورقصت آسيا بأناقة وحماسة. وبدا على إبائها العذري الصارم شيء من اللين الأنثوي. وظلت يدي محتفظة بأحاسيس ملامستها

لذلـك الخصـر النحيـل مـدة طويلـة. وانقضـى زمـن قبـل أنسـى صـوت أنفاسـها السـريعة العذبـة وهـيَّ تتـردد بالقـرب منّـى، وجمـال عينيهـا السـوداوين وهمـا شـبه مغمضتيـن، ووجههـا الشـاحب وهـو يفيـض حيويـة فـي إطـار جدائـل شـعرها.

- 10 -

مـر ذلـك اليـوم علـىَ أسـعد حـال مسـتطاعه. فقـد لعبنـا كمـا يلعـب الاطفـال. وكانـت آسـيا تفيـض عذوبـة وبسـاطة، فاغتبـط جاجيـن لرؤيتهـا علـى هـذه الحـال ولـم أغـادر دارهمـا إلا فـي سـاعة متأخـرة، وعندمـا مـا توسـط القـارب الـذي كان ينقلنـي إلـى الشـاطئ الآخـر عـرض النهـر، سـألت النوتـي أن يدعـه وشـأنه، فكـف ذلـك الشـيخ عـن التجديـف، وحملنـا النهـر المتدفـق علـىَ صـدره المهيـب. ونظـرت فيمـا حولـي، وأرهفـت أذنـي، وأطلقـت العنـان لذكرياتـي. وعلـى حيـن فجـأة شـعرت بقلـق خفـي يـرج قلبـي... ورفعـت بصـري إلـى السـماء، فلـم أجـد حتـى فـي رحبهـا هـدوءًا. كانـت مرصعـة بالنجـوم الخافتـة المرتعشـة التـي لا يقـر لهـا قـرار. وانحنيت علـى صفحـة المـاء، وأرسـلت طرفـي إلـى أغـواره الداكنـة البـاردة، فوجـدت النجـوم تومـض فيهـا وترتجـف كذلـك. وشـعرت بنـوع مـن القلـق المتصـل يسـتحوذ علـى كل مـا يحيـط بـي، وينمـو كذلـك فـي قلبـي ويسـتفحل. واتـكأت علـى حافـة القـارب. واضطربـت لنـواح الريـح المطيفـة بأذنـي، وخريـر المـاء المصطـدم بمؤخـرة القـارب. وتصاعـدت إلـى بـرودة المـاء فلـم ترطـب أنفاسـي. وصـدح كـروان علـى الشـاطئ فصـب فـي عروقـي سـم ألحانـه العذبـة. وطفـرت الدمـوع إلـى عينـي، ولكنها لـم تكـن دمـوع انفعال وجدانـي مبهـم. فالشـعور الـذي غمرنـي وقتـذاك لـم يكـن مجـرد الرغبـة في

احتضـان كل مـا فـي الكـون، تلـك الرغبـة التـي تمـلأ آفـاق النفـس، وتحبـب إليهـا الغنـاء، وتشـعرها بمـا يكمـن فيهـا مـن محبـة وتفاهـم مـع الخليقـة جمعـاء... لا، لـم يكـن كذلك، ولكنـه كان ظمأ إلى السـعادة يفترسـني... وإذا كنـت لـم أجتـرئ علـى مصارحـة نفسـي بحقيقتـه إلا أن الـذي كنـت أتـوق إليـه هـو السـعادة، والسـعادة الجارفـة... وتهـادى القارب فوق صفحـة الماء، وانحنـى النوتـي الشـيخ علـى مجدافـه فاتـر الهمة.

- 11 -

وفـى اليـوم التالـي، وأنـا أشـق طريقـي إلـى أسـرة جاجين، لم أسـأل نفسـي عمـا إذا كنـت أحـب آسـيا. إلا أنـى كنـت لا أكُف عن التفكيـر فيهـا، وكان مصيرها يثيـر اهتمامـي الشـديد. وقـد أثلـج صـدري أننـا أصبحنـا نحـن الإثنين أشـد تقاربا وتفاهمـا. وكان يخيـل إلـيَّ أنـى لـم أعرفهـا إلا منـذ يـوم واحـد، فهـيَّ قبـل ذلـك ظلـت متباعـدة عنـي. وأمـا وقـد تفتـح لـي فـي آخر الأمـر قلبهـا. وبدت لـي على حقيقتهـا، فـأي نـور غمـر صورتهـا الماثلـة فـي خاطـري! وأية جـدة اكتسـبتها تلك الصـورة، وأيـة ألـوان مـن الفتنـة الخفيـة انبثقت مـن مكنـون أعماقها!!.

اندفعـت أطـوى الطريـق المعهـود بِخُطىَ سـريعة، متطلعًـا إلى البيت الصغيـر الـذي لـم يتحـول نظـري عنـه منذ بـدا لي عن بعـد كنقطـة بيضاء. وقـد اكتملـت سـعادتي وأنـا بعيد كل البُعد عـن التفكير في المسـتقبل، بل حتـى عـن التفكير في الغـد ذاته.

صبـغ الخجـل وجـه آسـيا عندما دخلـت عليها الغرفـة. ولـم يفتني أنها تأنقـت فـي لباسـها هـذه المـرة كذلـك. ولكـن مظهرهـا لـم يكـن يجـارى هندامهـا فـي أناقتـه فقـد كانـت كئيبـة... أمـا أنـا فكنـت على أحسـن حالة معنوية.

وخُيـل إلـيَّ أنـى فطنـت إلـى مـا يعتمل فـي نفسـها، فطنت علـى أنها كانـت علـى وشـك الهـروب منـى، ولكنهـا بذلت جهدهـا حتـى تغلبت على نفسـها وبقيـت فـي مكانهـا. وكان جاجيـن مصابـا بنوبـة مـن نوبـات الفـن الجنونيـة التـي تصيـب الهـواة الذين يتوهمـون أنهم أحكمـوا الخطة، وأنهم يوشـكون (علـى حـد تعبيرهـم) "أن يمسـكوا بالطبيعـة مـن ذيلهـا" كان أشـعث الشـعر ملطخـا بألـوان فرشـاته. وقـد أومـأ إلـى محييًا بطريقـة غير طبيعيـة. ولـم يتحـول عـن الصـورة التـي يرسـمها. كان يضيـف إليهـا بعـض الألـوان، ثـم يرجـع إلى الـوراء بضع خطـوات، ويدقـق فيها النظـر، ثم يعود إليهـا ويعـدل مـا صنـع وقـد أمسـكت عنـه حتـى لا أزعجـه، وجلسـت إلـى جانـب آسـيا، فتحولـت عيناهـا السـوداوان نحـوي بتـؤدة. قلت لهـا بعد أن عجـزت عـن حملهـا في الابتسـام:

ـ أنت تختلفين عما كنت عليه أمس.

فأجابت بصوت بطيء عميق النبرات:

ـ هـذا صحيـح، ولكنـه مـع ذلـك لا يهـم. أنـا لم أهنـأ بالنـوم ليلة أمس فقـد ظللـت سـهرانة أُفكر حتـى الصباح.

ـ وفيم كنت تُفكرين؟

ـ آه: فـي مختلـف الأمـور. كان هـذا دأبي منذ كنت طفلـة... منذ كنت أعيش مـع أمي.

وخرجـت هـذه العبـارة الأخيـرة مـن فمها بصعوبـة، ثـم إنهـا حملـت نفسـها علـى تكرارها:

ـ نعـم، منـذ كُنت أعيـش مـع أخـي، فكم كنـت أتسـاءل: لمـاذا يجهل الإنسـان مـا يخبئـه الغيـب؟!... ولمـاذا يشـعر الإنسـان فـي بعـض الأحيـان بقـرب انقضـاض الكارثـة ولكنـه يعجـز عـن دفعهـا؟! ولمـاذا لا يقـوى علـى الإدلاء بالحقيقـة كاملـة؟!... عندئـذ قلت لنفسـي إني أجهل كل شـيء، ومن واجبـى فـي هـذه الحالـة أن أتعلـم. ولابـد أن أبـدأ مـن البدايـة فإنـي لـم أنشـأ تنشـئة صالحـة، ولم أثقف كمـا يجب. فأنـا أجهل العزف علـى البيان، وأجهـل كذلـك فـن الرسـم، بـل إنـي أدرى أموهوبة أنـا أم لا؟

لابد أن الناس تتحاشى مُجالستي.

فقلت لها:

ـ أنـتِ تقسـين فـي الحكـم على نفسـك فمحصولـك من القـراءة كثير، وتثقيفـك محمـود. ثم إنـك بالفطنـة التي تتمتعيـن بها...

فسألتني:

ـ أتظنني فطنة لبقة حقا؟

وبلغ فضولها الساذج، وهي توجه لي هذا السؤال، حدا لم أتمالك معه أن ضحكت، ولكنها لم تجارني حتى بابتسامة، واتجهت إلى أخيها تسأله:

ـ أخي! أأنا لبقة؟

ولم يجبها أخوها. بل واصل عمله مبدلا فرشاة بفرشاة دون انقطاع ورافعًا يده كل حين في الفضاء.

واستطردت شاخصة الطرف متأملة:

ـ أنا أجهل في بعض الأحيان حقيقة ما يدور بخلدي. وأخشى في أحيان أخرى نفسي.

هذا صحيح... ثم إني أود... أيجب حقًا ألا تتوسع المرأة في الاطلاع؟...

ـ نعم... هذا حق ولكي...

ـ أرشدني إلى ما يجمل بي أن أقرأه.

وأضافت وهيَّ تبدى لي ثقة ساذجة:

ـ سأفعل ما تُشير عليَّ به.

ولم أفق إلى جواب سريع. فعادت تسألني.

ـ ألن تضيق بي؟...

ـ كلا بالطبع...

وقاطعتني وأنا في بداية قولي، وهتفت:

ـ آه. أشكرك، أشكرك كُنت أخشى أن تضيق بي.

وضغطت يدها الصغيرة الدافئة يدي. وناداني جاجين في هذه اللحظة قائلا:

ـ ألا تظن أن لون أرض الصورة أعتم مما يجب؟...

وتوجهت إليه. وقامت آسيا فغادرت الغرفة.

ـ 12 ـ

عادت بعد ساعة. وقالت مومئة إلى وهي لم تتخط عتبة الباب:

ـ خبرني؛ أتخزن عليَّ إذا هم أجلى!

ـ ما أغرب الخواطر مم التي تطيف برأسك اليوم!!

إن فكـرة المـوت القريـب لا تفارقنـي: ويخيـل إلـى في بعـض الأحيان أن النـاس جميعهـم يودعوننـي الـوداع الأخيـر والحـق إن المـوت خيـر مـن هـذه الحيـاة التـي أحياهـا... ليـس مـا يدعـو إلـى تحديقـك فـي هكـذا فأنا لا أدعـى القـول، أقسـم أنـى لا أدعيـه. وسـيعاودني الخوف منـك إذا ظللت ترسـل إلـيَّ نظراتـك هذه.

ـ أكنت تخافين منِّى حقًا؟

ـ ليـس الذنـب ذنبـي فأنـا غريبـة الأطـوار كما تـرى. ولم أعد أسـتطيع الضحـك ثانية.

وظلـت حزينـة مشـغولة البـال طـوال ذلـك النهـار. ولـم أوفـق إلـى إدراك مـا يعتمـل فـي نفسـها. كانـت نظرتهـا تلازمنـي فـي أغلـب الأحيـان فتسـرى فـي قلبـي رجفـة حقيقيـة بفعـل تلـك النظـرة الغامضـة. وكنـت أشـعر رغـم مظهرهـا الهـادئ أن دافعًـا يدفعنـي كل حيـن إلـى مواسـاتها والتوسـل إليهـا أن تهـدئ مـن روعهـا. وتبينـت وأنـا أنظـر إليهـا طيفًـا مـن

الفتنـة الشـجية يرتسـم علـى وجهها الـذي أطـرق وشـحب؛ ويبـدو فـي إيماءتهـا البطيئـة المتـرددة. ولأمـر مـا اسـتنتجت أنـى متضايـق.

قالت لي قُبيل انصرافي:

ـ أتعلـم أنـى لـم أعـد احتمـل منـك أن تظننـي هوجـاء طائشـة. عِدني أن تصـدق أي شـيء أقولـه لـك، واعلـم أنـى لن أقـول إلا صدقا... أقسـم لك علـى ذلك.

وحملني قسمها على الضحك من جديد. فقالت بحماسة:

ـ لا تضحك، وإلا سألتك اليوم عما سألتني عنهُ أمس: "لماذا تضحك؟"

ثم أضافت بعد فترة صمت.

ـ أتذكـر مـا قلتـه أمـس عـن "الأجنحـة"؟ لقـد نبتت لـي أجنحـة، ولكن إلـى أيـن أطير؟

فأجبتها:

ـ أنظري يا آسيا! فالعالم كله منبسط أمامك.

وشخصت إلى آسيا فلم تحول عينها عنى، وقالت مقطبة:

ـ أنت غير راض عنى اليوم.

ـ أنا؟! غير راض عنك!!

وقطع علينا جاجين الحديث. وصاح يخاطبني:

ـ لماذا يشاكس أحدكما الآخر اليوم؟ أأعزف لكما نغمًا مرقصًا كأمس؟

ـ فصاحت آسيا وقد اشتبكت يداها.

ـ لا، لا تفعل... لا رقص اليوم أيا كان الثمن...

ـ وفيم هذه الحماسة؟ إن أحدًا لم يرغمك على الرقص.

فأخذت تردد وقد ازدادت شحوبا:

ـ أيا كان الثمن... أيا كان الثمن...

وأخذت أفكر وأنا أقترب من الراين: أتكون قد عشقتني؟...

ـ 13 ـ

ورددت نفس السؤال حالما استيقظت في اليوم التالي: "أتكون قد عشقتني؟..." ولم أشأ بحال أن أسائل قلبي عن سره. ولكن كنت أشعر أن صورة الفتاة ذات الضحكات المفتعلة منقوشة فيه، وأنه ليس من الميسور التخلص منها. واتخذت طريقي إلى بلدة (ل)، وقضيت هناك النهار بطوله، إلا أنى لم أر آسيا إلا مدة دقائق معدودة، فقد كانت مُتْعَبة تشكو الصداع وعندما نزلت إلينا في درجات السلم بدت معصوبة الجبين، شاحبه الوجه، غائرة الخدين، لا تكاد تفتح جفنيها. وقالت وقد مرت على ثغرها ابتسامة عابرة:

ـ شدة سوف تزول. أمرها بسيط. وكل شيء إلى زوال، أليس كذلك.

وعادت من حيث أتت. وعانيت حالة من الكآبة ممزوجة بانقباض شديد. ولم أستطع حمل نفسي على مغادرة المكان، وظللت إلى حالة متأخرة حتى اضطررت إلى الانصراف دون أن أراها ثانية.

ومر اليوم التالي وأنا في شبه ذهول. وقد حاولت أن أشغل نفسي بعمل ما ولكنى أخفقت، فعولت على أن أكُف عن أي عمل وأي تفكير. ولكن هذه الخطة لم تنجح كذلك. فأخذت أحوم حول المدينة، وقفلت راجعًا إلى بيتي، ولكنى عُدت فخرجت ثانية...

سمعت صوت صبي يناديني فجأة:

ـ السيد (ن)!

ونظرت فوجدت صبيًا أمامي يناولني ورقة ويقول:

ـ هذه رسالة من الآنسة "أنيت"

وفضضت غلاف الرسالة، وعرفت خط آسيا السريع المتعرج. وقرأت ما يلي: "لابد أن أراك. انتظرني اليوم عند الصخرة القريبة من الكنيسة في الطريق إلى الأنقاض... لقد ارتكبت حماقة أرجو أن يغفرها الله لي. أحضر لتقف على جلية الأمر. قل للرسول: "نعم"."

وسألني الصبي:

ـ أمن رد؟

فأجبته:

ـ قل لها "نعم"

وانطلق الصبي ركضا.

- 14 -

وعندما دخلت غرفتي جلست وأطلقت العنان لأفكاري. وكان قلبي شديد الخفقان. وأعدت قراءة رسالة آسيا مرة بعد مرة. ونظرت إلى الساعة فوجدت عقربها يقترب من الثانية عشرة.

وانفتح الباب ودخل جاجين

كان متهجم الوجه. وأمسك بيدي فضغطها بشدة، فسألته:

ـ ماذا هنالك؟

فجذب كرسيًا وجلس أمامي، وقال وهو يتلعثم قليلا، ويتكلف الابتسام:

ـ حكيت لك منذ أربعة أيام تلك القصة التي أدهشتك. واليوم سأزيدك دهشة. وما كنت لأجرؤ على مصارحة غيرك بما أصارحك به.

فأنت إنسان مهذب، وأنت صديقي أليس كذلك؟ والآن استمع إلي... إن أختي آسيا هائمة بك هيامًا.

جفلت في عنف، وكدت أهب من مقعدي... وهتفت:

ـ أختك! تقول أختك...

وقاطعني قائلا:

ـ نعم، نعم، لقد جنت، وهي توشك أن تجرني إلى المجون. ومن حسن الحظ أنها تعلن ما تضمر... وتثق بي. أي قلب لقى بين جنبي هذه الفتاة!! ولكنها ستدمر نفسها. أنا واثق من ذلك...

فقلت له:

ـ لابد أنك مخطئ.

ـ ليست هناك ذرة من شك في صدق ما أقول. لقد قضت أمس أغلب يومها، كما تعلم، طريحة الفراش. وامتنعت عن الطعام، ولم تشك أو تتذمر، ومن عادتها ألا تشكو أو تتذمر ولم أقلق عليها رغم أنها أصيبت بحمى خفيفة قرب المساء. ولكن صاحبة البيت أيقظتني في الساعة الثانية صباحا وقالت:

ـ تعال إلى أختك فهيَّ في حالة سيئة.

وأسرعت إلى آسيا فوجدتها محمومة، مبللة بدموعها، ولم تكن قد خلعت بعد ملابس النهار. كان جبينها يلتهب، وأسنانها تصطك، فسالتها:

"ماذا بك؟ أأنت مريضة؟"

فطوقت عنقي بساعديها، وتوسلت أن أذهب بها إلى أبعد مكان مستطاع إذا كنت لا أزال مبقيًا على حياتها. وعجزت عن إدراك ما تعانيه وحاولت أن أرفه عنها. ولكن زفراتها ازدادت عنفا. ولكنى علمت فجأة أو بعبارة موجزة، أخبرتني خلال زفراتها أنها تحبك، وأؤكد لك

أن العقـلاء مـن أمثالـك وأمثالـي يجهلـون عمـق تلـك المشـاعر التـي تنتابها، والحالـة النفسـية العصيبـة التي تحدثهـا. إن مثـل تلـك المشـاعر تفاجئهـا كالصاعقـة وتصرعهـا دون أن تتـرك لهـا فرصـة للمقاومـة...

وواصل جاجين قوله:

ـ إنـي أجـدك بالطبـع جذابـا. ولكنـى لا أفهـم كيـف وقعت فـي حبائل حبـك هكـذا! أعتـرف أن هذا الأمر فـوق إدراكي. لقد قالت لـي إنها تعلقت بـك مـن أول نظـرة، وهـذا هـو مـا دعاهـا إلـى البـكاء في تلـك الليلـة التي أكـدت لـي فيهـا أنهـا لا تريـد أن تحـب أحـدا غيـرى. كانـت واثقة مـن أنك تزدريهـا. وقـد تكـون مامـا بتفاصيل سـيرتها. فأخبرتهـا أنى لـم أطلعك على شـيء مـن تاريـخ حياتها. ولكن حدسـها مخيف!!. وهيَّ لا تُريـد الآن إلا أمرًا واحـدًا. تُريـد أن ترحـل بعيـدًا. تُريـد أن ترحـل فـورًا، وجلسـت إلـى جانبها حتـى بـزغ الفجـر، ولـم تـزل بـي حتى أقسـمت لهـا أننا سـنرحل فـي اليوم التالـي، وعنـد ذلـك اسـتغرقت فـي النـوم. وفكـرت فـي الأمـر، وقلبتـه على مختلـف نواحيـه، واعتزمـت فـي النهايـة أن أحدثك بشـأنه. أنا أرى أن آسـيا علـى حـق. فمـن الأفضـل لنـا نحن الاثنيـن أن نرحـل. وقد كنت على وشـك أن أنفـذ هـذا الـرأي لـولا أن خاطـرًا خطـر لـي فحـال بينـي وبيـن تنفيـذه، فقـد تكـون أنـت أيضًـا متعلقًـا بأختـي؟ فـأن كان الأمـر كذلك ففيـم رحيلي معهـا؟ لذلـك عولـت علـى أن أنحـى الخـزي جانبًـا... ثـم إنـي لاحظـت أمرًا فقررت. أن أسـألك.

ووقع جاجين المسكين في ارتباك شديد وتمتم:

ـ أغفـر لـي تصرفـي، فأنـا لـم أقـع فـي مثـل هـذا المـأزق مـن قبـل.
فأمسـكت يـده، وقلـت فـي لهجـة حازمـة:

ـ إن كنـت تسـأل عمـا إذا كنت متعلقـا بأختك، فاعلـم إذن أنى متعلق بهـا فعلا.

ورمقني جاجين بنظرة، وقال متلعثما:

ولكنك لا تريد أن تتزوجها؟ أم تريد ذلك؟

ـ والآن! انتظـر منـى أن أسـتطيع الإجابـة على مثل هذا السـؤال. اسـال نفسـك عمـا إذا كان ذلك في اسـتطاعتي...

فقاطعني بقوله:

ـ أنـا لا أجهـل ذلـك... أنـا لا أجعلـه. فليـس من حقـي أن أُطالبـك بالرد علـى سـؤالي الـذي تجـرد مـن حسـن الـذوق كل التجـرد. ولكـن مـا الـذي كنـت أسـتطيعه؟ إن الإنسـان لا يمكنـه أن يهـزل معهـا. أنـت لا تعرفها حق المعرفـة، فهـيَّ قمينـة أن تقـع فـي برائن مرض عضـال، أو أن تهـرب منا، أو أن تضـرب لـك موعـدا... إن أيـة فتـاة أخـر تسـتطيع أن تكتـم ما بنفسـها... وتنتظـر. أمـا هـي فـلا... ثـم إن أمـرًا كهـذا لـم يحـدث لهـا من قبـل، وهذه هـي المشـكلة. ولـو أنـك شـاهدتها اليـوم وهيَّ تشـهق مرتمية علـى قدمي لعرفـت سـبب مخاوفي.

وجعلـت أمعـن النظـر فيمـا قالـه لـي جاجيـن، وكانـت عبارتـه "أو أن تضـرب لـك موعـدًا" كأنهـا طعنـة فـي قلبـي. وبـدا لـي أنـه لا يجمـل إلا أن أبادلـه صراحـة بصراحـة. فقلـت بعـد تـردد:

ـ نعـم، بيـدك حـق، فقـد تلقيـت مـن أختـك رسـالة منـذ سـاعة، وهـا هــي ذي...

فأمسـك جاجيـن بالورقـة، ومـرت عينـاه بأسـطرها فـي سـرعة، ثـم تـرك يديـه تسـقطان علـى ركبتيـه، وكـم كانت الدهشـة التي ارتسـمت علـى وجهه مضحكـة!! ولكنـى لـم أكـن فـي حالـة تسـمح بالضحـك. وقـال لـي بعـد ذلك.

ـ سـبق أن قُلـت إنـك رجـل شـريف، وأعـود الآن فأكـرر هـذا القـول... ولكـن مـا العمـل؟! مـا العمـل؟!... إنها تطلب منـى الرحيل، ثـم تكتب إليك وتلـوم نفسـها علـى مـا تطلبـه منـى!! ومتـى أتيح لهـا وقـت للكتابـة وماذا تُريد منـك؟!...

وعملـت علـى تهدئـة بالـه. وأخذنـا نناقـش الموضـوع بما وسـعنا من هـدوء، وننظـر فيمـا يجـدر عمله.

وقـد اسـتقر رأينـا فـي النهايـة علـى أن أذهـب إلـى آسـيا فـي الموعد المضـروب تفاديـا للفاجعـة، وأن أتحـدث إليهـا فـي صراحـة تامـة. وأخـذ جاجيـن علـى نفسـه أن يبقـى فـي منزلـه متظاهـرا بأنـه لا يعرف شـيئًا عن رسـالة أختـه. ثـم أقابلـه فـي المسـاء ثانية.

وضغط جاجين يدي مودعا وقال:

ـ إني أعتمد عليك، كن رفيقا بها... وبي. ونحن سنرحل غدا على أية حال. ثم أضاف وهو يهم بالانصراف:

ـ نعم سنرحل لأنك لن تتزوج آسيا... أليس كذلك؟!...

ـ أمهلني إلى المساء.

ـ حسنا. ولكنك لن تتزوجها...

وما انصرف حتى ارتميت على المقعد وأغمضت عيني. وظل ذهني ينسج الأفكار، ويشتد دورانه بفعل ما فرض عليه من أحكام. وقد غاظني جاجين بصراحته، وغاظتني آسيا كذلك بحبها الذي أسعدني وأشقاني في نفس الوقت. ولم أستطع أن أفهم السبب الذي دعاها إلى كشف سرها لأخيها. ثم إن اضطراري إلى اتخاذ قرار سريع، بل قرار ارتجالي، آلمني أشد الألم... وقلت وأنا أغادر مقعدي: "أأتزوج بفتاة لم تتجاوز السابعة عشر. ولها مثل ذلك المزاج! كيف أستطيع هذا؟".

ـ 15 ـ

انتقلـت إلـى شـاطئ الراين الثانـي في الميعـاد المتفق عليـه. وكان أول مـن قابلتـه هنـاك، ذلـك الصبـي الـذي جاءنـي فـي الصبـاح، كان يبـدو أنـه ينتظرنـي، ولـم يلبـث أن همس في أُذنـي وهو يناولني رسـالة جديدة.

ـ إنها من الآنسة أنيت.

وأنبأتنـي آسـيا فـي الرسـالة أنهـا غيرت زمـان المقابلـة ومكانهـا. فعلىَّ أن أقابلهـا بعـد سـاعة ونصـف مـن الزمـان المحـدد للوعـد الأول، وأن تتـم المقابلـة فـي منـزل السـيدة لويـز بـدل طريـق الكنيسـة، علـى أن أطـرق البـاب العمومـي، ثـم أصعـد إلـى الـدور الثالـث. وسـألني الصبـي:

ـ هل الجواب "نعم" كذلك.

فأجبته:

ـ نعم.

وتمشـيت علـى طـول شـاطئ الرايـن. فلـم تكـن هنـاك مندوحـة مـن الوقـت تسـمح برجوعـي إلـى دارى انتظـارا للموعـد الجديـد، ولـم أشـأ كذلـك أن أحـوم فـي شـوارع البلـدة. ثم ذهبت إلـى مقهى صغيـر منخفض مظلـل بالأشـجار يقـوم إلـى جانـب سـور البلـدة، ويحتسـى رواده الجعـة.

وأغلب أولئك الرواد متوسطو الأعمار، وقد اعتادوا أن يلعبوا هناك "بكرة الأوتاد". وكان صوت الكرات يتعالى أثناء تدحرجها، وتغمره كل حين صيحات الاستحسان. وجاءت إلى ساقية جميلة بكوب من الجعة. وكانت عيناها في لون الدم من كثرة البكاء، ونظرت إليها فأعرضت وانصرفت عنى مسرعة. وقال حضري بدين أحمر الخدين يجلس الى جواري:

ـ نعم، نعم. إن ساقيتنا مكتئبة، فقد جند حبيبها اليوم.

راقبتها وهي تنسحب إلى أحد أركان المقهى، وتجلس هناك حاملة رأسها بإحدى يديها، ولم تلبث دموعها أن انهمرت دمعة وراء دمعة، من خلال أصابعها. ونادى أحد رواد المقهى طالبًا كوبًا من الجعة. فأتت به إليه وارتدت مسرعة إلى ركنها. وأحدث حزنها أثر نفسي. واخذت أُفكر في الموعد الذي يخبئه لي الغيب. وملأت رأسي افكار كئيبة مضطربة. كنت أفكر في ذلك اللقاء المنتظر مثقل القلب بالهم. فأنا لم أزمع الذهاب إليها لأقتطف متع الحب المتبادل، ولكن لأفي بالوعد الذي قطعته على نفسي، ولأقوم بواجب باهظ الثمن. وتذكرت عبارة جاجين "ان الانسان لا يمكنه أن يهزل معها". ونفذت كل كلمة من هذه الكلمات إلى قلبي كرأس السهم. ولكن... ألم أشعر منذ أربعة أيام، وأنا على ظهر القارب المنساب مع التيار، بنهم إلى السعادة يفعم قلبي! وها هيَّ ذي السعادة المرجوة متاحة

لـي اليـوم، ولكنـى مـع ذلـك متـردد، بـل انـى أدفعها بعيـدة عنى وأحسـب أنـى مضطـر إلـى دفعهـا بعيـدة عنـى. وهـا أنـا ذا أعاني مـن جرائها شـجنًا ألقـى بـي فـي وحـدة القلـق والارتبـاك، ثـم ان آسـيا نفسـها، تلـك الفتـاة الجذابـة الغريبـة الأطوار، تملأ قلبي رعبا بمزاجها الملتهب وبسـوء تهذيبها، وبالماضـي الـذي يؤودهـا. وكـم تصارعـت فـي نفسـي المشـاعر المتضاربة وكل منهـا يحـاول الغلبـة والانتصـار!! واقتـرب موعـد اللقـاء، فانتهيـت إلـى رأى، وقلـت لنفسـي فـي عـزم وتصميـم: " أنـا لـن أسـتطيع أن أتزوجها ولن أشـعرها كذلـك أنـى أحبها! ".

غادرت مقعدي، ووضعت قطعة من النقود في يد السـاقية المسـكينة (فلـم تعـن حتـى بشـكري) وتوجهت إلـى منزل السـيدة لويـز وكانت ظلال المسـاء تتسـاقط علـى البلدة، وعـرض الأفق يعكس حمرة الشـفق. وطرقت بـاب السـيدة لويـز طرقا خفيفـا، ففتح على الفـور، واجتـزت الفناء فوجدت نفسـي غارقـا في ظلام دامس. وسـمعت صوت سـيدة تقول:

ـ تعالى من هنا. إنهم ينتظرونك.

وخطـوت خطـوة أو اثنتيـن فـي اتجـاه ذلـك الصـوت، وإذا يـد غليظـة تمسـك بيدي، فسـألت:

ـ أأنت السيدة لويز؟

وأجاب الصوت نفسه:

ـ نعم... نعم أيها الفتى النبيل.

وصعدت بي السيدة في سلم يكاد يكون عموديًا. ووقفت بي عند عتبة الدور الثالث وقد استطعت أن ألمح عند ذاك وجه تلك السيدة المجعد على خيوط من الضوء تنحدر من نافذة ضيقة، وكانت شفتها الغليظة المدلاة تنفرج عن بسمة معسولة. وأشارت وهي تدور بعينيها المطفأتين إلى باب صغير، فمددت إليه يدي المترددة، وفتحت مصراعه، ثم تركته ينصفق ورائي.

ـ 16 ـ

كانت الغرفة التي دخلتها شبه مظلمة إلى حد أنى لم أر فيها آسيا لأول وهلة. ثم تبينتها جالسة في مقعد بجانب النافذة. وكاد رأسها يتوارى بين طيات شال كبير التفعت به فبدت كعصفور خائف. وتلاحقت أنفاسها السريعة، وانتفض جسمها كله. فشعرت بشفقة لا توصف، وأقبلت عليها فتجنبتني، ومالت برأسها بعيدًا عنى. فناديتها:

ـ يا آنا نيكولا ييفنا!...

اعتدلت في جلستها وحاولت أن تلتفت إلى، ولكنها لم تقو على ذلك. فمددت يدي وتناولت يدها، فثوت كفها في كفى باردة لا حياة فيها. وبدأت تقول:

ـ كان قصدي...

وحاولت أن تبتسم، ولكن شفتيها أبتا أن تطاوعها وهتفت:

ـ كان قصدي... لا، لا أستطيع...

وأطبقت شفتيها ولم تزد. وكان صوتها يخونها بالفعل في كل كلمة نطقت بها. وجلست إلى جانبها وقلت:

ـ آنا نيكولا ييفنا...

وعجزت أنا أيضا عن مواصلة الكلام. وساد الصمت. وظللت

ممسكا بكفها وأنا جالس جوارها. كانت تتنفس بصعوبة وهي متسربله بشالها الكبير، وتعض شفتها السفلى لتتحاشى البكاء، وتوقف دموعها الصاعدة إلى عينيها. وعاودت النظر إليها فوجدتها في خجلها الهادئ ضعيفة تستثير الشفقة، وكأنما ألح عليها التعب فلم تستطيع إلا أن تدلف إلى ذلك المقعد وتتهاوى عليه. وشعرت بنفسي تطير شعاعا، وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ آسيا!...

فرفعت عينيها إلى في بطء... ويا لنظرة المرأة حينما يتمكن منها الحب!... من ذا الذي يستطيع وصفها؟! كانت هاتان العينان تتوسلان... وتسألان... وتفيضان ثقة... وتخضعان... وانهارت عزيمتي فلم أستطع مقاومة حسنهما. وشعرت بألسنة رفيعة من اللهب تجرى في عروقي. فانحنيت على اليد التي كانت مستسلمة ليدي، وضغطتها بشفتي. وصافح أُذني صوت مرتجف أشبه بأنه خافتة. وشعرت بلمسات خفيفة... بيد أشبه بورقة الشجر القلقة... تمسح شعر رأسي. ورفعت نظري إلى وجهها في تلك اللحظة فراعني ما طرأ عليه من تغيير مفاجئ. فقد تبددت دلائل الخوف التي كانت مرتسمة عليه. وبعدت نظرتها وكأنما غاصت إلى أغوار نفسها وجذبتني معها... وافترقت شفتاها قليلا. وشحب جبينها حتى صار في لون المرمر. وتطايرت خصائل شعرها إلى الوراء كأنما عبثت بها ريح خفية. ونسيت نفسي وجذبتها

إلى. فاستسلمت يدها في خضوع، وتبع جسدها يدها، وانحسر الشال عن كتفيها، ومال رأسها الصغير على صدري، ورقد فوقه متطلعا إلى شفتي... وغمغمت بصوت خافت:

ـ أنا لك...

وانزلقت يداي إلى خصرها... ولكن ذكرى جاجين مرت وقتئذ بخاطري كومض البرق، فصحت متراجعًا إلى الوراء:

ـ ما هذا الذي نرتكبه؟... إن أخاك... نعم، إنه يعرف كل شيء... يعرف سر هذا اللقاء...

وتساقطت آسيا على مقعدها. وواصلت قولي، وأنا أبتعد إلى ركن قصي بالغرفة:

ـ نعم إنه يعرف كل شيء، فقد اضطررت إلى البوح له به.

ـ اضطررت؟...

كررت هذه الكلمة بصوت غير واضح، وظهر أنها لم تكن قد استطاعت أن تثوب بعد إلى رشدها، وأنها لم تدرك مما قلت إلا لماما. وخاطبتها بحدة غير مفهومة السبب:

ـ نعم. والخطأ في الواقع هو خطؤك أنت. فما الذي دعاك إلى كشف سرك لأخيك؟ ما الذي دعاك إلى الاعتراف له بكل شيء؟ لقد زارني اليوم وأفضى إلي بكل ما قلته له.

وبذلـت جهـدي لأتحاشـى النظـر إليهـا، وجعلـت أذرع الغرفـة جيئـة وذهوبـا وصحـت قائـلا:

ـ لقد أفسدت أنت كل شيء الآن... أفسدت كل شيء.

وتحركت آسيا كأنما تهم بالوقوف فصحت ثانية:

ـ الزمـي مكانـك... اجلسـي... أرجـوك. فأنـت تعامليـن رجـلا شـريفًا... نعـم، تعامليـن رجـلا شـريفًا. خبرينـي باللـه عليـكِ، مـا الـذي أزعجـك إلـى هـذا الحـد؟ ألاحظـت علـى أي تقلـب أو غـدر؟!... إنـي لـم أسـتطع لـدى التقائـي بأخيـك أن أخفـى الحقيقـة عنـه...

وعـدت أسـائل نفسـي: "مـا هـذا الـذي أقولـه!" وترنحـت ألمًـا لفكـرة أنهـا أصبحـت تظننـي منافقـا عديـم الحس، تـدرك أن أخاها وقف على سـر الموعـد الـذي ضربتـه لـي، وأن مـا بيني وبينها فسـد بعد أن افتضـح أمره... ووصـل إلـى أُذني همـس آسـيا المرتعد:

ـ ولكنـى لـم أرسـل فـي طلـب أخـي وقـت مرضي. لقـد جاء مـن تلقاء نفسـه وواصلـت تهجمي:

أنظـري إلـى مـا فعلتـه!... وهأنـت ذي تريديـن أن ترحلـي... وقالـت بصوتهـا الناعـم المنخفـض:

ـ نعـم، لابـد أن أرحـل. وهـذا هـو مـا دعانـي إلى طلـب لقائـك... فقد أردت أن أودعـك...

فأجبتها:

ـ أتظنين أنه يسهل عليَّ فراقك؟...

وسألتني بلهجة تدل على الحيرة:

ـ ولكن لماذا أفضيت إلى أخي بسر هذا اللقاء؟...

ـ قلت لك إنه لم يكن لي بد من ذلك... وأنت؟... لماذا كشفت أنت سرك لأخيك!...

أجابت ببساطة:

ـ كنت قد أغلقت على نفسي باب غرفتي في تلك الليلة، ولم أكن أعلم أن صاحبة الدار تملك مفتاحًا آخر لبابي...

وكاد هذا التصريح البسيط الذي فاهت به؛ في تلك اللحظة يثير غضبى... وإني عندما أذكر ذلك الآن بعد مرور تلك السنين الطويلة يغلبني التأثر الشديد... مسكينة تلك الطفلة الصادقة الشريفة. واستأنفت الكلام

ـ انقضى الآن كل شيء... كل شيء... ولابد أن نفترق توا.

واختلست إليها النظر، فرأيت الدم يتصاعد فجأة إلى وجهها، وأدركت أنها تعاني شدة الخجل والألم. وأنا نفسي كنت مضطربا... كُنت أُعاني نوعا من الحمى وأنا أقول لها:

ـ أنتِ لم ترعى العاطفة التي نشأت بيننا وبدأت تتكشف... وبدل

أن تتركيهـا تترعـرع وتنضـج، عملـت علـى تدميـر الروابط المتواشـجة بيننا. فأنـتِ لـم تثقي بـي... أنتِ أسـأت الظـن بي...

وأخـذت آسـيا وأنـا أقـذف بكلماتـي تنحنـي شـيئًا فشـيئًا حتـى وقعـت فجـأة علـى ركبتيهـا، وتلقـت رأسـا المتدلـي بيديهـا، ورددت الزفـرات الحـارة. فاندفعـت صوبهـا، وحاولـت أن أعاونهـا علـى النُهـوض، ولكنهـا قاومتنـي. ومـن عادتـي أنـى لا أحتمـل دمـوع السـيدات فرؤيتهـا تفقدنـي صوابـي. وأخـذت أردد القـول:

ـ آنا نيكولاييفنا!!... آسيا!!... أتوسل إليك أن تَكُفي عن البكاء.

وتناولـت يدهـا مـرة أخـرى. ولكنهـا، لشـدة دهشـتي، هبـت واقفـة علـى قدميهـا، واندفعـت فجـأة إلـى البـاب فـي مثـل ومـض البرق، وتـوارت عـن ناظري.

وعندمـا دخلـت علـى السـيدة لويـز الغرفـة بعـد بضـع دقائـق وجدتنـي لا أزال واقفـا وسـط الغرفـة دون حـراك كمـا لـو كنـت قـد أُصبـت بصاعقـة. ولـم أسـتطع أن أفهـم كيـف انتهـى لقاؤنـا علـى هـذا النحـو مـن الاقتضـاب والسـرعة دون أن أتمكـن مـن التعبيـر حتـى عن جـزء ضئيل مما أردت أن أقولـه، أو ما كان يجـب أن أقولـه، ودون أن أتبيـن مـا كان يمكـن أن نصـل إليـه بالتفاهـم!!...

وسـألتني السـيدة لويـز وهـي ترفـع هدبيهـا الأشـهبين إلـى أن كادا يلمسـان حافـة حاجبيهـا:

ـ أخرجت الآنسة أنيت؟...

فألقيت عليها نظرة جوفاء وخرجت.

- 17 -

سلكت طريقي إلى تخوم البلدة، وواصلت السير حتى وجدتني في جوف الريف، وكان الغيظ أثناء ذلك يفترسني افتراسا. وأخذت أصب على رأسي اللعنة والتقريع. وسألت نفسي كيف فاتني أن أفهم السبب الذي حمل آسيا على تغيير مكان لقائنا؟

وكم كلفها أن تلجأ في مثل تلك الظروف إلى لويز العجوز؟ ولماذا لم أمنعها من مغادرة الغرفة؟!... لقد وجدت في تلك الغرفة المعزولة، شبه المظلمة، قدره وشجاعة على تأنيبها... وعلى صدها عنى... فهل أجد القدرة الآن على الخلاص من طيفها الذي يلاحقني؟!!... إني التمس غفرانها راجيًا متوسلًا... إن ذكرى ذلك الوجه الشاحب، والعينين المبللتين الوجلتين، وخصائل الشعر المهدلة على الجيد الأبيض الناصع، ولمسات الرأس الجميل الراقد على صدري... إن هذه الذكريات تلذع أحشائي لقد كنت أسمعها تهمس في أُذُني "أنا لك... أنا لك... " فإنني أؤكد لنفسي، ترويحا لها، أن ما أقدمت عليه لم يكن إلا خضوعا لنداء ضميري. ولكن هذا لم يكن صحيحا. ثم هل أنا حققت الغاية التي كنت أرجوها؟ وهل أقوى على فراقها؟... وظللت أردد بمرارة: "يا له من جنون!! يا له من جنون!!."

وزحف على الليل في هذه الأثناء، فاتخذت طريقي إلى حيث تقيم آسيا.

ـ 18 ـ

وخرج إلى جاجين، وصاح وهو لا يزال بعيدًا عنى:

ـ أقابلت أختي؟...

فسألته:

ـ أليست في المنزل؟...

ـ لا.

ـ ألم تعد بعد؟...

ـ لا... أرجو المغفرة، فإني لم أطق صبرًا. لقد خالفت ما اتفقنا عليه وذهبت إلى الصخرة المجاورة للكنيسة، ولكنى لم أجدها هناك.

وظننت أنها أخلفت معك الموعد.

ـ إنها لم تذهب إلى هناك.

ـ ألم تقابلها إذن؟

واضطررت أن أعترف له بأني قابلتها، فسألني.

ـ وأين كان ذلك...

ـ في منزل السيدة لويز. وقد افترقنا منذ ساعة.

ثم أضفت قولي:

ـ كنت متأكدًا أنها فقلت راجعة المنزل.

فقال جاجين:

ـ سننتظر.

ودخلنا المنزل، وجلسنا جنبا إلى جنب صامتين. وشعرنا بارتباك شديد. وكان نظرنا لا يتحول عن الباب، وآذاننا المرهفة لا تكف عن التصنت. ثم هب جاجين واقفًا وهتف:

ـ لست أدرى كيف أتصرف! إنها ستقتلني. نعم ستقتلني. دعنا نخرج للبحث عنها.

خرجنا من المنزل إلى ظلام دامس. وسألني جاجين وهو يشد قبعته إلى حاجبيه:

ـ فيم تحدثتما؟...

فأجبته:

ـ أنا لم اقضى معها إلا بضع دقائق. وقد أخبرتها بما اتفقنا عليه.
ـ أولى بنا أن نبحث عنها مفترقين، فهذا يتيح لنا فرصة أكبر للعثور عليها. ولترجع إلى المنزل بعد ساعة على أية حال.

ـ 19 ـ

انحـدرت فـي طريـق الحديقـة راكضـا، واندفعـت إلى المدينـة. ودرت فـي شـوارع المدينـة. مسـرعا، ونقبـت فـي كل مـكان، ومررت حتـى بمنزل السـيدة لويـز، وتطلعـت إلـى نوافـذه. ثـم اتجهـت إلـى الشـاطئ وقطعتـه عـدوا وكان نظـري يقـع علـى كثيـر مـن الفتيـات، ولكـن آسـيا لـم تكن من بينهـن. ولـم يعـد الغيظ هو الذي يفترسـني، بل خوف غامـض رهيب. وكان هنـاك شـعور آخـر غير الخوف ينهش أحشـائي، كان هناك تأنيـب الضمير... والنـدم... والحـب... نعـم الحـب، بـل أعـذب حـب!!... وأخـذت أضـرب كفا بكـف، وهتفـت باسـمها تحـت جنـح الظـلام، ويتعالـى هتافي شـيئًا فشـيئًا حتـى صـار مجلجـلاً. وكـررت لنفسـي أنـى أحبهـا، وأنـى لـن أفارقهـا طـوال حياتـي. وكنـت علـى اسـتعداد لدفـع أغلى مـا في الحيـاة ثمنا للمـس يدها البـاردة مـرة أخـرى، وسـماع صوتهـا العـذب ثانيـة، ورؤيـة وجههـا الجميـل مـن جديـد... مـا كان أقربها منـى!!... لقد جـاءت إلى بمـلء إرادتها، جاءت إلـى بقلـب طاهـر فيـاض الشـعور، جـاءت إلـى بنضـارة شـبابها المصـون... ولـم أقـدم حتـى علـى ضمها بيـن ذراعـي. بـل قذفـت بالسـعادة التـي كنـت سـأنعم بهـا وأنـا أرى وجههـا الجميـل الوجـل يتهلـل بغبطـة النشـوة السـاحرة... كان هـذا الخاطـر يقتـرب بـي مـن الجنون...

وصرخت وأنا بين براثن اليأس: "أين تراها ذهبت؛ وماذا تراها صنعت بنفسها" ولاح لي وقتئذ شيء أبيض يلتمع إلى جانب النهر. ولم أكن أجهل ذلك المكان. فهناك فوق قبر رجل انتحر عرقا منذ سبعين عاما قامت صخرة بيضاء متوجة بصليب، ومزخرفة بعبارات منقوشة... شعرت كأن قلبي توقف عن الخفقان. وجربت إلى القبر، ولكن الشيء الأبيض الذي رأيته كان قد تبدد... وصحت بأعلى صوتي. آسيا!... آسيا وارتعبت حتى من صدى صوتي، ولكن أحدا لم يجب...

وعقدت العزم على العودة إلى جاجين، فلعله عثر عليها.

ـ 20 ـ

اقتحمت طريق الكرمة... ولمحت نورا ينبثق من نافذة آسيا، فاطمأننت بعض الشيء. وصعدت إلى الدار، فوجدت الباب الأمامي مغلقا طرقته فأطل جاجين من نافذة معتمة في سفل الدار، وسارعت إلى سؤال:

ـ أوجدتها؟

ـ فأجاب همسا:

ـ شكرا لله! لقد عادت، وهي الآن في غرفتها تشرع في ارتداء قميص النوم، كل شيء على خير ما يرجى.

وقلت وأنا أتنفس الصعداء.

ـ شكرا لله، شكرا لله... سيكون كل شيء مُرضيًا مُبهجًا... لابد لي أن أراها مرة أخرى كما تعلم.

أجاب وهو يرخى ستر النافذة بلطف:

ـ مرة ثانية... نعم، مرة ثانية... والآن، طبت مساء.

صحت:

ـ الى الغد... ستسوى الأمور في الغد.

فكرر جاجين قوله:

ـ طبت مساء.

وأغلـق النافـذة... وهممت أن أنقر زجاجها بإصبعـي، وتأهبت للإفضاء إلـى جاجيـن بأنـي أُريد التـزوج بأخته. ولكنـى وجدت الوقت غير مناسـب لمثـل هـذا العـرض. وقلـت لنفسـي: "فلأصبـر إلـى غـد... ففي غد سـأصبح أسـعد إنسان".

كان المفـروض أن أسـعد فـي الغـد. ولكـن السـعادة لا تعـرف الغـد. وهـي ليـس لهـا مـاض كذلـك. هـي بنت سـاعتها فليـس هناك مـاض تذكره، أو مسـتقبل تفكـر فيـه. إنهـا تعيـش للحاضر، وليـس حاضرها يومـا أو بعض يـوم، ولكنـه لحظات.

ولا أذكـر كيـف عـدت إلـى دارى. فلـم تحملنـي إليهـا قدمـاي، ولـم يحملنـي قـارب ولكـن جناحيـن هائليـن طارا بـي إليها. وقد مـررت بحديقة يتعالـى منهـا تغريـد بلبـل، فمكثت مـدة أنصت إليـه. وخيل إلـى أن البلبل يصـدح تحيـة لحبي وسـعادتي.

ـ 21 ـ

واقتربت من المنزل الحبيب في الصباح التالي فراعني أن أجد نوافذه جميعها مفتوحة، وكذلك بابه. ورأيت قصاصات من الورق ملقاة أمامه، وخادما على العتبة ممسكة بمكنسة.

توجهت إلى تلك الخادم، وقبل أن أجد وقتا للسؤال عن أسرة جاجين صاحت في وجهي.

ـ لقد رحلوا...

ورددت قولها كرجع الصدى:

ـ لقد رحلوا!!... ماذا تعنين؟!... وإلى أين رحلوا؟؟...

ـ رحلوا في السادسة صباحا دون أن يذكروا جهتهم. ولكن صبرا. ألست السيد (ن).

ـ نعم.

ـ لقد تركوا لك رسالة مع صاحبة المنزل.

وصعدت الخادم إلى علو الدمار، وما لبثت أن عادت بالرسالة، وقالت:

ـ هذه لك.

وجعلت أهذى مرددا:

ـ كيف هذا؟! هذا غير ممكن...

ونظرت إلى الخادم بذهول، ثم استأنفت عملها.

فضضت الرسالة فوجدتها بتوقيع جاجين. ولم أعثر بها على كلمة من آسيا. طلب إلى جاجين في رسالته ألا أغضب لسفره المفاجئ، وأكد أنني سأوافقه بعد الروية على القرار الذي اتخذه. وأنه لم يجد مخرجا آخر من ذلك الموقف الذي تحرج وأصبح خطرا. وقال: "وقد اقتنعت أمس ونحن جالسان معا في انتظار آسيا أنه لابد من فراقكما. وهناك نوع من العذاب جدير بالتقدير والاحترام. أنا لا أجهل أنك لا تستطيع الاقتران بآسيا، وهي لم تدار عني شيئًا. ولذلك اضطررت إلى الإذعان لرجائها الحار المتكرر..." وختم خطابه بإظهار الأسف على قصر الصداقة التي توطدت بيننا، وبتأكيد حسن تقديره وتمنياته، وبرجائي ألا أحاول أقفاء أثرهم:

صحت وكأنه يسمعني: "أي عذاب هذا الذي تتحدث عنه!!... ما هذا الهراء؟!... بأي حق تبعدها عني... وأمسكت رأسي بيدي".

ونادت الخادم سيدتها بصوت عال. ونبهني صوتها إلى ضرورة الانصراف. وكانت فكرة واحدة تملأ حواسي، وتنهش كياني، هي أن أجدهما... مهما غلى الثمن. لم يكن في مقدوري أن أحتمل تلك الصدمة، وأن أرضى بالخل الذي ارتاه جاجين وقد علمت من صاحبة

البيت أنهما ركبا باخرة نهرية حملتهما منذ الصباح الباكر إلى الجنوب وتوجهت إلى المحطة النهرية فعرفت أنهما اشتريا تذكرتي سفر إلى مدينة "كولونى". وجريت إلى منزلي لأعد عدتي وأبحر وراءهما على ظهر السفينة التالية. وكان بيت السيدة لويز في طريقي. وبمروري به سمعت صوتا يردد أسمي. فتطلعت إلى أعلى ورأيت أرمل العمدة تطل من نافذة نفس الغرفة التي قابلت بها آسيا أمس. وابتسمت لي ابتسامتها المعهودة المنفرة، فأشحت بوجهي، وواصلت سيرى. ولكنها صاحت بأن لديها نبأ تريد الإفضاء به إلىَّ. وحملني قولها هذا على العودة أدراجي والصعود إلى منزلها. ومن أين أجد الكلمات التي أصف بها شعوري عندما وجدت نفسي ثانية في عين الغرفة التي ضمتني وآسيا؟!.

قالت العجوز وهي تبرز لي وريقة بين أصبعيها.

ـ كان علىَّ أن أعطيك هذه الورقة في حالة واحدة فقط، وهي مرورك بي للسؤال عنها... ولكن لا بأس. فأنت شاب ظريف... خذ. ها هي ذي.

وأخذت الورقة، ووجدت بها الكلمات الآتية مكتوبة على عجل. "أودعك وداعا لا لقاء بعده: ولا تظنني اخترت الرحيل بدافع المحافظة على كرامتي. ولكن أرحل دون أن يكون لي في ذلك خيار. فعندما بكيت أمامك أمس، كنت على استعداد للبقاء فيما إذا جادت

علـى شـفتاك بكلمـة واحـدًا. مجـرد كلمـة واحـدة. ولكنـك بخلـت بتلـك الكلمـة. وعلـى ذلـك فالـذي كان... هـو خير ما يمكـن أن يكـون. وداعا إلى الأبد!".

كلمـة واحـدة!... آه! مـا كان أشـد جنونـي!! لقـد قلـت هـذه الكلمـة أمـس والدمـوع تجـرى علـى خـدي. لقـد هتفـت بهـا فـي الخـلاء، ورددتهـا بيـن الحقـول... لكنـى لـم أقلهـا لهـا، وهـي صاحبتهـا... لـم أقـل لهـا:

أحبـك!!... لقـد عجـزت أمامهـا عن النطـق بها. إني لم أكـن أعي الحب الكامـن فـي نفسـي، حيـن قابلتهـا في تلـك الغرفـة، وعيا كاملا. بـل إن ذلك الحـب لـم يتضـح لـي علـى حقيقتـه حتـى وقتمـا كنـت جالسـا إلـى جانب أخيهـا فـي ذهـول ونحـن ننتظـر عودتهـا. إلا أنـه لـم تمـر دقائق علـى تلك الجلسـة حتـى تدفـق ذلـك الحـب حيـا عارمـا... تدفـق عندمـا خشـيت أن أفقدهـا، عندمـا خفـت أن يكون قـد أصابها مكروه. وجريـت إلى كل مكان، فـي الشـوارع وبيـن الحقول، باحثا عنها هاتفا باسـمها مناديـا... ولكن الأوان كان قـد فـات. وقـد يقـول قائـل "إن هـذا مسـتحيل"، ولسـت أدرى إن كان مسـتحيلا بالفعـل أم لا، ولكـن الـذي أدريـه هـو أنه حقيقـة واقعة.

كان رحيـل آسـيا بسـبب بسـاطتها واسـتقامتها. فلـو أنهـا كانـت تميـل قيـد أنملـة إلـى التجمـل والغـزل، أو أنهـا كانـت تسـتخف بزيـف موقفهـا، لمـا رحلـت. فهـيَّ لا تسـتطيع احتمـال مـا يحتملـه غيرهـا مـن الفتيـات...

ولـم يكـن فـي مقـدوري أن أفهم ذلك. كنت على وشـك أن أعتـرف لجاجين بحبـي وهـو يغلـق النافـذة المعتمـة أمس أثناء آخـر لقاء لنـا، ولكن فطنتي المشـؤومة حبسـت ذلـك الاعتـراف في حلقـي. فأفلتت من يدي آخر قشـة كان يمكـن أن أتعلـق بهـا وأصل إلى الغايـة المأمولة.

عـدت إلـى بلـدة (ل) فـي نفس اليـوم حاملا متاعـي، وركبت السـفينة النهريـة إلـى "كولونـى". وإنـي أذكر إلى اليـوم أنني رأيت السـاقية الحزينة، وأنـا أنظـر من السـفينة التي أخذت تشـق صـدر النهر، وأودع تلك الشـوارع والأماكـن والمغانـي التـي لـن أنسـاها ما حييـت، رأيت تلك السـاقية تجلس فـي مقعـد مشـرف علـى النهر، ولـم يبد على وجههـا، رغم شـحوبه، ما يدل علـى الحـزن. وكان إلـى جانبهـا فتـى وسـيم يتحـدث إليهـا ويضحـك. وظهر لـي، وأنـا في عـرض النهر، تمثـال العذراء، وقـد لاح حينذاك لمـدة ثوان من خـلال أوراق الشـجر الداكنة.

- 22 -

وقفت في "كولونى" على أثر أسرة جاجين. وعلمت أنهما غادرا تلك المدينة إلى لندن، فتبعتهما إلى هناك. ولكن جميع الجهود التي بذلتها في مدينة لندن الكبيرة بحثا عنهما باءت بالفشل. وظللت مدة طويلة أُوالي ذلك البحث دون أن أستطيع توطين نفسي على الإخفاق. واضطرني الواقع في آخر المطاف إلى فقدان كل أمل في العثور عليهما.

لم أرهما بعد ذلك قط. لم أر آسيا بعد ذلك أبدًا... وكانت هناك شائعات في أول الأمر تترامى إلىَّ عنهما بين الحين والحين، ولكنها انقطعت بعد ذلك نهائيا وأنا لا أعرف الآن أهيَّ باقية على قيد الحياة أم لا... ومنذ بضع سنين، وأنا في الخارج، وقع بصري لمدة لحظة على امرأة في إحدى عربات السكة الحديد تشبه آسيا كل الشبه، فأحيا منظرها في ذهني تلك الملامح الجميلة التي لا تُنْسَىَ. ولكن، أغلب الظن أنى خدعت في هذا الشبه الذي صادفني. إن آسيا ما زالت تمثل في ذهني تلك الفتاة الفاتنة التي رأيتها في أسعد سني حياتي. أما هذه الفتاة التي تشبهها فكانت تحتل مقعدا خشبيا في العربة، وتكاد تغرق بين زحمة الناس.

ولابد لي مع ذلك أن أعترف بأن فقدان آسيا لم يحزنني طويلا. فقد قلت لنفسي إن القدر أحسن صنعا بتفريقه بيننا، وواسيتها بأن آسيا لم تكن الزوجة التي تستطيع أن تسعد زوجها. كنت وقت هيامي بها في

ريعـان الصبـا، وخيـل إلـى وقتئذ أن المسـتقبل أبـدى، في حين أنـه القصير السـريع... الخاطـف، وكـم سـألت نفسـي: "أليس مـن الممكـن أن يتكرر ما حـدث لـي؟ بـل ألا يجـوز أن يتكـرر علـى نحـو أطيـب وأجمـل؟؟..." وقـد توثقـت علاقتـي فعـلا بكثيـر مـن السـيدات، ولكـن الأحاسـيس التـي أثارتها آسـيا فـي نفسـي، تلـك الأحاسـيس الرقيقـة العميقـة المتأججـة، لـم تتكـرر علـى ذلـك النحـو أبـدًا. ولـم تحتـل عبـون أخـرى قـط مكانـة عينـي آسـيا اللتيـن كانتـا تنظـران إلـى بذلـك الجنـان والـورد!... ولـم يرد قلبي قـط علىَ أي قلـب آخـر مـال إليـه، بتلـك الخفقـات الطربـة الجزلـة التي كان يـرد بها علـى خفقـات قلـب آسـيا. وإنِّـي مـا زلـت أحتفـظ، وأنـا أكابـد اليـوم حياة العزوبـة والوحـدة الكريهـة التـي قـدر لـي أن أحياهـا، مـا زلـت أحتفـظ بآثارهـا التـي أقدسـها، بالرسـالتين وبعـود الزهـر الـذي ألقتـه مـن النافـذة، وطلبـت إلـى أخيهـا أن يعطيـه لـي. إن ذلـك العـود مـا زال يحتفـظ إلـى اليـوم ببقايـا مـن عطـره. وقـد تكـون اليـد الرخصـة التـي جـادت علـيَّ بـه، والتـي لـم أسـتطع أن ألتمسـها إلا مـرة واحـدة، زاويـة يابسـة فـي قبرهـا... وأنـا مـاذا كان مصيـري أنـا؟!... ما الذي بقي منـى ومن تلك الأيام السـعيدة المحتشـدة بشـتى الانفعالات، والآمال والأحلام ذات الأجنحـة؟!! وإذا كانت بقيـة العبيـر الفائحـة مـن عـود الزهر البسـيط قـد أحيت من جديـد جميع أفـراح الإنسـان وأحزانـه؛ فهـيَّ قـد تسـتطيع البقـاء فـي هـذه الحالـة بعـد الإنسـان نفسه.

(تمت)

القصة الثانية

جداول الربيع

"أيام ما أسعدها!"

"أيام ما أبهجها!"

"مرت وتولت مسرعة"

"كجداول الربيع..."

أغنية قديمة

عـاد إلـى مكتبـه عندمـا كانـت السـاعة تجـاوز الواحـدة صباحـا. وأذن للخـادم الـذي جـاء يوقد الشـموع فـي الانصراف، ثـم ألقى بنفسـه ثقيلا على مقعـد وثيـر قائـم إلـى جـوار الموقـد، وأخفـى وجهـه بكلتـا يديـه. فهـو لـم يشـعر مـن قبـل بمثل هذا الإرهـاق الجسـدي والعقلي. لقد قضـى ليلته هذه بيـن سـيدات مؤنسـات ورجـال مثقفيـن. كان كثيـرات مـن أولئـك السـيدات كمـا يمتـزن بالحسـن، كان أغلـب أولئـك الرجال مـن ذوي المواهـب والعقول الممتـازة، وغنيـت محادثـات ذلـك المجلـس بألمعيتـه الباهـرة هـو كذلـك. ولكنـه مـع ذلـك لم يكابـد مللا مبرحا مـن قبل كالـذي كابده في تلـك. الليلة.

لقد شعر" بملل الحياة" الذي شكا منه قدماء الرومان، وغلب عليه تقزز من وجوده لم يسبق أن أخذ بخناقه في مثل تلك الشدة. ولو أنه كان أصغر سنا، لبكى من وطأ شقائه وضيقه وغيظه. وكان قلبه يطفح مرارة كاوية لاذعة كالحنظل وخيل اليه أن شيئًا كريهًا خانقًا يطبق عليه من كل ناحية كأنه ليلة من ليالي الخريف الرهيبة الظلام، فتضيق به السبل، ولا يجد مهربًا من ذلك الظلام وذلك الشقاء. ولم يكن يأمل في راحة النوم إذ كان واثقًا من أنه يطرق جفنيه.

ألقى بنفسه في لجة التأملات وكانت بطيئة مضنية مريرة...

أخذ يفكر في الزهر الباطل، والجشع المتفاقم والزيف التافه، وما إلى ذلك من صفات الإنسان وكل ما يتعلق به. واستعرض مراحل الحياة الفردية مرحلة بعد مرحلة،)وكان وقتذاك في الخمسين من سنه (فلم يجد واحدة منها تستحق أن يتساهل في الحكم عليها، إذ لا انقطاع في الحياة للعمل المتلاحق غير الهادف، ولإنفاق الجهود فيما لا يُجدي، ولتذرع الإنسان بوسائل يخدع بها نفسه، بعضها أصيل وبعضها مصطنع... ولا إحجام عن أي شيء يوفر اللهو والتسلية... ثم تطبق الشيخوخة فجأة كالصاعقة المنقضة من السماء، فإذا الخوف من الموت يكمن في كل شيء، متزايدا على مر الأيام... فتاكا. ثم... تنكشف الهاوية. وكان الأمر يهون لو لم يكن هناك إلا أن تزداد الأمور سوءا. بيد أن الضعف والألم سيتراكمان قبل النهاية كما يتركم الصدأ على الحديد...

لـم يكـن يـرى الحيـاة كالمحيـط الـذي تتعاقـب أمواجـه الـزرق علـى نحـو مـا يصف الشـعراء. ولكنـه كان يتمثلها بحـرًا هادئًا راكدًا شـفافًا ينصح بقاعـه المعتـم، ويحسـب نفسـه فـي قـارب هـش يطـل منـه يـرى فـي قاع البحـر الطينـي وحوشًـا مخيفة! ولا يجـد منغصا من المنغصـات التي تلازمه وهـي المـرض والجنـون والفقـر وعـدم التبصر وسـوء الطالـع... ويطيل وهو فـي القـارب التحديـق فـي المـاء، فـإذا وحـش مـن وحـوش البحر يبـرز من الظلمـات المتراكمـة، ويصعد إلى سـطح الماء رويدًا رويـدًا، وتتضح ملامحه شـيئًا فشـيئًا حتـى يبـدو على حقيقتـه البشـعة... ويقترب من القـارب حتى ليـكاد يصدمـه ويقلبـه. ولكنـه يتوقف دون ذلـك، ويأخذ في الابتعـاد ثانية، وتغيـم ملامحـه المخيفـة مـن جديـد، ويغطـس إلـى القـاع حيـث يفتـرش الطيـن، ولا يكـف عـن تحريـك زعانفـه... إلا أن السـاعة المحتومـة سـوف تحيـن، فيصعـد الوحـش دون توقـف حتى يضـرب القـارب فيقلبه...

دفـع برأسـه إلـى الـوراء، وهـب واقفًـا علـى قدميـه، وذرع طـول الغرفـة جيئـة وذهابًـا مـرة أو مرتيـن، ثـم سـار إلـى مكتبـه، وفتـح أدراجـه واحـدًا بعـد الآخـر، وقلـب فـي أوراقه، وفـي رسـائله القديمـة، وكان أكثرها مرسـلا إليـه مـن سـيدات ولـم يكـن يبحـث عـن شـيء محـدد واضـح فـي ذهنـه، ولكنـه كان يسـتهدف أن يجـد فـي الحركـة والنشـاط مهربًـا مـن أفـكاره المضنيـة. واكتفـى بهـز كتفيـه وهـو يتصفـح بعـض تلـك الرسـائل دون مبـالاة (وكانـت إحداهـا تنطـوي علـى وردة معقـودة بشـريط بـال)

ثـم أخذهـا رزمـة واحـدة، ونظـر إلـى الموقـد، ووضعهـا إلـى جانبـه، ولعله كان يزمـع حـرق تلـك المهمـلات التـي لا تُجـدى. وعاد يدس يـده في أدراج المكتـب، وحملـق فجـأة وهـو يخـرج مـن أحدهـا صندوقًـا أثريًـا صغيـرًا متعـدد الأضـلاع، وفتـح غطاءه. وكان بـه صليب صغير مـن العقيق محفوظ بيـن طيـات قماش مـن القطـن تغيـر لونه.

ظـل يحـدق فـي ذلـك الصليـب بضـع دقائـق. وأفلتـت مـن شـفتيه صرخـة خافتـة تـدل علـى الدهشـة. ولاحت فـي عينيه نظرة عابرة رسـمت علـى ملامحه تعبيـرًا ينـم بعضـه عـن سـرور، وبعضـه عـن أسـى وحسـرة. ومثـل هـذا التعبيـر يمكـن أن يشـاهد علـى وجـه رجـل يقابـل فجـأة إنسـانًا لـم يـره من زمـن بعيد، وكان فيمـا مضـى يحبـه ويعـزه، فـإذا هو يـراه أمامـه دون توقع، متجليـا كما كان يتجلـى فـي العهـد الماضـي، وإن كانـت السـنون أحدثـت بـه بعـض التغيير.

غـادر مكانـه وقصـد الموقد، وجلس هنـاك في المقعـد الوثير، وأخفى وجهـه بكلتـا يديـه من جديد... وأخذ يسـأل نفسـه: "لـم يقع هـذا اليوم؟... لـم يقـع اليـوم مـن دون سـائر الأيـام؟!. وتوالـت علـى خاطـره ذكريـات حـوادث جـرت مـن قديـم... مـن قديم جـدًا. "

وها هو ذا ما خطر له منها...

ولكنـى يجـب أن نبـدأ بذكـر اسمه ولقبـه إن اسـمه هـو ديمتـرى پافلوفيتـش، ولقبـه سـانين.

وهل هو ذا يتذكره من ماضيه:

- 1 -

لـم يكـن سـانين قـد تجـاوز الثانيـة والعشـرين إلا قليـلا فـي صيـف عـام ١٨٤٠، وكان وقتـذاك بمدينـة فرنكفـوت وهـو فـي طريـق عودتـه من إيطاليـا إلـى روسـيا. ولـم يملـك يومئـذ مـن المـال إلا قـدرًا متواضعًـا، ولـم يكـن كذلـك متزوجًـا، ولـم يكـد يكـون لـه أقربـاء. وقـد ورث بضعـة آلاف روبـل مـن رجـل يمت إليـه بصلة واهيـة من القربـى، فقـرر أن يبعثرها في الخـارج قبـل أن يتولـى وظيفـة حكومية، أو قبـل أن يحمل علـى أكتافه في النهايـة نيـر الوظيفـة الحكوميـة التـي لا غنـى عنهـا لتوفيـر سـبل معاشـه. ونفـذ سـانين مـا قـرره بدقـة، ودبـر إنفاق مالـه بلباقـة ومهارة حتـى أنه لم يتبـق معـه منـه يوم وصوله إلـى فرانكفـورت إلا القدر الذي يكفـي لانتقاله إلـى بطرسـبورج. وكادت أوربـا تخلو عام ١٨٥٠ من السـكك الحديدية، وكان السـائحون يتنقلـون بيـن بلادهـا فـي عربـات البريـد. وحجز سـانين مقعدا فـي "عربـة دى" التـي تقـرر ألا تبـدأ السـفر إلا فـي السـاعة العاشـرة فـي هـذا المسـاء. ووجـد سـانين أمامـه فسـحة مـن الوقـت قبـل الرحيـل. ومن حسـن حظـه أن الجـو كان في ذلك اليـوم معتدلاً، فنزل إلـى المدينة ليلقى عليهـا نظـرة بعـد أن تنـاول غـداءه فـي مطعـم "البجعـة البيضـاء"، وكان في ذلـك الحيـن ذا شـهرة واسـعة. وتوجـه إلـى" أريـاد دانيكـر" ولكنه لـم يتأثر بمـا شـاهده هنـاك. ثـم زار منـزل "جوتـه" مـع أنـه لـم يقـرأ له مـن أعماله الأدبيـة إلا ترجمـة فرنسـية لقصـة "أحـزان فيرتـر". وتمشـى بعـد ذلك على

شاطئ نهر "المين" شاعرًا بذلك الملل الجدير بالسائح المحترم. ثم وجد نفسه في الساعة السادسة مساءً، بعد نهاية المطاف، في أشد شوارع فرانكفورت ظلمة، وجد نفسه واهن المفاصل مغبر الحذاء في ذلك الشارع الذي ظلت ذكراه مرتسمة في مخيلته مدة طويلة. رأى لافتة معلقة فوق دكان بإحدى الدور القليلة الموجودة هناك. وقد كتب عليها "جيوفانى باتستى روزيللى" بائع حلوى إيطالي... دخل سانين الدكان ليطلب كوبًا من عصير الليمون، ولكنه لم يجد أحدًا في مدخله الذي امتدت في صدره منصة مستطيلة متواضعة، وبدت وراءها رفوف نظيفة الدهان شبيهة برفوف الصيدليات، صفت عليها بعض زجاجات مُغلقة العنق بورق مذهب، وأوان تحوي كعكا وألوان من الحلوى. لم يكن بمدخل الدكان من الأحياء إلا قط أشهب الشعر يطرف بعينه، ويهر هريره، وتنكمش مخالبة وتمتد، وهو مستلقى على مقعد من الخيزران بجانب النافذة، وظهرت لفافة كبيرة من الصوف الأحمر ملقاة على الأرض، أحالت شمس الغروب لونها الفاقع إلى لون الياقوت، وقام إلى جانبها صندوق خشبي من صناديق الحياكة منقوش الجوانب.

وترامت إلى أُذُنْ سانين أصوات خافتة من الغرفة الداخلية. وتعالي رنين جرس معلق بالباب، فانتظر توقف ذلك الجرس عن رنينه ليسأل:" أمن أحد هنا؟ " ولكن باب الغرفة الداخلية فتح في تلك اللحظة، ورأى. سانين ما كاد يقطع أنفاسه...

- 2 -

فتاة في نحو التاسعة عشرة من سنيها، تتهدل خصائل شعرها الأسود على كتفيها العاريتين الناصعتين، اندفعت إلى مدخل المحل باسطة ذراعيها في هيئة توسل. وما وقع بصرها على سانين حتى قفزت إليه، وأطبقت يدها على يده، وحاولت أن تجره لتعود به إلى الغرفة الداخلية. وهتفت وهي لا تكاد تلتقط أنفاسها: "أسرع... أسرع... أنقذه" وأحجم سانين عن تلبية رجائها، والسير وراءها، لا إعراضا عنها، ورفضا لطلبها، ولكن دهشة شلت حركته، وصفدته في مكانه... كان جمالها الذي بهره فريدًا لم ير مثله في حياته... ارتدت الفتاة إليه صارخه "تعال... تعال!" وما أشد اليأس الذي أرجف وقتئذ صوتها، وأزاغ بصرها، وأربك حركات يديها اللتين كانتا تنهشان خديها!!... يأس لم يطالعه سانين حتى أطرح تردده، واندفع وراءها مجتازا الباب المفتوح دون أن يضيع دقيقة أخرى بغير داع.

رأى في الغرفة التي دخلها وراء الفتاة، صبيا ممددًا على مقعد أثرى الطراز، مكسو باللبد، كان ذلك الصبي في عامه الرابع عشر، قريب الشبه بالفتاة إلى حد غريب، وأغلب ظني أنه أخوها كان لون وجهه شبيها بلون الاموات، يشوب بياضه اصفرار، ويبدو كالشمع الخام أو المرمر القديم. وكانت عيناه مغمضتين، وشعره الأسود

الكثيف يلقى ظلاله على جبين ساكن منحوت كالتمثال، وحاجباه مرسومين بإتقان، وشفتاه المزرقتان تكشفان عن أسنان مطبقة، وبدا كأنه لفظ أنفاسه الأخيرة. كانت إحدى يديه مدلاة إلى الأرض، والثانية مطروحة فوق رأسه. ولم يكن قد خلع سترته التي ظلت موثقة العرى، وظل رباط رقبته المعقود يحز فيها.

ركدت الفتاة إليه مولولة: "لقد مات، لقد مات! كان يجلس إلى جانبي منذ برهة، ثم سقط فجأة بلا حراك. يا إلهي، أما من حيلة نلجأ إليها لإنقاذه!! أمي غير موجودة الآن... يا پانتاليونى!... أين الطبيب "؟... ثم استأنفت قولها بالإيطالية: "ألم تذهب لإحضار الطبيب؟"

وجاء صوت خشن من ناحية الباب:

ـ أنا لم أذهب بنفسي يا آنستي، ولكن أرسلت لويز.

وأقبل علينا رجل يعرج. كان متقدم السن، ضئيل الجسم، يرتدى سترة حمراء، طويلة ذات أزرار سود، وسروالا قصيرًا، وجوربا أزرق من الصوف، ويعقد حول رقبته رباطا أبيض عريضا. وكان وجه الصغير لا يكاد في الواقع يظهر تحت غابه شعره الكثيف الأشهب الخشن الممتد في كل ناحية من رأسه. هذا الشعر الذي جعل الرجل يبدو كالديك ذي العُرف. والذي يزيد هذا الشبه انطباقًا، أنف الرجل المقوس المدبب، وعيناه الصفراوان المنبثقتان من خلال فوضى فروة رأسه المغبرة.

وواصل قوله بالإيطالية.

ـ لويز أسرع منى في الذهاب، فهيَّ تستطيع الغدو.

وتقـدم وهـو يحـرك قدميـه المفرطحتيـن المصابتيـن بالنقـرس، المنكمشـتين فـي حـذاء طويـل ينتهـي أعـلاه بأربتيـن، وقـال للفتـاة.

ـ جئت ببعض الماء.

وكان يمسـك عنـق زجاجـة طويلـة بيد مجعـدة وأصابع ذابلـة. وقالت الفتـاة وهـي تمـد يديها صوب سـانين:

ـ ولكـن إميـل سـيموت قبـل وصـول الطبيـب! سـيدي الكريـم، أليـس بيـدك أن تصنـع شـيئًا؟

وقال الرجل الذي دعته باسم پانتاليونى:

ـ لقد أصيب بنزيف داخلي... من أثر صدمة عصبية.

ورغـم أن سـانين لـم يكن ملما بالطب أي إلمـام، إلا أن أمرًا واحدًا كان يعرفـه حـق المعرفـة، وهـو أن الصبيـة فـي سـن الرابعـة عشـرة لا يصابـون بمثـل تلـك الصدمـات. لذلك قـال لپانتاليونى:

ـ إنها إغماءه وليست صدمة. أعندكم فرشاة؟

ورفع الرجل المسن رأسه:

ـ ماذا؟

ـ فرشاة... فرشاة.

وكرر سانين هذه الكلمة بالفرنسية ثم بالألمانية. وطفق يمسح سترته بيده إشارة إلى ما يريد.

وفهم الشيخ في آخر الأمر ما أراده سانين وقال:

ـ آه! فرشاة... عندنا فرشاة بالطبع.

ـ أحضرها... وسنخلع ملابسه، ونفرك بها جسده.

ـ حسنا. ولكن، ألا نصب هذا الماء على رأسه؟

ـ لا. لنرجئ ذلك الآن. اذهب وأحضر الفرشاة بأسرع ما يمكنك

وضع پانتاليونى زجاجة الماء على الأرض، وجرى إلى خارج الغرفة وعاد بعد برهة بفرشاتين إحداهما فرشاة شعر، والأخرى فرشاة ملابس. ودخل في أعقابه جرو مجعد الشعر، يهز ذنبه بقوة، ويتفرس في وجوه الرجل المسن والفتاة، وسانين نفسه، متسائل النظرات، كأنما يريد أن يقف على سبب الارتباك.

ولم يتوان سانين عن خلع سترة الصبي المضطجع، وفك عروة ياقته، ورفع أكمام قميصه. ثم تناول إحدى الفرشاتين، وفرك بها صدره وذراعيه بكل ما يملك من قوة، وحذا پانتاليونى حذوه وأخذ يفرك بالفرشاة الأخرى، وهي فرشاة الملابس، حذاء الفتى وسرواله وخرت الفتاة في هذه الأثناء على ركبتيها إلى جانب المقعد، وأنشبت

أصابـع يديهـا فـي شـعرها وحدقت فـي الصبي بعينيـن لا تتحـولان عنه ولا تطرفان.

وكان سـانين وهـو يجاهـد بفرشـاته، يختلـس النظـر إلـى الفتـاة. ربـاه مـا أجملها!!.

- 3 -

كان انفها مستطيلا نوعا، ولكنه أقنى بديع التكوين، وشفتها العليا مظللة بزغب خفيف، وبشرتها ملساء ناعمة غير لامعة، تشبه العاج أو صمغ العنبر. وشعرها المهدل المتموج أشبه بشعر صورة "جوديث" المعروضة بمتحف بيتي. (لوحة الرسام ألورى) أما عيناها فلونهما الشهبة الداكنة، وتحيط بإنسانهما دائرة سوداء كانتا باهرتين خلابتين حتى عندما أطفأ بريقهما الخوف والحزن... وطارت خواطر سانين دون قصد إلى بلدهما الفاتن الذي خلفه وراءه منذ قليل... بيد أنه لم يصادف في إيطاليا كلها ما يصارع هذا الجمال. وكانت الفتاة تصعد أنفاسها بين حين وحين، وكأنما كانت في كل مرة تنتظر قبل تصعيدها أن يسبقها أخوها إلى التنفس.

ولم ينقطع سانين عن عمله، ولكن نظراته كانت تتجه ناحية الفتاة. وقد استرعى وجه پانتاليونى كذلك انتباهه. كان الشيخ الفاني قد أنهكه الجهد، فأخذ يلهث، ويشب كلما ضرب بفرشاته، ويتأوه مشفقًا متحسرًا. وتتأرجح فروة رأسه الكثة من ناحية إلى ناحية أخرى كلما هز رأسه بعنف، وتبدو كأنها نبات كثيف متشعب غمره الماء.

وأوشك سانين أن يقول له:" اخلع حذاءه على الأقل". ولكن الكلب الصغير الذي أثاره ولا شك ما يقع حوله من أحداث شب على رجليه الأماميتين واسترسل في النباح. وهمهم الشيخ وهو ينظر إلى الجرو.

ـ تارتاجليا... كناجليا!

وتبدل محيا الفتاة في هذه اللحظة. ارتفع حاجباها، واتسعت حدقتا عينيها، وأشرق وجهها جذلا.

ودار سانين بعينيه فشاهد خدّى الصبي يستعيدان ألوانهما، وهدبيه يطرفان، وفتحتي أنفه تتحركان. ثم استاف الصبي نفسا طويلا من خلال فكيه المطبقين، وتنهد. وصاحت الفتاة:

ـ إميليو!.. حبيبي إميليو.

وتفتحت عينا الصبي الواسعتان ببطء. وكانت نظراتهما خاليتين من أي معنى، ولكن بسمة خفيفة أخذت تصعد إليهما، ثم تتسرب كذلك إلى شفتيه الذابلتين. ورفع يده المدلاة إلى صدره بحركة عنيفة. وكررت الفتاة نداءه:

ـ إميليو!!...

وكان تعبير وجهها حيا قويا إلى حد الدلالة على أنها توشك إما أن تنفجر باكية، أو تنفجر ضاحكة. وتعالى في هذه الأثناء صوت يصيح من وراء الباب:

ـ إميل!... ماذا حدث يا إميل؟

وأسرعت إلى الغرفة سيدة أنيقة الهندام، فضية الشعر، سمراء البشرة. ودخل في أعقابها رجل متقدم السن، يبدو من ورائه رأس الخادمة حينا، ويتوارى حينا آخر.

وجرت الفتاة لمقابلتهم، وقبلت السيدة بانفعال وهي تصيح:

ـ لقد نجا يا أمي... لقد عاد إلى الحياة!...

وسألت السيدة من جديد:

ـ ولكـن، مـاذا حـدث؟ مـا كـدت أحضـر حتـى وجـدت السـيد الطبيب ولويـز علـى عتبـة الدار.

وطفقـت الفتـاة تسـرد لأمهـا تفاصيل مـا حـدث. واقتـرب الطبيب من المريـض الـذي كان يسـتعيد صوابه تدريجيا، ولا يكف عن الابتسـام. وكأنما كان خجـلا مما سـببه للحاضرين مـن انزعاج.

وقال الطبيب مخاطبا سانين وپانتاليونى:

ـ يبـدو أنكمـا كنتمـا تدلـكان جسـمه. لقـد أحسـنتما صنعا. إنمـا فكرة مدهشـة... ولنـر الآن مـا يجـب اتخـاذه من وسـائل العـلاج الأخرى...

وجس نبض الصبي وقال:

ـ هيه... أرنى لسانك.

وانحنـت السـيدة جزعـة علـى الفتـى، فاتسـعت ابتسـامته، وارتفـع نظـره اليهـا، واصطبغـت وجنتـاه حيـاء. وخطر لسـانين أن بقاءه قـد يضايق الموجوديـن، فانتقـل إلـى مدخـل المحـل، ولكنـه لـم يكـد يمسـك بمقبض البـاب الخارجـي ليفتحـه حتـى ظهـرت لـه الفتـاة واسـتوقفته، وقالت وهي تنظـر اليـه بلطف:

أأنـت تاركنـا؟... أنـا لا أريـد أن أسـتبقيك، ولكـن عدنـي أن تعـود إلينـا ثانيـة فـي المسـاء. فكـم نحـن مدينـون لـك!! إن أخـي كان سـيلقى لـولاك منيتـه. ولذلـك نـود أن نوفيـك حقـك مـن الشُـكر، وأمـي تـود ذلـك هـيَّ الأخـرى. لابـد أن تطلعنـا علـى اسـمك، وأن تشـاركنا فـي سـرورنا...

وأجاب سانين متلعثما:

ـ ولكنى مسافر الليلة إلى برلين

واعترضت الفتاة بحماسة:

ـ إن الوقـت متسـع أمامـك. عـد إلينـا فـي بحـر سـاعة لتشـاركنا فـي تنـاول كوب شـراب من الشـيكولاتة. عدنِـي بذلك... لابد أن أرجـع اليه الآن. ولكنـك سـتعود ثانيـة، أليـس كذلك؟؟

وهل بقي لسانين شيء من حرية التصرف؟؟... قال:

ـ سأحضر ثانية.

وضغطـت المخلوقـة الجميلـة يده بخفة، وعادت أدراجها كأنها فراشـة تطيـر. وبعـد دقيقة واحدة وجد نفسـه في عرض الشـارع.

- 4 -

عندما عاد سانين بعد ساعة إلى دكان الحلوى استقبله الموجودون كأنه أحد أفراد أسرتهم. وكان إميل لا يزال يجلس في نفس المقعد الذي كان يدلكه فيه. وقد وصف له الطبيب بعض الدواء، وأوصى أهله أن يحتاطوا كل الاحتياط في معاملته حتى لا يعرضوه للانفعالات النفسية، ذلك لأنه عصبي المزاج، ومعرض للأزمات القلبية. وسبق له أن أصيب مرارا بنوبات إغماء، ولكنها لم تبلغ عنف هذه النوبة الأخيرة وطول مدتها. بيد أن الطبيب أنبأه مع ذلك أن الخطر زال عنه تماما. وقد ارتدى الصبي ملابس تناسب حالته الصحية... ارتدى جلبابا محلول العرى، وربطت أمه رقبته بوشاح من الصوف الأزرق. ولكنه كان يبدو مغتبطًا فرحًا بالجو المحيط به. كان كله جو غبطة وفرح.

كان وعاء كبير موضوعًا على مائدة مستديرة قائمة إلى جوار مقعد الصبي، مكسوة بغطاء نظيف وقد تناثرت في ذلك الوعاء أكواب مليئة بشراب الشيكولاتة الشهية النكهة، وأباريق تحوي مختلف المرطبات، وفطائر وبسكويت وخبز... حتى الورد لم يخل منه ذلك الوعاء! وأضاءت الغرفة ست شموع انبثقت من شمعدانين فضيين. وقام إلى جانب مقعد الصبي كرسي ذو ذراعين ممتدتين كأنما تتهيآن لاحتضان من يجلس بينهما. وقد اختير هذا الكرسي لجلوس "منقذ

الصبـي". وكان جميـع مـن عرفهـم سـانين ذلـك اليـوم فـي هـذا المحـل موجوديـن حتـى الجـرو" تارتاجليـا" والهـرة. وغمـرت الجميـع سـعادة لا توصـف. وعطـس الجـرو في هدوء وجذل. ولم يشـذ إلا الهرة التي جلسـت جامـدة فـي مكانهـا تطـرف وتهنـف كمـا كانـت تفعـل مـن قبـل.

سـألوا سـانين عمـن يكـون. وعـن بلـده واسـمه. وعندمـا أخبرهـم أنـه روسـي أبـدى السـيدات اندهاشـهن، بـل وشـهقن أيضـا وهـن يؤكـدون لـه صائحـات فـي نفـس واحـد بـأن تمكنه مـن الألمانيـة بهرهن، ولكنـه إذا آثر أن يتحـدث بالفرنسـية فـلا بـأس فـي ذلـك لأنهـن يتقنهـن أيضًـا تلـك اللغة فهمًـا وتحدثًـا... ولـم يتـردد سـانين فـي الإفـادة مـن هـذا العـرض وسـرعة تنفيـذه. وأخذن يرددن لقبه: "سـانين!... سـانين "!!ويقلـن إنهن لم يتصورن قـط أن يكـون هنـاك لقـب روسـي سـهل النطـق إلـى هـذا الحد. أما اسـمه وهـو ديمتـرى فقـد وجدنـه ظريفـا كذلـك. وقالـت السـيدة الكبيـرة (والدة الفتـاة والصبـي) إنهـا شـهدت أيـام شـبابها أوبرا باسـم" ديمتريـو وپوليبيو"، ولكنهـا تفضـل اسـم ديمترى علـى ديمتريو. وأنفق سـانين سـاعة كاملة في مثـل هـذه الثرثـرة. ولـم تحجـم السـيدات مـن ناحيتهـن عـن الإفضـاء إليه بأخـص أسـرارهن. واحتكـرت الأم، ذات الشـعر الفضـي، الجانـب الأكبـر من الحديـث. وعلـم سـانين منهـا أن اسـمها " ليونـورا روزيللى" وأنهـا لم تتزوج بعـد مـوت زوجهـا "چيوفانـى روزيللـى" الذي جاء إلـى مدينـة فرانكفورت، وأنشـأ محـل الحلـوى هـذا منذ خمسـة وعشـرين عاما.

وكان أصلا من أبناء مدينة ڤيسينزا، وهي تقر بأنه كان زوجًا طيبًا على العموم، وإن عابه مزاج حاد، وإخلاص وإيثار للنظام الجمهوري. وأشارت وهي تقرر ذلك إلى صورة زيتية لزوجها معلقة فوق المقعد المستطيل، وقالت وهيَّ تتنهد" إن راسم الصورة، وهو جمهوري كذلك، لم يفلح في إبراز شبه زوجي الذي يبدو فيها صارم الوجه متجهمه كأنه قاطع طريق، أو كأنه المجرم "رينالدو رينالدينى "..."

والسيدة روزيللى أصلا من سكان مدينة "پارما "القديمة الجميلة المزدانة بكنيستها الفخمة ذات الجدران المكسوة بالصور التي رسمها "كوريجيو" الخالد. بيد أن تلك السيدة تأقلمت بعد طول إقامتها بألمانيا واكتسبت بعض صفات" التيتونين" وقالت وهي تهز رأسها أسفًا إنه لم يبق لها في الحياة غير ابنتها هذه، وابنها هذا، (وأشارت إليهما) واسم الفتاة "چيما" والصبي إميل. وهما طيبان مطيعان، لا سيما إميل وقاطعتها ابنتها.

ـ وأنا! ألست مطيعة؟...

وأجابت أمها على الفور:

أنت تؤمنين كأبيك بالجمهورية...

واستأنفت السيدة حديثها فقالت إن الأعمال لا تسير بالطبع على نحو ما كانت تسير عليه أيام وجود زوجها الذي كان فنانا في

صنع الحلوى. وأضاف پانتاليونى في حزم وصرامة: "كان رجلاً عظيمًا "واستطردت السيدة قولها إنها لا تشكو ولا تتحسر رغم ذلك، فالشكر لله على كل حال.

- 5 -

كانت چيما تنصت إلى أمها أثناء ذلك الحديث، وتبتسم حينا، وتتنهد حينا آخر، وتهز كتفها، وترفع إصبعها معترضة على بعض ما يقال. وهي تلقى أثناء ذلك على سانين نظرة بعد نظرة. ثم قامت وطوقت أمها بذراعيها، وطبعت على عنقها، قريبا من ذقنها، قبلات استثارت ضحكاتها وصرخاتها.

وتم تقديم پانتاليونى لسانين أيضا. وظهر أن هذا الرجل المسن كان في يوم من الأيام مغنيا في الأوبرا، ولكنه ترك المسرح من زمن طويل وانضم إلى أسرة "روزينى" حيث احتل مركزا وسطا بين صديق وخادم. وكان لا يكاد يعرف اللغة الألمانية رغم طول إقامته بألمانيا، أو إنه لم يعرف منها إلا عبارات السباب، وكان يشوه حتى تلك العبارات حين ينطق بها، فيصف كل ألماني مثلا بعبارة" المتشرد الملعون"، وينطق بها هكذا بالألمانية" فيرو فلوكتو- سبيتز يبوبيو"، مع أن صحة نطقها هي "ڤرفلوختى سبيتزبوبى". أما الإيطالية فكان يجيدها، ولا عجب فهو من بلدة "سينبجاليا" التي لا يزال ينطبق على لغة أهلها قول القائل" لغة توسكانيا ينطق بها فم رومانى".

أما إميليو فكان في بحبوحة من السعادة. ومن الواضح أنه كان مستسلما لتلك المشاعر اللذيذة التي يشعر بها من كان معرضا

لخطر داهم فأفلت منه، أو من أبل من مرض ألم به. ومن الواضح كذلك أنه كان محبوب أسرته المدلل. وقد شكر سانين وهو يتلعثم خجلا، بيد أنه أقبل في جرأة على الطعام والشراب. واضطر سانين أن يبتلع قدحين من سائل الشيكولاتة الجيد، وأن يزدرد كمية كبيرة من الكعك والبسكويت. فهو لم يكن يأتي على ما في حوزته من طعام حتى تقدم له چيما غيرة، وهل كان يستطيع أن يرفض؟ ولم يلبث أن شعر بين أولئك القوم بألفة حتى لكأنه في بيته، ومر الوقت بسرعة غير متصورة. وكم من أمور كان عليه أن يحدثهم عنها: كان عليه أن يحدثهم عن روسيا نفسها، وعن الجو الروسي، والمجتمع الروسي، والفلاح الروسي لا سيما عن القوزاق. ثم كانت هناك هزيمة نابليون أمام موسكو عام ١٨١٢، وكان هناك بطرس الأكبر، وقصر الكريملن، وأغاني روسيا؛ وأجراس كنائسها. ولم تكن لچيما وأمها أيه فكرة عن أرض وطننا النائية غير المحدودة. ومما أدهش سانين سؤال وجهته إليه السيدة روزيللى؛ أو "فراو لينور" كما كانوا ينادونها؛ عن قصر الثلج الذي شيد بمدينة بطرسبورج في القرن الماضي، وعما إذا كان لا يزال قائمًا؟! وقالت إنها قرأت أخيرًا مقالاً معها عن هذا الموضوع في كتاب عن الفن وجدته بين مخلفات المغفور له زوجها!! وسألها سانين مندهشا:

ـ أتعنين أنه لا يوجد صيف في روسيا على الإطلاق!!...

فسلمت فراو لينور (فراو بمعنى سيدة بالألمانية) بأنها كانت تظن حتى تلك اللحظة أن روسيا هي بلاد الجليد المستديم، وأن أهلها لا يخلعون معاطف الفرو في تجوالهم، وأن رجالها جميعهم عسكريون. ولكنهم كرماء محسنون، وأن فلاحيها دمثو الخلق طيعون. وحاول سانين أن يصحح معلوماتها، ويعطيها هي وابنتها فكرة أدق عن وطنه. وعندما تطرق الحديث إلى الموسيقى الروسية رجا الحاضرون سانين أن يسمعهم أغنية من أغاني بلاده، ولفت بعضهم نظرة إلى بيانو صغير قائم في أحد أركان الغرفة سلالمه الموسيقية العليا بيض، والسفلى سود على عكس المألوف.

وامتثل دون أن ينتظر إلحاحا، وأخذ يغنى مستعينا بالعزف على البيانو دون أن يستعمل إلا إصبعين من يده اليمنى، وثلاثة من يده اليسرى (هي الإبهام والوسطى والبنصر). وأسمعهم أول الأمر أغنية "سارافان الأحمر" وصدر صوته من أنفه عاليا مجلجلا، ثم أسمعهم أغنية "على طول الرصيف". وقرظت السيدات عذوبة اللغة الروسية ورقتها، وسألته أن يترجم لهن معاني الأغنيتين، فأجابهن إلى رغبتهن. ولما كانت ترجمة تلك المعاني تفقدها جمالها الأصلي، لا سيما معاني الأغنية الثانية التي تبدأ بالبيت الآتي: "سارت الفتاة على رصيف معبد، قاصدة ينبوع الماء" فقد لجأ إلى إلقاء الأغنيتين بصوت عميق الوقع قبل الشروع في ترجمة معانيها. ثم أسمعهن في النهاية أغنية بوشكين "هنية السعادة التي لا تنسى" وهي من تلحين جلينكا،

وكان صوته حين ينخفض أثناء الغناء يفيض شجوًا، فأخذت الحماسة السيدات هذه المرة. ولاحظت فراو لينور وجه شبه غريب بين اللغتين الروسية والإيطالية. وقالت إن اسم يوشكين (وكانت تنطقه يوشكين) وجلينكا ليسا غريبين على سمعها. وسأل سانين السيدات بدوره أن يسمعنه كذلك بعض الأغاني، فَلَبِّين طلبه دون تمنع. وجلست لينور إلى البيانو وصحبتها ابنتها چيما في غناء بعض المقطوعات الفردية الثنائية، وبدا أن الأم كانت فيما مضى ذات صوت رنان ممتاز، أما الابنة فكان صوتها مشجبا رغم هدوئه.

ـ 6 ـ

ولكـن سـانين كان معجبًـا بچيمـا نفسـها، لا بصوتهـا. وكان يجلـس إلى الـوراء لا يراهمـا إلا مـن ناحيـة جانبية. وقال لنفسـه وهو ينظـر إلى الفتاة" لا توجـد شـجرة نخـل فارعـة، بـل لا توجد بين شـجرات النخل التـي صورها الشـاعر الروسـي" بينيـد يكتـوف" فـي قصائـده التي اشـتهرت فـي وقتهـا، شـجرة واحـدة تتحلـى برقـة ذلـك الوجـه الأسـيل". وخيـل إليـه وهـو يراها ترفـع عينيهـا إلـى أعلـى عنـد انفعالهـا بالغنـاء، أن السـماء نفسـها لا يمكن إلا أن تسـتجيب لتلـك النظـرات. بل إن پانتاليونى نفسـه، ذلك الشـيخ الهرم الـذي اسـتند حينـذاك إلى الباب، وقد احتجبت ذقنـه وفمه وراء رباط عنقه الكبيـر، وأنصـت إنصـات الخيـر في جد ووقار... كان ذلك الشـيخ يسـتبد به الانفعـال وهـو ينظـر إلى وجه الفتاة الجميل، رغم أنه اعتاد ولا شـك رؤيته. وعندمـا انتهـت فـراو لينـور من الغناء، قالـت إن لابنها إميـل حنجرة ممتازة ترسـل صوتـا كرنيـن الفضة، ولكنـه اليوم في سـن المراهقة التي يخشوشـن فيهـا الصـوت (وهـو فـي الواقع يتحـدث بصوت تعتـوره خشـونة متقطعة) ولذلـك لا يسـمح لـه بالغناء. ولكن، ألا يجمـل ببانتاليونـى أن يحيى ماضيه، ويشنف الآذان بالمناسبة السعيدة المتاحة؟! ولكن پانتاليونى قطب جبينه، وأبـدى عـدم ارتياحـه لذلك الاقتراح، وأنشـب أصابعه في شـعره الكث وهو يقـول إنـه طـوى صفحـة الماضـي رغـم أنـه كان يبهـر سـامعيه بغنائـه فـي

صباه. ثـم إنـه ينتسـب إلـى عصر غيـر هـذا العصـر. فقـد كان الغنـاء فـي عصـره أصيـلا كلاسـيكيا لا يمكـن أن يقـارن بزعيـق هـذا الجيـل. كانـت هنـاك مدرسـة غنائيـة لهـا قيمتهـا فـي أيـام صبـاه. وقد كللـه سـامعوه مرة فـي مدينـة "مودينـا..". نعـم كللـوه هـو، پانتاليونـى سـبباتولا. بإكليـل مـن الغـار، وأطلقـوا الحمائـم البيـض علـى أثـر انتهائـه مـن غنائـه. وكان فـي تلـك الأيـام علـى أحسـن صلـة بالأميـر الروسـي تاربوسـكى (أل برينسـپى تاربوسـكى). وكثيـرًا مـا كان يدعـوه ذلـك الأميـر إلـى تنـاول طعـام العشـاء معـه، وقـد عـرض عليـه أن يصطحبـه إلـى روسـيا، ووعـده أن يهبـه هنـاك جبـالا مـن الذهـب الخالـص... جبـالا!. نعـم جبـالا! ولكنـه لـم يطـق فكـرة مغـادرة إيطاليـا... وطـن دانتـى العظيـم. ثـم وقعـت بالطبع أمور مؤسـفة، وهـو لـم يكـن فـي ذلـك الوقـت علـى حـذر كاف... وتخـاذل الشـيخ وهـو يُدلـى بهـذا الاعتـراف، وأرخـى أهدابـه، وصعـد زفـرة عميقـة أو زفرتين، ثم عـاد يتحـدث عـن عهـد الغنـاء الكلاسـيكي وعـن جارسـيا المغنـى الشـهير الـذي يكـن لـه أعمـق احتـرام. ثـم صـاح. "لقـد كان رجـلا... إن جارسـيا العظيـم لـم يحقـر نفسـه، ويشـوه سـمعته بارتـكاب الأغـلاط الغنائيـة التي يرتكبهـا فنانـو اليـوم، كان غنـاؤه ينبعـث مـن صـدره "وضـرب الشـيخ على قميصـه بيـده الواهنـة الذاويـة، ثـم اسـتأنف قولـه بحماسـة:" ويـا لـه مـن ممثـل!! كان بركانـا يقـذف حممـا، وقـد تشـرفت بالغنـاء إلـى جانبـه فـي أوبـرا عطيـل التـي لحنهـا الموسـيقار الشـهير روسـينى. كان جرسـيا يقـوم فـي ذلـك التمثيليـة بـدور عطيـل، وأما أنـا فكنت أمثـل ياجـو. وعندما أخذ

جارسـيا يغنـى هـذه المقطوعـة... "وصمـت پانتاليونـى برهـة وهـو يتهيـأ للغنـاء، ثـم تعالـى صوته مرتجفا خشـنا وإن كان لا يزال مؤثـرًا، وأخذ يغنى:

"كنت أريد... هذا ما أردته... هذا ما فعلته... "

"أنا قادر... لا... لا... أنا لا أخاف... "

وتوقف پانتاليونى عن الغناء وقال:

ـ" اهتـز المسـرح مـن شـدة التصفيـق... يـا إلهـي!! ولكنـى صمـدت لـدوري، وغنيـت بعـده:

"كنت أريد... هذا ما أردته... هذا ما فعلته... "

"ولكنى لن أخاف بعد الآن... "

"فأجابني في مثل ومض البرق، أجاب كالنمر حين يزأر:

"سأموت... نعم، سأموت... ولكنى بعد أن أنتقم... "

ـ ثـم إنكـم لو سـمعتموه وهو يغنى أوبـرا "الزواج السـري"، ويصل فى غنائـه إلـى مقطوعة "الجـواد الراكض"... ليتكم سـمعتموه... ليتكم سـمعتم جارسـيا العظيـم... كـم كان رائعـا!... كان... وتعالـى صـوت الشـيخ مـرددا بعـض النغمـات، ثـم توقـف، ودار برأسـه، وأشـاح بيده وهـو يغمغم:

ـ لماذا ترهقونني؟... لماذا تعذبونني؟

وهبت چيما من مقعدها، واندفعت إلى "ياجو "المسكين الذي اعتزل العمل، وصفقت بيديها صائحة "برافو... برافو." وطفقت تربت على كتفيه بكلتا يديها في حنان وإشفاق. ولم يشذ عن الجمع إلا إميل الذي ظل يضحك دون شفقة أو رحمة... وقديما قال لافونتين: "هذه السن التي لا تعرف الشفقة والرحمة!!."

وحاول سانين أن يواسى المغنى الشيخ، وأخذ يخاطبه بالإيطالية (كان قد التقط بضع كلمات من تلك اللغة أثناء إقامته القصيرة الأخيرة بإيطاليا)... حدثه عن "وطن دانتى"، وعن قول ذلك الشاعر: "دعونا نعمل "وقوله "هنا موطن آمالنا". وكانت هاتان العبارتان هما كل ما حصله السائح الجوال من الشعر الإيطالي. ولكن هذه الملاطفة لم تهدئ من روع پانتاليونى الذي خفض رأسه؛ فازدادت ذقنه غوصا في طيات رباط عنقه، وشخص بصره الحزين، وبدا عليه الغضب، وصار أقرب شبها إلى الطير. ولكنه كان يشبه في هذه المرة الغراب أو الحدأة.

ثم مرت على وجنتي إميل المدلل حمرة خجل خفيفة عارضة، وقال لأخته وهو يلتفت إليها إن خير ما يمكن أن تفعله لتسلية ضيفها هو أن تقرأ له تمثيلية هزلية للشاعر "مالتز". (وكانت تجيد إلقاء تمثيليات ذلك الشاعر) وضحكت چيما، ودقت يد أخيها بيدها قائلة

إن خاطـره لا يجـود إلا بالأفـكار الغريبة. وقامت رغـم ذلك، وقصدت غرفتها علـى الفـور، وسـرعان ما عادت بكتاب صغير، وجلسـت إلـى جانب المائدة قريبـة مـن المصبـاح. ورفعـت إصبعهـا كأنمـا تريـد أن تقـول: "أنصتـوا... أرجوكـم..." (وإشـارتها هـذه إيطاليـة محضـة). ثم طفقت تقرأ فـي الكتاب:

- 7 -

عـاش" مالتـز" المذكـور بمدينـة فرانكفـورت حوالـي العقـد الرابع من القـرن التاسـع عشـر. وكان أدبيـا يكتـب "المهـازل"، أو التمثيليـات الهزليـة باللغة المحلية الدارجة، ويصور كذلك الشـخصيات المحلية تصويرا فكاهيا. ورغـم أن كتاباتـه لـم تكـن عميقـة المعانـي إلا أنهـا كانـت مسـلية مبهجة. وقـد ظهـر أن چيمـا تجيـد القـراءة كما لو أنهـا كانت ممثلـة محترفة. كانت تبـرز بطريقـة إلقائهـا خصائـص كل شـخصية فـي التمثيليـة، وتحافـظ على سـلامة تصويرهـا حتـى النهايـة، متوسـلة بالإشـارات المجونيـة الحيـة التـي ورثتهـا عـن جنسـها الإيطالـي. وعندمـا كانـت تصل فـي قراءتهـا إلى وصف عجـوز مخبولـة العقـل، أوحاكـم أبلـه، لـم تضـن بتجويـد إلقائهـا العـذب، وتسـخير ملامحها الجميلة. كانت تقلب سـحنتها، وتشـكلها أشـكالا أشـد ما تكـون اسـتثارة للضحـك، فإذا عيناها تشـخصان وأنفها يتجعد، ولسـانها يلثغ ويصفـر. وكانـت تضبـط أعصابهـا فـلا تضحـك أثناء ذلـك التمثيل. فـإذا ضج الحاضـرون بالضحـك (جميـع الحاضرين باسـتثناء پانتاليونى الذي انسـحب علـى أثـر البـدء فـي قـراءة تمثيليـة" الألمانـي الملعـون") وحـال ضجيجهم دون مواصلـة القـراءة، فإنهـا تـدع الكتـاب يسـقط فـي هـذه الحالـة علـى ركبتيهـا، وتلقـى برأسـها إلـى الـوراء، وتسـتغرق هـي الأخـرى فـي ضحـك رنـان، فيتهـدل شـعرها الأسـود على كتفيهـا، وتتراقـص حلقاته حـول عنقها.

فإذا كف الضاحكون عن ضحكهم، وعاد الهدوء إلى الغرفة، تناولت الكتاب من جديد، واتخذت ملامحها السيماء الملائمة، واسترسلت في القراءة.

خلب الإعجاب لب سانين وكان أشد ما أدهشه أن يتمكن هذا الوجه الباهر، الكلاسيكي المحاسن، من أن يعكس تلك التعبيرات المضحكة، شبه المبتذلة. بيد أن چيما لم تصادف مثل ذلك النجاح في تمثيل دور الفتاة العاشقة التي يطلق عليها لقب "بطلة التمثيلية "، بل إنها لم تكن تحسن تمثيل الأدوار الغرامية على العموم، ولم يكن ذلك خافيا عليها، ولذلك كانت ترتسم على وجهها وهي تقرأ تلك الفصول ظلال خفيفة من السخرية كأنما أرادت بذلك أن تظهر ارتيابها في صدق ما يتبادله العشاق من أيمان الحب المغلظة، ومن مطارحات الحب الملتهبة. تلك الأيمان والمطارحات التي كان المؤلف نفسه يحاول تجنبها على قدر إمكانه.

كان الوقت قد سرق سانين فلم يشعر بالسرعة التي تولى بها ذلك المساء! ولم يتذكر الرحلة التي كان عليه أن يقوم بها إلا عندما دقت الساعة العاشرة، فقفز عندئذ من مقعده كالملسوع. وسألته فراو لينور.

- ما الأمر؟!

- الأمر أنى مسافر الليلة إلى برلين، وقد حجزت لي مكانا بمركبة السفر.

- ما ميعاد رحيل تلك المركبة؟...

- منتصف الحادية عشرة:

قالت چيما.

- لقد فاتك ميعاد الرحيل... فابق إذن. وسأواصل القراءة...

وسألت فراو لينور:

- أدفعت عربونا لتذكرة السفر، أم دفعت ثمنها كاملا؟...

فأجاب سانين بقوة وهو يزفر أسى:

- دفعت الثمن كاملا.

وحدجته چيما بنظراتها وضحكت، فأنبتها أمها قائلة:

- أتضيع نقود السيد سدي... ثم تضحكين رغم ذلك!!...

فأجابت چيما:

- لا بأس... فهو لن يفلس لفقدان هذا المبلغ. ثم إننا سنبذل جهدنا للترفيه عنه... خذ كوبا من عصير الليمون.

وتناول سانين كوب العصير فعبة إلى آخره. واستأنفت چيما قراءة التمثيلية، وعاد المرح إلى ما كان عليه واستمر إلى أن دلت الساعة على انتصاف الليل، فوقف سانين متأهبا للانصراف. وقالت له چيما:

- ولابد في هذه الحالة أن تقضى بضعة أيام أخرى في فرانكفورت.

وليس هناك ما يحملك على سرعة الرحيل، فأي مكان آخر لن يكون أجمل من هذه المدينة...

وتوقفت هنيهة عن الكلام، ثم أضافت مبتسمة:

ـ نعم، لن يكون أجمل من هذه المدينة.

لم يجب سانين، وقال لنفسه إن جَيَبُه الخاوي سيضطره إلى البقاء سواء رضى بذلك أم يرض، نعم، سيضطره إلى ذلك ريثما يكتب إلى صديق له في برلين يسأله قرضا. وقالت فراو لينور:

ـ نعم، أرجو أن تبقى. وستعرفك غدًا "بالهركارل كلوبر" خطيب چيما. فهو لم يستطع الحضور الليلة لعمل استبقاه في المتجر... لا بد أن تكون قد لاحظت ذلك المتجر... فهو أكبر محل بشارع زايل، يبيع أفخر الأقمشة والحرائر في هذه المدينة... وخطيب ابنتي هو مديره، وهو يسره بالطبع أن يعرفك.

وحزن سانين لهذا الخبر دون أن يعرف لحزنة سببًا، وقال لنفسه:" ما أسعد هذا الخطيب "ونظر إلى چيما فخيل إليه أنه لمح بريقا من السخرية ينبثق من عينيها... وأخذ يودع الحاضرين. وسألته فرار لينور:

ـ إلى الغد... ستحضر غدًا، أليس كذلك؟

وقالت چيما في نبرة التأكيد لا السؤال، كأنما الأمر محتوم:

ـ إلى الغد.

وأجاب سانين:

ـ إلى الغد

وشيعه پانتاليونى وإميل والجرو تارتاجليا إلى زاوية الطريق. ولم يستطع الشيخ المسن أن يكتم عدم رضاه عن طريقة إلقاء چيما في القراءة. وقال ينفس عن ضيقه:

ـ يجدر بها أن تستحي... هذه الإشارات المضحكة!... وهذا اللثغ والتلعثم!!... إنه لتهريج... كاريكاتور... كان أولى بها أن تمثل أدوارًا جدية كدور" ميروپى" أو دور"كليتا يمنيسترا". ولكنها بدل أن تقوم بتمثيل الأدوار التراجيدية العظيمة أخذت تتمشدق كالقردة بتلك الكلمات الألمانية. وهل هي تظن أنه يصعب النطق بتلك الكلمات!! إني أستطيع أن أؤديها مثلها."ميهرتز، كرتز، شميرتز". وردد تلك الكلمات بصوت أجش وهو يبرز ذقنه، ويمد أصابع يديه. ونبح تارتجليا عندما سمعه يصيح بهذه الكلمات الألمانية، وأغرق إميل في الضحك. وأشاح پانتاليونى بوجهه في عنف، وقفل راجعا.

عـاد سـانين إلـى فنـدق البجعـة البيضـاء حيـث كان قـد تـرك حقائبه، وشـعر برأسـه يـدور، وبأذنيـه تمتلئـان بضجيـج تلـك الكلمـات الألمانيـة والفرنسـية والإيطاليـة.

ورقـد فـي فراشـه الممتـد في غرفـة الفنـدق المتواضـع الذي نـزل به، وتـردد همسـه: "خطيبهـا!!... يـا لجمالهـا الرائـع!.! ولكـن مـا الـذي أبقانـي هنـا؟..." وفـي اليـوم التالـي أرسـل خطابًـا إلـى صديقـه ببرلين.

- 8 -

وقبـل أن يرتدى ملابسـه فـي الصباح التالـي دخل عليه الخـادم الغرفة ليخبـره أن سـيدين حضـرا لمقابلتـه. واتضـح أن أحدهمـا كان إميـل. أمـا الثانـي، وهـو رجـل فـي مقتبـل العمـر، متناسـق التكويـن، فـكان الهـركال كلوبـر، خطيـب چيمـا الفاتنـة المحاسـن.

ولعلـه لـم يكـن في طـول مدينـة فرانكفـورت وعرضها بائع فـي متجر بلـغ مـن التجمـل بـالأدب والملاطفـة المتحفظـة والمظهـر الكريم مـا بلغه الهـر كلوبـر. كان هندامـه المتقـن الحياكـة يلائـم تهذيبـه المتحـرز وأناقته ولا نكـران أن تلـك الأناقـة كانـت تشـوبها مسـحة مـن التحفـظ الإنجليـزي (وكان قـد قضـى عاميـن فـي إنجلتـرا بالفعـل)، إلا أن دقـة سـلوكه كانـت خلابـة، وكان يبـدو واضحًـا مـن النظـرة الأولـى إلـى ذلـك الشـاب الوسـيم، الصـارم بعـض الصرامـة، الجـم الأدب، المعتنـي بنظافتـه أنـه اعتـاد أن يخضـع لرؤسـائه، وأن يصـدر أوامـره لمرؤوسـيه، وأن يبـث الثقـة، وهـو يقـوم بعملـه، فـي نفـوس عمـلاء المتجـر. أمـا نزاهتـه الخارقـة للعـادة فممـا لا يتطـرق إليهـا أدنـى شـك، ومـا عليـك إلا أن تنظـر إلـى ياقتـه المقـواة بالنشـاء لتسـتوثق مـن ذلـك. وأمـا صوتـه فهو مـا يتوقع مـن رجل مثلـه... صـوت رخيـم، ذو رنيـن يـدل علـى الثقـة بالنفـس، هـادئ غنـى بالنبـرات الرقيقـة، مكيـف خيـر تكييـف لمخاطبـة المرؤوسـين بمثـل هذه

العبـارات:" أرجـو أن تبسـط ثـوب القطيفـة للعميـل حتـى يـرى عرضـه "أو "أحضر كرسـيا للسـيدة!".

بـدأ هـر كلوبـر حديثـه بتعريـف نفسـه. وانحنـى وهـو يذكـر اسـمه انحنـاءة تشـف عـن نبل وحسـن تهذيب، فقد ضـم كعبيـه إذ ذاك كعبا إلى كعـب علـى نحـو بلـغ مـن اللطف وقـوة التأثيـر مبلغـا لا يملك المـرء معه إلا أن يقـول لنفسـه "لابـد أن يكـون معـدن هـذا الرجـل وصفاتـه الروحيـة مـن الطـراز الأول!" وكانـت يـده اليمنى وهـو يمدها إلى سـانين في تواضع وثقـة (أمـا يـده اليسـرى فكانت مكسـوة بقفـاز سـويدي، وممسـكة بقبعة مـن ذلـك النـوع الأسـود العالـي، وكان سـطح القبعـة يلمـع كالمـرآة، وفـي جوفهـا تقبـع الفـردة اليمنـى مـن القفـاز) كان منظـر يـده اليمنـى هـذه أعجـب ممـا يمكـن تصوره، كان كل ظفـر مـن أظافرهـا يبـدو فـي زينتـه ولمعانـه كأنـه تحفـة فنية.

طفـق يقـول فـي لغـة ألمانيـة مهذبـة إنـه يـود أن يعبـر عـن شـكره وتقديـره لجميـل السـيد الأجنبـي الـذي أدى مثـل تلـك الخدمـه الجليلـة لأخـي خطيبتـه الـذي سـيصبح نسـيبه عمـا قريـب. وعندمـا نطـق بهـذه العبـارة الأخيـرة أشـار بيـده الممسـكة بالقبعـة إلـى ناحيـة إميـل الـذي ما كاد يسـمع قولـه حتـى اتجـه بنظـره مرتبـكا صـوب النافـذة، واضعـا إصبعه فـي فمـه. وأضـاف هركلوبـر أنه يعد نفسـه سـعيدًا فيمـا إذا اسـتطاع تأدية أيـة خدمـة للسـيد الأجنبـي. وأجـاب سـانين بلغتـه الألمانيـة المتعثـرة أنـه

سعيد بمعرفته، وأن الخدمة التي أداها للصبى العزيز لا تستحق الذكر، ورجا الضيف أن يجلس. وشكر كلوبر، ورفع ذيل سترته برشاقة وخفة، وهبط في الكرسي، ولكنه جلس بتحفظ، وظل ظاهر القلق إلى حد بدا معه أن هذا الرجل لم يجلس إلا تأدبا، وأنه يوشك أن يهب واقفا لينصرف. ووقع ما كان متوقعا، وهب كلوبر واقفا، وخطا خطوة أشبه بخطوات الرقص. وقال إنه لا يستطيع لسوء الحظ أن يمكث أكثر من ذلك إذ لابد له من الذهاب إلى محل عمله "والعمل قبل كل شيء". ولكنى اليوم التالي، وهو الأحد، يوم عطلة، ولذلك رتب الأمر، بعد استئذان السيدة لينور والآنسة چيما، للقيام برحلة قصيرة إلى "سودينى"، ويشرفه أن يدعو السيد الأجنبي. إلى الانضمام إليهم في تلك الرحلة، ويطمع في ألا يضمن السيد عليهم بأن يزين الرحلة بحضوره. وقبل سانين أن يزين الرحلة بحضوره!!... وانسحب هر كلوبر من الغرفة، مكثرا من الحركات المعبرة عن احترامه، وكان سرواله الأخضر يخفق خفوقا لطيفًا، ونعل حذائه الجديد اللامع يصر صريرا لا يقل لطفا عن خفوقا لطيفا عن خفوق سرواله.

- 9 -

ارتـد إميـل عن النافـذة على أثر رحيل نسـيبه المنتظـر. وكان قد لزمها حتـى بعـد أن دعاه سـانين إلـى الجلوس. واسـتأذن في البقـاء بالغرفة قليلا وهـو يحمـر خجلا ويمط شـفتيه كما يفعـل الصغار. وغمغـم مترددا:

ـ حالتي تحسنت كثيرا اليوم... ولكنى الدكتور حرم عليَّ العمل.

ـ تستطيع البقاء معي بكل تأكيد... فلن يعوقني بقاؤك عن شيء...

قـال سـانين ذلـك كأي روسـي يسـره أن يجيـب النـاس إلـى مـا يطلبـون. وشـكره إميـل. ولـم يمـر وقـت طويـل إلا وكان الصبـي قـد ألـف مضيفـه، كمـا ألـف غرفـة مضيفـه. وأخـذ يفحـص كل مـا يقـع عليـه بصـره مـن حوائـج سـانين، ويسـأله عمـا يصلـح لـه، وعـن المـكان الـذي اشـتراه منـه ثـم سـاعده علـى حلاقـة ذقنه، وأشـار عليـه أن يطلـق شـاربه. وانتهت بـه هـذه الألفـة إلـى الإفضـاء لسـانين بتفاصيـل خاصـة بحيـاة أمـه وأختـه وپانتاليونـى، بـل وخاصـة بالجـرو تارتـا جليـا أيضـا. وتبـددت دلائـل خجلـه الماضـي جميعهـا، وشـعر إلـى سـانين بميـل لا يقـاوم. ولم يرجـع ذلك إلى أنـه أنقـذ حياتـه فـي اليوم السـابق، ولكنى إلـى ظرفه وطيبتـه. وأفضى إليه بأخـص أسـراره دون أن يضيـع وقتـا. وتركـز حديثـه فـي أن أمـه تصـر علـى تأهيلـه للتجـارة حتـى يصبـح صاحـب متجر، ولكنـه واثق من أنه ولـد فنانا، ولـد موسـيقارًا ومغنيًـا، وأن التمثيـل الغنائـي وحـده هو الحرفـة التي خلق

لهـا، وقـد شـجعه حتـى پانتاليونـى علـى احتـراف الغنـاء. ولكـن هـر كلوبر يسـاند أمـه فـي موقفهـا، وكلمتـه عندهـا مسـموعة، وهـو صاحـب فكـرة إعـداد إميـل للتجـارة، فهـو لا يرى شـيئًا أعظم مـن أن يصبح الإنسـان تاجرًا فيبيـع النسـيج والسـندس، ويغش المشـترين، ويبتز منهم الأثمـان الباهظة التـي يدفـع مثلهـا "المغفلـون الـروس!" هذه هـي مثـل هركلوبر.

ومـا أتـم سـانين ارتـداء ملابسـه، وكتابـة رسـالة إلـى صديقـه المقيـم ببرليـن حتـى صـاح إميـل:

ـ والآن!... حان الوقت لتأتى معي إلى المنزل.

فأجاب سانين:

ـ لا، فالوقت ما زال مبكرا.

وأقبل عليه إميل ملاطفا وقال:

ـ بـل لنذهـب. وسـنمر أولا بمكتـب البريـد لإيداع رسـالتك، ثـم نتوجه منـه إلـى دارنا. وكم ستسـر چيمـا لرؤيتك!! وهناك سـنفطر معا... وسـتتاح الفرصـة للتحـدث إلـى أمي عن مسـتقبلي.

ـ لا بأس، ما دام الأمر كما تقول. وخرجا معا.

ـ 10 ـ

بـدا السـرور علـى چيمـا حقـا عندمـا رأت سـانين، وحيتـه فـراو لينـور ببشاشـة ومـودة. وكان مـن الواضـح أنه أحدث في نفسـيهما أثـرًا طيبًا أثناء زيارتـه لهمـا فـي اليـوم السـابق. وجـرى إميـل ليصـدر أمـره بإعـداد طعـام الإفطـار بعـد أن أسـر في أذن سـانين:

ـ أرجو ألا تنسى...

وقد أجاب سانين:

ـ لن أنسى.

لـم تكـن فـراو لينور على حالتها الطبيعية. كانت تشـكو الصداع، فجلسـت مسـترخية فـي كرسـي وثيـر، معتزمـة أن تظـل فيـه بـلا حـراك. وارتـدت چيمـا حلـة زرقـاء وشـدت وسـطها بنطاق أسـود من الجلـد. وكانت تبدو هـي الأخرى متعبة. فهناك مسـحة من الشـحوب كانت تشـوب وجهها، وخطوط سـود تمتد أسـفل عينيهـا (ولـو أنهـا لم تنل مـن بريقهما) بيد أن مسـحة الشـحوب حاطتها بغمـوض أكسـب ملامحهـا الكلاسـيكية الجـادة رقـة ولطافـة، أمـا الجديـد الذي أدهـش سـانين فـي ذلـك اليـوم فهـو جمـال يديهـا الرشـيقتين، فهو لم يسـتطع أن يبعـد نظـره عنهمـا حيـن رفعتهما إلى رأسـها لتصلح دوائبهـا الملفوفة، وظل يتأمـل أصابعهمـا الطويلـة الرخصـة، الدقيقـة المفاصـل، الشـبيهة بأصابع صورة "فورنارينـا" التي رسـمها رفائيل.

كان اليوم حارا. وقام سانين بعد الإفطار لينصرف، ولكن قيل له أن خير ما يفعله الأنسان في مثل هذا الجو أن يبقى حيث هو، فوافق على هذا الرأي وبقي. والواقع أن غرفة الدكان الداخلية التي كان يجالس فيها مضيفتيه امتازت بجو لطيف رطب، فنوافذها كانت تطل على حديقة صغيرة تظللها أشجار السنط. وتعالى طنين النحل والزنابير المتجمعة كالجوقة الموسيقية فوق الأغصان المورقة المرصعة بعيون الزهر الزمردية. وتسرب ذلك الطنين دون انقطاع إلى غرفة منى خلال نوافذها الضيقة الفتحات، وكأنما كان يذكر الحاضرين بالحر المتقد خارج الغرفة، فيزيد جوها الرطب المظلل المريح إنعاشًا.

وتحدث سانين طويلا مثلما فعل في اليوم السابق، ولكنه لم يتحدث هذه المرة عن روسيا والحياة الروسية. فقد أراد أن يحقق رغبة صديقه الصغير الذي أرسلته أمه بعد تناول الإفطار إلى هركلوبر ليتمرن على عمل مكتبات البيع... أراد أن يرضى ذلك الصديق الصغير فحول المناقشة إلى موضوع الفن والتجارة، والمقارنة بين ميزاتهما وعيوبهما. ولم يدهشه أن تقف فراو لينور موقف المؤيد لاحتراف التجارة فقد توقع منها ذلك... ولكن چيما انحازت لأمها كذلك.

قالت الأم وهي تومئ بيدها في قوة تأكيدًا لرأيها:

ـ لا بد لك أن تصل إلى قمة الفن فيما إذا أردت أن تصبح فنانًا، أو بالأخرى مغنيا، ولا نجاح بغير ذلك. فهل من ضمان للوصول إلى ذلك؟

واشـترك پانتاليونـى فـي المناقشـة. (وكان طول خدمته للأسـرة، وتقدم سـنه، يبيحـان لـه الجلـوس فـي حضرة سـيدته ثـم إن الإيطالييـن لا يعيرون بطبعهـم اهتمامًـا للرسـميات) وانحـاز بكليتـه إلـى جانب الفـن. والحق إن الحجـج التـي أدلـى بهـا تأييدًا لوجهـة نظره كانـت ضعيفة. فقد بـدأ حديثه مشـيرًا إلـى أن أهـم مـا يتطلبه الفـن أن تنطـوي جوانح الفنان علـى "نوازع معينـة تابعـة مـن الإلهـام ". وقـد أجابته فراو لينـور بأن جوانحه هو نفسـه كانـت لا بـد منطويـة علـى مثل تلك النـوازع... ومـع ذلك...

فأجاب پانتاليونى بخشونه:

ـ لقد كان لي أعداء.

ـ وكيـف تثـق" سـيادتك" بـأن إميـل لـن يكون له أعـداء حتـى فيما إذا ظهـر أن جوانحـه تنطـوي فعلا علـى تلك النـوازع التـي ذكرتها؟

وكانـت كلمـة "سـيادتك" قـد انزلقـت من فـم السـيدة بالسـهولة التي ينطـق بهـا الإيطاليون.

وأجاب پانتاليونى غاضبًا:

ـ حسـنًا... اجعلـي منـه بائعًـا متجـولاً. ولكـن جيوفـان باتيسـتا مـا كان ليوافـق علـى مثل هـذا التصرف لـو أنـه بقـي علـى قيـد الحيـاة... مـع أنه هـو نفسـه بائع حلـوى...

ـ كان زوجي رجلا معقولا رغم أنه كان عنيدًا في صباه...

ولكن الشيخ الهرم أبى أن ينصت إلى قولها وخرج من الغرفة وهو يكرر قوله في لهجة عتاب:

ـ آه، ياجيوفان پاتستى!... يا جيوفان پاتستى!...

وقالت چيما إنه لو كان أخوها يشعر بدافع وطني يدفعه إلى تسخير جهوده في تحرير إيطاليا من ربقتها لأصبحت تضحيته بمستقبله لتحقيق مثل هذه الغاية السامية مقبولة معقولة. أما التضحية بمستقبله في سبيل المسرح فلا. وعند ذلك بدت على فراو لينور دلائل القلق والاضطراب وتوسلت إلى ابنتها ألا تضلل أخاها بمثل هذه الآراء. وعليها أن تكتفى هي باعتناقها، وبالتحمس للنظام الجمهوري. وما كادت تنطق بهذه العبارات حتى أخذت تتأوه وتشكو الصداع الذي يوشك أن يفجر رأسها. وكانت تتحدث بالفرنسية، رعاية للزائر الذي لا يجيد الإيطالية.

وأقبلت چيما على أمها تعتنى بها، وتمسح جبينها بلطف (بعد أن بللته بماء الكولونيا)، وتقبل وجنتيها، وتمهد الوسادة تحت رأسها، وتطلب إليها الامتناع عن الكلام، ثم تعود فتقبلها. ثم التفتت إلى سانين، وأخذت تحدثه عن أمها بصوت طروب، ولو أنه ينم في نفس الوقت عن انفعالها الحقيقي، وتشرح له أية أم مدهشة هى!!. وأى جمال كانت تتحلى به!!... ثم استدركت قائلة:

ـ ولكـن، لمـاذا أقـول: "كانـت تتحلـى بـه؟؟... إنهـا جميلـة الآن كمـا كانـت مـن قبـل... انظـر إليهـا. أنظـر إلـى عينيهـا، فكـم همـا جميلتـان!!...

وأخرجـت منديـلا مـن جيبها بسـرعة، وحجبت به وجه أمهـا ثم خذت تجذبـه مـن طرفـه إلى أسـفل شـيئًا فشـيئًا فظهـر جبيـن أمها ثـم حاجباها، ثـم عيناهـا وسـألت أمهـا بعد لحظـة أن تفتـح عينيهـا ففتحتهمـا. وأطلقت چيمـا عنـد ذاك شـهقة إعجـاب. (وكانـت عينـا فـراو لينـور جملتيـن حقـا). وحسـرت الفتـاة المنديـل فجـأة عـن الجـزء الأسـفل مـن وجـه أمهـا، وكان هـو الجـزء الأقـل تناسـقا، وانكفـات عليهـا تقبلهـا من جديـد. وقابلـت فراو لينـور ألاعيـب ابنتهـا بالضحـك، ودفعتهـا عنهـا بعنـف مصطنـع، وتصنعـت چيمـا كذلـك مقاومتهـا لأمتهـا، بيـد أنهـا كانـت فـي نفـس الوقـت تداعبها، لا علـى الطريقـة الفرنسـية الشـبيهة بمداعبـة القطط، ولكن علـى الطريقة الإيطاليـة الرشـيقة التـي تنطـوي علـى قـوة العاطفة.

وأعلنـت فـراو لينـور آخـر الأمـر أن التعـب أنهكهـا. فنصحتهـا چيمـا أن تغفـو غفـوة قصيـرة وهـي مسـتلقية علـى مقعدهـا ووعـدت أن تظـل هـي و"السـيد الروسـي" صامتيـن سـاكنين "كفأريـن صغيريـن". وأجابـت السـيدة بابتسـامة، وأغمضـت عينيهـا، واستسـلمت للنـوم بعـد أن تنهـدت مـرة أو مرتيـن. وسـقطت چيمـا فـي كرسـيها الملاصـق لمقعـد أمهـا، وانكمشـت فيـه دون حـراك إلا إذا اسـتثنينا وضعهـا لإصبعهـا علـى فمهـا

حينًا بعد حين، وإمساكها بيدها الأخرى الوسادة الموضوعة تحت رأس أمها، وترديدها صوت التحذير: "شيش... شيش" مصوبة نظراتها إلى سانين كلما هم بأية حركة. وأخذ سانين نفسه يهوم كذلك بعد أن طال جلوسه متخشبا كالمسحور، محدقا بإعجاب في اللوحة المعلقة أمامه... وكانت الغرفة الضعيفة الضوء، المشرقه بلألاء الورود الحمر المطلة، وهي مفتحة الأكمام، من أوعية خضر أثريه. وهذه السيدة المستسلمة للنوم وقد ثنت ساعديها في تواضع، وأشع وجهها الكريم المجهد فوق الوسادة الناصعة البياض التي كانت له بمثابة إطار... وهذه الصبية اليقظة الحساسة... لكم هي رقيقة حكيمة نقية خارقة الجمال!!. وعيناها الواسعتان!... يا لعمقهما!!... ويا لسوادهما!!... كانتا تومضان رغم الظلال المحيطة بهما... كان كل هذا غريبا!... أكان حلما؟!... أكان أسطورة؟!... وكيف وجد سانين نفسه هنا؟؟!...

ـ 11 ـ

دق جرس الباب الخارجي، ودخل الدكان فلاح شاب يرتدى سترة حمراء ويغطى رأسه بقبعه من الفرو. ولم يكن قد جاء عميل قبله منذ الصباح. ولاحظت فراو لينور أثناء تناول طعام الإفطار ذلك الركود، فقالت لسانين وهي تتنهد: "انظر أي نوع من التجارة نمارسه؛ "وهي لم تشعر بدخول أول عميل إذ كانت مستسلمة لنوم هادئ. وعجزت چيما عن الحراك لأنها لم تتمكن من سحب يدها الموضوعة تحت وسادة أمها. فهمست في أذن سانين:

ـ اذهب واقضي طلب العميل نيابة عنى.

وخرج سانين إلى الدكان على أطراف أصابعه. وطلب إليه الشاب ثلاث أوقيات من أقراص النعناع.

وسأل سانين بصوت أشبه بالهمس من خلال الباب:

ـ أي ثمن أتقاضاه؟

فأجابته چيما بمثل صوته:

ـ خمسة كروتزات.

ووزن سانين ثلاث أوقيات من الأقراص المطلوبة، وبحث عن ورقة، ولفها عندما وجدها على هيئة "قرطاس "ووضع فيها الأقراص

فتبعثـرت منـه، وجمعهـا ووضعهـا فـي الورقـة ثانيـة، ولكنهـا تبعثـرت مـن جديـد. وأخيـرا نجـح فـي مهمتـه. وأخـذ النقـود مـن الشـاب الـذي كان ينظـر إليـه أثنـاء ذلـك فـي دهشـة وهـو يضغـط قبعتـه علـى صـدره... وكانـت چيمـا الجالسـة فـي الغرفـة الأخـرى تضـع يدهـا علـى فمهـا لتكتم الضحـك.

ومـا كاد العميـل الأول ينصـرف حتـى جـاء عميـل آخـر. وقـال سـانين لنفسـه: "لا بـد أن وجـودي قـد جلـب لهـم الحـظ". وكان طلب العميـل الثاني كوبًـا مـن عصيـر الفاكهة. وجـاء عميل ثالث فطلب سـت أوقيات مـن الحلوى. ولبـى سـانين طلبـات العمـلاء فـي غيـرة علـى العمـل. وتعالـى رنيـن الملاعـق والأطبـاق، وهـو يمسـك ببعضهـا، وينقلـه من مـكان إلـى آخر، ويـدس أصابعه فـي مختلـف الأوعيـة. وظهـر لـه وهـو يراجـع الحسـاب أنـه تقاضـى فـي نظير كـوب العصيـر ثمنـا أقـل من سعره، ولكنـه في مقابل ذلـك تقاضـى ثمنًا أعلى فـي نظيـر الحلـوى. ولـم تسـتطع چيمـا كتمـان ابتهاجهـا وشـعر سـانين كذلك بسـرور غيـر مألـوف، وبفيـض عـارم مـن الحيويـة والانتعـاش. وخيـل إليـه أنه يسـتطيع الوقـوف إلـى مـالا نهايـة وراء منصـة البيـع. ملبيا طلبـات العمـلاء، بينمـا ترعـاه تلـك المخلوقة الفاتنة وتسـترق إليه النظر مـن وراء الباب بعينيها الممتلئتيـن سـخرية صدوقة، وبينما تتسـلل خيوط شـمس الصيـف خلال أفرع الأشـجار الكثيفـة الملاصقـة للنافذة، وتعكـس في الغرفة أشـعة الظهيرة ذهبية مخضوضـره، وظـلال الظهيـرة خفيفـة شـفافة... وأحـس تراخيـا معسـولا يـدب فـي حنايـاه، وفرحـا لا يعكره وسـواس... أحس سـورة الشـباب الأولـى تغمره...

وطلب العميل الرابع قدحا من القهوة، واستدعت الحالة مجيء پانتاليونى ليتولى العمل (ولم يكن إميل قد عاد بعد من متجر هر كلوبر) وارتد سانين إلى الغرفة، وجلس ثانية إلى جوار چيما التي كانت راضية كل الرضا لاستغراق فراو لينور في النوم. وقد قالت لجليسها:" إن النوم يتشرب صداع أمي "وكانت تتحدث همسًا بالطبع، وحدثها سانين همسا كذلك عن "صفقات البيع" التي عقدها... وأخذ يذكر أثمان الأصناف الموجودة بالمحل متخذا سيماء الجد، وجارته هي في ذلك وطفقت تسابقه في ذكرها، جادة كذلك، واشترك كلاهما في إخفاء ضحك باطني، وانهمكا في ذلك كأنهما يمثلان دورين مضحكين في ملهاة مسلية. وجلجلت في الشارع على حين فجأة آلة موسيقية من ذلك النوع الذي يدار باليد، ورددت مقطوعة "دورش دى فيلدر "من أوبرا" در فرايشوتس"، وتصاعدت منها النغمات نائحة مولولة، ومزقت هدأة الصمت المخيم. ففزعت چيما وصاحت: "سيوقظون أمي"، واندفع سانين على الأثر إلى الشارع، ونفح الرجل الذي كان يدير تلك الآلة بضع دريهمات، وحمله على الكف عن العزف، وعلى الابتعاد بآلته. وعندما عاد إلى چيما شكرته بإيماءة خفيفة... ثم أخذت تهمهم وعلى ثغرها ابتسامة حزينة أغنية الموسيقار" ويبر" التي يصف فيها، على لسان "ماكس"، وهو القائم بدور العاشق، أحاسيس الحب الأول العجيبة. وصمتت چيما لتسأل سانين عما إذا كان يعرف تمثيلية" در فرايشوتس "الغنائية ويعجب

بملحنها "ويبر"؟ وأضافت أنها تفضل هذا النوع من الألحان على ما عداه، رغم أنها إيطالية... وتدرج الحديث من" ويبر "إلى الشعر والرومانسية، وإلى هوفمان الذي كانت كتبه واسعة الانتشار في ذلك الحين.

وظلت فراو لينور نائمة، بل لقد كانت تردد شخيرًا خفيفًا، واخترق ضوء الشمس فتحات النوافذ الضيقة متسللا في خيوط رفيعة لا تُرى، ولكنها لا تنقطع، وانساب على الأرض والأثاث وثوب چيما وأوراق الورود المطلة من أوعيتها.

- 12 -

كان واضحًا أن چيما لم تكن مُعجبة بالكاتب هوفمان، بل إنها كانت تجده مملا. فطابع الأمم الشمالية الغالب على قصصه، ذلك الطابع المغرق في الغموض وضلال الأوهام، كان غريبًا على طبيعتها المشرقة كبلادها الجنوبية. وقد قالت عن قصصه هذه في سخرية ظاهرة:" إنها حكايات خُرافية ليس إلا... كتبها مؤلفها للأطفال" وكانت لديها كذلك فكرة عن خلو مؤلفات هوفمان من الروح الشعرية. إلا أن هناك قصة واحدة من قصصه مالت إليها، وقد نسيت اسمها، وعندما فكرت في موضوعها وجدت أنها لا تعرف إلا أوله، وأنها لا تذكر ما إذا كانت نسيت آخره أو أنها لم تقرأه أصلا. أما ما تذكره من ذلك الموضوع فهو أن فتى التقى مرة بفتاة في... نعم، في دكان لبيع الحلوى... وكان هناك شيخ هرم غامض شرير يحوم حول الفتاة، وعلق الفتى من أول نظرة بحب تلك الفاتنة التي ما فتئت ترمقه بنظرات مستعطفه، متوسلة أن ينقذها من الشر المحدق بها، ولكن الفتى تغيب بعض الوقت لأمر من الأمور، وعندما عاد إلى دكان الحلوى لم يجد الفتاة والشيخ الذي يلاحقها. فاندفع إلى مختلف الجهات بحثًا عن حبيبته وخاطفهًا... وكثيرًا ما كان يقف على أثرهما وهو يتعقبهما، ولكنه لم يستطع، رغم كل ما بذله من جهد، أن يلحق بهما لقد فقد حبيبته إلى الأبد، ولكنه لم يستطع قط أن ينسى نظراتها

التـي كانـت تناديـه متوسـلة، وظل يعاني ألـوان العذاب بفكرة أن السـعادة كانـت متاحـة له فتركها تفلت من بيـن أصابعه.

لـم تكـن هـذه هي النهايـة التي وضعهـا هوفمان لقصتـه. ولكن هكذا تصورتهـا چيمـا، أو هكـذا رسـخت فـي ذهنهـا. وقـد قالـت بعـد أن أتمـت سردها:

ـ أعتقـد أن مثـل هـذا اللقـاء ومثـل هـذه الفرقـة يتكـرر وقوعهمـا في الحيـاة أكثـر مـن نتصور.

وظـل سـانين صامتـا لا يجيـب، ولكنـه حـول الحديـث بعـد حيـن إلى هـر كلوبـر، وكانـت هذه هـي المرة الأولى التـي يتحدث فيها عنـه، والواقع أن هـذا الرجـل لـم يخطـر علـى بالـه حتى هـذه اللحظـة. وجـاء دور چيما فـي الركـون إلـى الصمـت، وأخـذت تحـدق فـي ظفـر إصبعهـا الوسـطى، مسـتغرقة فـي التفكيـر، متحاشـية النظـر إلـى جليسـها، ولكنهـا سـرعان مـا اندفعـت فجـأة فـي الـكلام مقرظـه خطيبهـا، ذاكـرة الرحلـة التـي أعدهـا لهـم... واختلسـت نظـرة سـريعة إلـى سـانين، ثـم لاذت بصمتهـا العميـق.

وأجهـد سـانين ذهنـه ليجـد قـولا يقولـه. وفـي هـذه اللحظـة اقتحـم إميـل الغرفـة، فأيقظـت جلبته فـراو لينور. ووجد سـانين فـي مجيئه خلاصا مـن ورطته.

ونهضت السيدة من مقعدها ودخل پانتاليونى ليخبر الحاضرين أن الغداء معد. لقد كان هذا الشيخ الذي تصله بتلك الأسرة صلة الصداقة، والذي كان فيما مضى مغنيا بمسرح "الأوبرا". ثم خادما للأسرة... كان هذا الشيخ يقوم بوظيفة طاهي الأسرة كذلك...

-13-

بقـي سـانين مـع مضيفتيـه بعد تنـاول الغـداء. وكانت شـدة الحر هي نفـس الحجـة التـي لجأت إليهـا السـيدتان لاسـتبقائه. وعندما أقبـل العصر، وتحسـن الجـو، دعتـاه إلـى تنـاول القهـوة معهما فـي الحديقـة تحت ظلال شـجر الطلـح. وقبـل الدعـوة على الفـور، وشـعر بمتعة السـعادة. إن مجرى الحيـاة المتشـابه المتراخـي يشـتمل دائمًـا علـى فتنـة قاهـرة محتجبة بين طياتـه، وقـد وجد سـانين تلك الفتنة فاستسـلم لها مغتبطًـا دون أن يتطلب منهـا فـي يومـه لبانـات معينـة، ودون أن يفكـر فـي أمسـه، أو يهتـم بغده. كان مجـرد جلوسـه إلـى جانـب فتـاة مثـل چيمـا مغنمًـا كبيـرًا... فهـو لـن يلبـث أن يفارقهـا، وأغلـب الظـن أنـه لـن يلتقـي بهـا أبـدًا، فظروفـه أشـبه بظـروف قصـة" أو هلانـد "الشـعرية. فقـد جـاء في تلـك القصـة أن القارب السـحري حمـل راكبيـه إلـى حيـث هـدأ مجـرى الحيـاة، وانسـاب كالنهـر الهـادي، فأصبـح كل مـا يحيـط بالقـارب جميـلا فـي نظـر راكبيه السـعداء.

عرضـت فـراو لينـور علـى سـانين أن يلعـب معهـا" الـورق". وشـرحت لـه ال"تريسـتى"، وهـي لعبـة إيطاليـة غيـر معقـدة. وبلـغ ربحهـا منـه بعـد الانتهـاء مـن اللعبـة بضعـة دراهـم... وقـد أثلـج ذلـك صـدره. ووضـع پانتاليونـى الجـرو "تارتاجليـا "بيـن سـاقيه إذعانـا لطلـب

إميـل، وأطلقـه فقفـز الجـرو فـوق عصـا وضعـت أمامـه، وطفـق يتكلـم (أى ينبـح ويعطـس محـا كيا الـكلام) ويغلق البـاب بأنفـه، ويجلب حذاء سـيده بيـن أسـنانه. وأخيـرًا وضعت له فوق رأسـه قبعة عسـكرية محلاة بالريـش، وبـدأ فـي تمثيل دور الماريشـال برنادوت وهو يواجـه نابليون، ويتلقـى منـه وابـلا مـن اللـوم والتقريـع علـى خيانتـه. وممـا لا يحتـاج إلـى ذكـر أن پانتاليونـى هـو الـذي قـام بتمثيـل دور نابليـون. وقـد أداه فـي الحـق علـى خيـر وجـه. كان يضـع قبعـة مثلثـة الشـكل على رأسـه، ويخفـى بهـا جبهتـه إلـى قـرب حاجبيـه، ويصلـب ذراعيـه علـى صـدره. ويغلظ في القول للماريشـال برنادوت متحدثا بالفرنسـية... وأي فرنسـية تحـدث بهـا!!... وجلـس الجـرو القرفصـاء أمام قدمـي سـيده. وأنصت له مرتبـكا وقـد انكمـش ذنبـه بيـن سـاقيه... ونظـر إلـى نابليون مـن تحت قبعتـه العسـكرية المائلـة فـوق رأسـه، وطرفت عينـاه الخاويتان شـعورًا منـه بالذنـب. وكان يقعـى علـى أدبـاره كلمـا اشـتط نابليون فـي حملته عليـه. وختـم الإمبراطـور شـتائمه صائحـا: "أيها الخائـن النـذل! "وأفلتت منـه هـذه العبـارة فـي لغـة إيطالية دارجـة، إذ أنسـته حماسـة الموقف أنـه سـيد فرنسـا، وأن مـن واجبه رعاية جنسـيته الفرنسـية إلـى النهاية... وجـرى برنـادوت فاختبـأ تحـت المقعـد. ثـم ظهـر ثانيـة وهـو ينبـح طربًـا كأنمـا يريـد أن يعلـن للحاضريـن أن التمثيـل قـد انتهـى... وأغـرق الحاضـرون فـي ضحـك صـادر مـن صميـم القلـب. إلا أن أحـدًا منهـم لم يضحـك مثل سـانين.

كان لچيما ضحكة مستطيلة لطيفة يتخللها رنين شائق يعلو أحيانًا... آه ما أرق تلك الضحكة!!... إن رنينها وحده كان يغرى سانين بتقبيل تلك المخلوقة الفاتنة...

وحل المساء في النهاية، وحان وقت انصراف سانين. فكرر تحياته مرارًا. وردد لكل فرد على حدة قوله"إلى الغد"، (وقبل إميل بالطبع) وعاد إلى فندقه مصطحبا صورة الغادة الفتية التي تبدو ضاحكة، فساكنة هادئة، فمستغرقة في التفكير على التوالي... إلا أنها كانت في جميع تلك الحالات جذابة فاتنة. أما عيناها اللتان كانتا في بعض الأحيان تتفتحان واسعتين براقتين مرحتين كالصباح المشرق... وتقبعان أحيانًا أخرى في ظل رموشهما، عميقتين في لون الليل القاتم... كانت هاتان العينان تمثلان أمامه دون انقطاع، وتحجبان عنه ما عداهما من الأخيلة والخواطر على نحو ممتع غريب...

وأما عن هر كلوبر، وعن دواعي بقائه في فرانكفورت، وعن كل ما كان يقلق باله في اليوم السابق، فإن شيئًا من كل ذلك لم يعد يخطر له على بال...

- 14 -

بيد أن الوقت قد حان لنقول كلمة أو كلمتين عن سانين نفسه.

كان قبل كل شيء فتى في مقتبل العمر شديد الجاذبية. أما من ناحية شكله فكان فارع الطول، لطيف الملامح (ولو أن ملامحه لم تكن محدودة واضحة)، أزرق العينين، ذهبي الشعر، أبيض اللون (كان بياضه مشربًا بالحمرة). وكان الأهم من كل ما تقدم تعبير وجهه. كان هذا التعبير يدل على البساطة وخلو البال، والصراحة التي تبدو لأول وهلة بلهًا... كان أشبه بالتعبير الذي تميز به أولاد الأسر الكبيرة في الأيام الخوالي. فكنت لا ترى الواحد منهم حتى تميزه على الفور فتقول: هذا هو "الفتى المدلل" (دلوعة أبيه). ومجمل القول إن سانين كان شابًا يافعًا ظريفًا، نما وترعرع في ولاياتنا الشاسعة بين الغابات المتناثرة في منحدرات الـ "ستيبى". كانت خطوته وئيدة، ولسانه يلثغ في نبرات عذبة، فإذا جلس إلى من يتفق معهم في المشرب علت ثغره ابتسامة الأطفال... ونحتم ما تقدم بالإشارة إلى نضارته وحيويته وموفور صحته، ثم إلى ما هو أهم من ذلك كله... إلى عذوبة خلقه الطاغية على ما عداها... وبذلك تكونون قد عرفتم سانين.

أما صفاته التي تأتى في المرتبة الثانية فهيَّ أنه لم يكن مغفلا، وأنه نال قسطًا غير يسير من المعرفة، واحتفظ بنضارته رغم كثرة حله

وترحالـه، ولـم يكابـد إلا القليـل مـن عـذاب الهواجـس التـي لم يسـلم منها حتـى خيرة شـباب هـذه الأيام.

بـذل كتابتـا جهودهـم سـدى فـي البحـث عـن طـراز جديـد مـن الشـخصيات لقصصهـم. وقـد عمـدوا أخيـرًا إلى تصوير الشـباب الـذي يبذل مـا وسـعه ليحتفـظ بنضارتـه وجدتـه. ولكـن جدة شـباب قصصهـم كانت لا تختلـف عـن جـدة الأصـداف والأسـماك التي تأتـى إلينـا من بطر سـبورج!! بيـد أن سـانين لـم يكـن يشـبه واحـدًا مـن هـؤلاء الشـباب. ومـا دمنـا فـي معـرض المقارنـة والتشـبيه فنسـتطيع أن نشـبهه بشـجرة تفـاح انبثقـت مـن أرض روسـيا الخصبـة، وبلغـت أوج شـبابها وقوتهـا ونضرتهـا أو نشـبهه بمهـر فـي سـن ثـلاث سـنوات، نشـأ وترعـرع فـي حظيـرة قصـر مـن قصور الأشـراف... مهـر معتنـى بتغذيته وتنشـئته، ضخم المفاصـل، ممتلئ الهيكل يوشـك أن يصبـح جـوادًا...

وعندمـا رأى النـاس سـانين بعـد أن عصفت به الأيام، وذبـل فيه ريعان الشـباب، رأوا رجـلا مختلفًا عـن أصله كل الاختلاف.

***

وفـى صبـاح اليـوم التالـي بينما كان سـانين لا يـزال في فراشـه، اقتحم إميـل عليـه الغرفـة وهـو فـي أتـم زينتـه كان يرتـدى سـترة أنيقة، ويمسـك بعـض. ولـم يفتـه حتـى أن يعتنـى بشـعره، فلينـه بالدهـان ومشـطه قـال وهـو يلهـث إن هركلوبـر سـيمر بالعربـة بعـد دقائـق، وإن الجميـع أعـدوا

أنفسـهم للرحلـة مـا عـدا (مامـا) التـي تشـعر اليـوم كذلـك بصـداع. وقـد استحث سـانين علـى أن يعـد نفسـه هـو أيضًا بسـرعة، مؤكـدًا أنـه لم يبق أمامـه أي متسـع مـن الوقـت لإضاعتـه هدرًا. وحـدث بالفعـل أن وصل الهر كلوبـر بينمـا كان سـانين لـم يفـرغ بعـد مـن ارتـداء ملابسـه. لقـد طـرق الرجـل الأنيـق البـاب طرقًـا خفيفًـا، ودخـل الغرفـة، وانحنـى مطأطئًا رأسـه، وأظهـر اسـتعداده للبقـاء مـا شـاء لـه سـانين أن يبقـى. وجلـس فـي أحـد الكراسـي متأدبًـا واضعًـا قبعته علـى ركبتيه. وكان موظـف المتجر قد اعتنى بهندامـه إلـى حـد مبالـغ فيـه، وأسـرف فـي التطيـب إلـى درجـة أن رائحـة الطيـب كانـت تفـوح قويـة علـى أثر كل حركـة يأتي بهـا. وكان قـد جاء في عربـة مكشـوفة مـن ذلـك النـوع الـذي أطلـق عليـه اسـم (لانـدو) تقديـرًا لـه وتفخيمًـا ولـم يكن الجـوادان المشـدودان إلـى العربة جميلـي المنظر، ولكنهمـا كانـا طويليـن شـديدي البـأس. ولـم يمـض غيـر قليـل حتـى كان سـانين وهـر كلوبـر وإميل فـي العربة وهي تتبختـر بهم في أبهـة، مخترقة الشـوارع إلـى دكان الحلـوى. ورفضـت فـراو لينـور بشـدة أن تشـاركهم في الرحلـة. وأرادت جيمـا أن تتخلـف هـي الأخـرى لتبقى مع أمهـا ولكن هذه الأخيـرة دفعتهـا إلـى خـارج الـدكان قائلة:

ـ أنـا لسـت فـي حاجـة إلـى صحبـة أحـد لأنـي سأسـتغرق فـي النـوم. ولـم يكـن هنـاك ما يمنع حتـى ذهاب پانتاليونـى معكم لولا حاجـة الدكان إليه.

وسأل إميل أمه:

ـ أتسمحين أن نأخذ تارتاجليا معنا؟

ـ بالطبع.

وتسلق الجرو العربة على الأثر، وجلس في مقعدها الأمامي، وطفق يلعق جنبيه طروبا. ولم يخف أنه كان معتادا مثل هذا النوع من الرحلات. وكانت چيما تضع على رأسها قبعة كبيرة من القش حاشيتها مضفرة بشريط سنجابي اللون، ومقدمتها مائلة إلى أسفل لتقى وجه الفتاة حرارة الشمس. ووصل ظلها إلى شفتين حمراوين في لون الورد الرقيق، منفرجتين عن أسنان بيض تومض في حياء كحياء الأطفال...

جلست چيما في مقعد العربة الخلفي إلى جانب سانين، وجلس كل من هر كلوبر وإميل أمامها. وظهر وجه فراو لينور الأبيض في النافذة، فدارت چيما صوب أمها، ولوحت لها بمنديل... وركض الجوادان خببا..

- 15 -

"سـودين"هذه بلـدة صغيرة تبعد قليلا عن فرانكفـورت، وتقع على قمة جبـال "تونـوس". وهـي معروفة في روسـيا بمياههـا المعدنية التـي يقال إنها عـلاج مفيـد لأمـراض الصدر. أما سـكان فرانكفـورت فيقصدونهـا على الأغلب للتسـلية. فهـيَّ تفاخـر البـلاد الأخـرى بحدائقهـا الغنـاء المليئـة بالمقاهـي المنثـورة فـي الهـواء الطلق، حيث ينعم روادها باحتسـاء الجعـة والقهوة في ظـل أشـجار الزيزفـون المهدلـة الأغصان. وتسـير الطريـق المؤديـة إليها جنبا إلـى جنـب مـع نهر"المين"مزينـة الجانبيـن بأشـجار الفاكهـة. وأخـذ سـانين يمتحـن العلاقـة بيـن چيمـا وخطيبهـا بينما كانـت العربة تصعد بسـهولة في تلـك الطريـق البديعـة. وكانـت هذه أول مـرة يتاح له فيها أن يـرى الخطيبين مجتمعيـن. رأى چيمـا تلتـزم الهـدوء والاحتشـام، إلا أنهـا كانـت أشـد تحفظًـا وجـدًا مـن العادة. وكان خطيبها يلاحقها بنظرات الوصي المتسـاهل، فيسـمح لهـا ولنفسـه بيـن وقـت وآخـر، بقـدر يسـير مـن الاسـتمتاع المـؤدب الذي لا يضـر. ولـم يلاحظ سـانين عليه أنه يحيـط خطيبته برعاية خاصـة أو" بحرارة" علـى حـد تعبيـر الفرنسـيين. وكان واضحـا أنه يـرى ارتباطـه بها أمـرا مفروغًا منـه، فـلا داعـي إذن للتحمـس أو للتظاهـر المصطنع! بيد أنه لـم يكن يكف لحظـة عـن تعطفـه المعتـاد!!... بـل إنـه كان ينظـر إلـى الطبيعـة أثنـاء تنـزه الجميـع بيـن المنحـدرات والوديـان المعشوشـبة قبـل الغـذاء، واسـتمتاعهم

بجمال المناظر المحيطة ببلدة" سودين"...كان ينظر إلى الطبيعة بتلك النظرات المتحفظة! ويعاملها بذلك التعطف والتنازل!! بل إنه كثيرًا ما كان يصاب وقتذاك بنوع من صرامة العمل الرسمي!! فيأخذ في نقد مناظر الطبيعة، ويقترح ما يجب إدخاله عليها من تعديل!! ومن أمثلة ذلك انتقاده لجدول رآه يجرى في خط مستقيم بدل أن يتعرج في جريانه فيكسب المناظر الطبيعية التي يمر بها رواء وحيوية!! وقد ضاق كذلك بعصفور يغرد لأن تغريده كان رتيبا مملا!!... ولم تبد على چيما علامة من علامات التبرم بل كان يبدو عليها الانشراح. ولكن سانين لم يرها كما اعتاد أن يراها من قبل. وما ذلك لأن ملامحها تغيرت، أو شائبتها أية شائبة، فإن جمالها كان في عنفوان ازدهاره... ولكن الذي بدا له أنها توارت كالقوقعة داخل نفسها... كانت تسير بخطوات وئيدة، وتمسك مظلتها بيدها المحتفظة بقفازها، وتقتر في الحديث، وتومئ في رزانة كما تفعل السيدات المهذبات. وبدا على إميل أنه كذلك مقيد الحرية، وعانى سانين من وطأه تلك الحال فوق ما كانا يعانيان. وكان من بين أسباب عنائه تحدث الجميع بالألمانية. ولم يظل أحد على طبيعته غير الجرو تارتاجليا. فكان يهجم على العصافير الجاثمة في طريقه نابحا بكل قواه. وكان يجتاز الأخاديد وجذوع الأشجار وثبا. ويلقى بنفسه في الماء، ويلعق جرعات منه في سرعة وخفة، ثم يهز جسمه لينفض الماء عنه. ويقعى لينطلق بعد لحظة كالسهم المارق. ويمد لسانه الأحمر إلى كتفه.

لجأ هـر كلوبـر إلى كل وسـيلة رآهـا ضرورية لتسـلية ضيوفـه. فعرض عليهـم الجلـوس إلـى ظـل شـجرة بلـوط ناميـة الفـروع، وأخـرج مـن جيبـه كتيبـا بعنـوان "صواريـخ، أو يجـب أن تضحـك، وسـتضحك فعـلا "وأخـذ يسـمعهم منـه نـكات قاتلـة... قـرأ مـا يزيـد علـى عشـر نـكات فلـم يكـد يحـدث أيـة بهجـة. وانفـرد سـانين، مجاملة منـه وتأدبًـا، بمحاولـة الضحك. أمـا هـر كلوبر فكان يتنازل فيرسـل بعـد انتهائه من قـراءة كل نكتة، ضحكة قصيـرة كأنهـا مـن" أصـول المهنة". وعـاد الجمع عندمـا انتصـف النهار إلى سـودين حيـث قصـدوا أفخـر مطاعـم البلدة.

وحان ميعاد الغداء...

واقتـرح هركلوبـر أن يتناولـون الطعـام فـي غرفـة خاصـة، ذات حوائط زجاجيـة. ولكـن چيمـا لـم تسـمع اقتراحـه حتـى فاجـأت الجميـع بتمردها عليـه. وقالـت إنهـا لـن تتنـاول عداءهـا إلا فـي الهـواء الطلـق، فـي قلـب الحديقـة، علـى إحـدى تلـك الموائـد الصغيـرة المجـاورة للمقصـف. فقـد سـئمت النظـر إلـى نفـس الوجـوه التـي اعتادتهـا، واشـتاقت إلـى مطالعـة وجـوه جديـدة. وكان بعـض الـرواد قـد احتلـوا عـدد مـن تلـك المقاعـد.

وتفضـل هركلوبـر فأذعـن" لنـزوة خطيبتـه"، وتوجـه إلـى السـاقي ليتفاهـم معـه علـى التفاصيـل المتعلقـة بإعـداد الطعـام. وظلـت چيمـا فـي مكانهـا بـلا حـراك، مسـبلة الجفنيـن، مطبقـة الشـفتين. وشـعرت بعينـي سـانين مصوبتيـن إليهـا... متسـائلتين مسـتفسـرتين، وبـدا أنهـا

ضاقت بذلك، وجاء هركلوبر في النهاية معلنا أن الطعام سيقدم إليهم بعد نصف ساعة. واقترح على ضيوفه أن يزجوا الوقت بلعبة "الكرة والأوتاد "وأضاف أن انهماكهم في اللعب سيضاعف شهيتهم للأكل... وضحك ضحكة جافة مقتضبة! وكان يجيد تلك اللعبة. كان وهو يتهيأ لقذف الكرة الخشبية يقف وقفة بطولية، ثم يحرك ساعديه، مبرزًا عضلاته، ويرفع يده برشاقة، وهو يقف على قدم واحدة، ويحاول حفظ توازنه... كان رياضيا على طريقته... وكان متين البنيان. بيد أن يديه كانتا غاية في جمال التركيب ونقاء اللون! وبلغ من عنايته بهما أنه كان يمسحهما كل حين بمنديل حريري من واردات الهند، مزين برسوم شرقية.

وحان ميعاد الغداء. وسار الجمع في طابور إلى المائدة...

- 16 -

ومـن ذا الـذي يجهـل الغـداء الألمانـي؟.. حسـاء أشـبه بالمـاء العكـر، مملـوء بمسـحوق القرفـة والزلابيـة... ثـم شـرائح مسـلوقة مـن اللحـم البقـري، جامـدة كالفليـن.. وحلقـات رفيعـة مـن البطاطـس... وأخـرى مـن البنجـر المترهـل، والفجـل المجعـد.. ثـم ثعبـان البحـر الشـائه الشـكل واللـون. الغـارق فـي الخـل. ثـم التحليـة المعتـادة، وهـي المربـى والثريـد المحلـى بدبـس قرمـزي. ولـم يكـن هنـاك مـا تطيب لـه النفس غيـر الجعة والنبيـذ. بيـد أن السـاقي زعـم أنـه أتحـف عمـلاءه بغـداء فخـم. ومـرت الأمـور علـى نحـو لا بـأس بـه، بيـد أن البهجـة كانـت فـي الواقـع تنقـص الحفلـة. ولـم يبـد دليـل على انشـراح القوم حتـى حين رفع هركلوبر كأسـه وشـرب نخب"مـن يخصـم بحبـه"... لكـم كان كل مـا يتعلق بالحفـل متصفا بالحشـمة والكمـال!!... ودارت علـى الجمـع أقـداح القهـوة بعـد الغـداء، وكانـت هـي الأخـرى لا تختلف عـن القهوة الألمانيـة المعتـادة، كانت أيضا كالمـاء العكـر... واسـتأذن هركلوبـر خطيبتـه، كمـا يفعـل الرجـل المهـذب، فـي تدخيـن لفافـة مـن التبـغ... ولكـن حـدث على حيـن فجأة حـادث غير متوقـع، حـادث ينغـص الخاطـر... بـل حـادث معيـب.

كان بعـض ضابـط حامـي "الميـن" يجلسـون حـول مائـدة مجـاورة. وظهـر مـن نظراتهـم وهمسـاتهم أن جمـال چيمـا أحـدث أثـره فـي

نفوسـهم. وأطـال أحدهـم النظـر إليهـا كمـا لـو كان يعرفها من قبـل، ولعله مـن سـكان فرانكفـورت أصـلا، أو لعلـه مـر بتلـك المدينـة. ولـم يلبـث أن هـب مـن مقعـده، حامـلا كأسـه فـي يـده، وقصـد إلى حيـث تجلـس چيما كان يبـدو أنـه ابتلـع كمية كبيـرة مـن الخمـر، فالزجاجـات الفارغـة كانـت مصفوفـة فـوق مائدتـه ورغـم أن السـكر جعد وجهـه، وألهب عينيـه، وأزاغ بصـره، فأنـه كان فـي الواقـع فتى في ريعان الشـباب، أشـقر الشـعر، حسـن الوجـه جذابـا. وقـد حـاول ندمـاؤه أن يثنـوه عمـا اعتزمـه، ولكنهـم تركـوه وشـأنه آخـر الأمـر. وكانـوا فـي الحقيقة يتشـوقون إلى ما سـوف تسـفر عنه مغامرته.

وقـف بعـد مشـيته المترنحـة أمـام چيمـا، وصـاح قائـلا بصـوت عـال تـدل نبراتـه علـى أنـه لـم ينطلـق إلا بعـد صـراع قـام بيـن الفتـى ونفسـه: "أشـرب نخـب أجمـل بائعـات الحلـوى فـي فرانكفـورت... بـل أجملهـن فـي العالـم أجمـع. "وابتلـع بقيـة مـا فـي كأسـه، ثـم مـد يـده إلـى المائدة قائـلا: "وإنـي أوثر نفسـي بهذه الـوردة التي اقتطفتهـا أناملهـا الروحانية..." والتقـط وردة كانـت موضوعـة إلـى جانب طبق چيمـا التي عرتها الدهشـة فـي أول الأمـر، ثـم غلبهـا الأسـى وامتقـع لونهـا... وتحـول قلقهـا إلـى اشـمئزاز، وتصاعـد الـدم مـرة أخـرى إلـى وجههـا فصبغـه عـن آخره، حتـى جـذور شـعر رأسـها. وصوبـت إلـى المتهجـم عليهـا نظـرات كانـت تتجهـم أحيانـا، وتتقـد أحيانـا أخـرى، ثـم تمتلـئ كآبـة وأسـى، ثـم تتوهـج غيظًـا وغضبًـا... وظهـر علـى الضابـط أن هـذه النظـرات أربكتـه وأخجلتـه، فـلاك

لسانه تمتمة غير مفهومة، وانحنى للفتاة، ثم عاد أدراجه إلى رفقائه، فحيوة بالضحك والتهليل الساخر.

عند ذلك انتصب هركلوبر واقفا، ووضع قبعته على رأسه، وهو يقول بصوت جليل الوقع، وإن كان "غير مرتفع" النبرات: "عمل مشين!.. تهجم مشين..." ثم نادى الساقي في غلظة، وطلب منه كشف الحساب... ولم يكتف بذلك، بل طلب إعداد العربة للرحيل. وأضاف قوله إنه لم يعد في استطاعة من يحترمون أنفسهم أن يحضروا إلى هذا المكان ويعرضوا أنفسهم للإهانة وما نطق بهذه العبارة الأخيرة حتى حولت چيما بصرها إليه، وحدجته بمثل النظرات الطويلة القاسية التي حدجت بها الضابط الذي أهانها... أما إميل فكان ينتفض حنقًا.

وقال هركلوبر بنفس لهجته الخشنة السابقة:

ـ انهضي يا آنستي، فهذا المكان لا يليق ببقائك فيه لنتوجه إلى داخل المطعم.

قامت چيما مطبقة الفم، وثنى لها ذراعه فتأبطها، وسار معها في عظمة إلى داخل المطعم. وكان كلما ابتعد عن مائدة الضباط ازداد انتفاخا وتعاظما، وصار في شكله وحركاته أشد عجرفة وتحديًا... وسار إميل المسكين في أعقابهما.

وفى الوقت الذي كان هركلوبر يحاسب فيه الساقي (وقد أبى أن ينقده حلوانا عقابا له على ما حدث!..) أسرع سانين إلى حيث يجلس

الضباط، ووقف أمام الضابط الذي أهان چيما، (وكان هذا الأخير يدير الوردة في تلك الأثناء على زملائه ليستنشقها كل منهم بدوره) وقال بلسان فرنسي مبين:

ـ إن ما أقدمت عليه الآن أيها السيد لا يليق بإنسان شريف، بل لا يليق بزيك العسكري. وقد جئت إليك لأصارحك بأنك غير مهذب.".

وقفز الضابط من كرسيه، ولكن زميلا له يكبره سنًا مد إليه يده، وأعاده إلى مكانه، ثم سأل سانين بالفرنسية كذلك:

ـ ولكن ما شأنك فيما حدث؟ أأنت أحد أقربائها؟ أم أنت أخوها؟ أم لعلك خطيبها؟...

فصاح سانين:

ـ أنا لست إلا واحدا من معارفها. أنا روسي غريب، بيد أنى لا أستطيع أن أقف مكتوف الأيدي إزاء مثل هذا العدوان... ها هي ذي بطاقتي، وهي تشتمل على أسمي وعنواني. ويستطيع حضرة الضابط أن يتوسل بها للقائي...

ورمى بطاقته على المائدة وهو يفوه بهذه الكلمات. وانتزع على الأثر وردة چيما من طبق أحد الجالسين. وحاول الضابط الشاب أن يتهجم مرة أخرى على سانين، ولكن زميله عاد فأمسك، وهو يقول:

ـ اهدأ يا دونهوف.

ووقف وحيا سانين بخشونة، وقال له بصوت ليس فيه مسحة من الرعاية والأدب، إن أحد الضباط سيوافيه بمنزله في صباح اليوم التالي. وأجاب سانين على قوله بانحناءة قصيرة، وعاد مسرعًا إلى رفقائه.

وتظاهر هركلوبر بانه لم يلحظ توجه سانين إلى الضابط وتحديه إليهم. وأخذ يستحث الحوذي على سرعة شد الجوادين إلى العربة، وبيدى غضبه لبطئه في أداء مهمته. ولاذت چيما كذلك بالصمت، فلم توجه كلمة إلى سانين، واكتفت بنظرة وجهتها إليه. ولكن حاجبيها المقطبين، ووجهها المكفهر، وشفتيها المطبقتين، ووقفتها الجامدة دلت على مدى ما تعاني من اضطراب. وانفرد إميل بالرغبة في التحدث إلى سانين، والاستفسار منه على ما فعله. فقد رآه يتوجه إلى مائدة الضباط، ويقدم لهم ورقة بيضاء... لعلها بطاقة!... وترنح قلب الفتى بعنف بين جنبيه، واشتعلت وجنتاه. وشعر برغبة في أن يرتمي على عنق سانين وينفجر باكيا... أو أن يذهب معه إلى أولئك الضباط المتوحشين فيمزقهم إربا... ولكنه هيمن على أعصابه، واكتفى بملاحظة كل حركة تصدر من صديقه الروسي النبيل.

وتم أخيرًا إعداد العربة، وركبها الجميع، وقفز إميل إلى الكرسي الأمامي لاحقا بالجرو تارتاجليا، وجلس إلى جوار الحوذي. وشعر في ذلك المكان بشيء من هدوء البال لأن هركلوبر كان بعيدًا عن

مرمى نظره... لقد أحس لذلك الرجل بكراهية منبعثة من صميم قلبه.

***

سيطر هركلوبر على الركب، وظل كذلك طوال الطريق. ولم يعارضه أحد فيما قال، ولكن أحدًا لم يوافقه عليه كذلك، وقد بذل جهده للتدليل على أن الخطأ الذي وقع يرجع إلى عدم الأخذ بما أشار به، وهو تناول الغداء في غرفة خاصة. فلو أنه نفذ رأيه لما حدثت تلك المضايقات. ثم أخذ يوجه النقد القاسي للحكومة الألمانية مستبيحا لنفسه شيئًا من حرية القول. فقد أخذ عليها تسامحها مع بعض الضباط الألمان الذين يعتدون على النظام في الوقت الذي لا تحيط فيه المدنيين برعايتها وهذا هو سبب تذمر المدنيين. بيد أنه تدارك هذا الإسراف في نقد الحكومة، فأكد أنه يحترم النظام، ويحترم القائمين على الحكم، ولا تجرى في عروقه قطرة دم ثورية... ولكن ذلك لا يمنعه من استنكار ما لا يروقه... ومثال ذلك ما حدث في هذا اليوم وطفق يردد بعد ذلك تلك العبارات المألوفة عن حسن الخُلق وسوء الخُلق، وعن الشعور بالكرامة والمحافظة على الكرامة...

وظهرت على چيما أثناء هذه الثرثرة أمارات تدل على عدم رضاها عن خطيبها. وكانت مثل هذه الأمارات تبدو عليها كذلك من قبل أثناء تجولها معه بين الوديان قبل الغداء. وهذا هو السبب الذي

دعاها إلى التباعد عن سانين، وإلى شعورها بالارتباك عند نظره إليها. كان كل ما يبدو من خطيبها يخجلها، وقامت شواهد عدة على تمكن ذلك الخجل منها. واجتاحها عذاب نفساني شديد الوطأة قرب نهاية الرحلة، وظلت محجمة عن سانين لا توجه إليه كلمة واحدة. إلا أنها صوبت إليه على حين فجأة نظرة توسل واستعطاف... أما هو فكان إشفاقه عليها يغلب على امتعاضه من هركلوبر. وكان يشعر في قرارة نفسه ببهجة واغتباط بكل ما حدث في هذا اليوم رغم المبارزة التي تنتظره في الصباح التالي.

وأشرفت "رحلة السرور" على نهايتها، وعندما وقفت العربة بباب الدكان أعان سانين چيما على النزول منها. ووضع الوردة التي استردها من الضباط في يدها دون أن ينبس بكلمة، فاصطبغت وجنتاها بحمرة قانية، وضغطت يده، وألقت بالوردة حيثما اتفق. ولم يشأ أن يدخل معها الدار رغم أن المساء كان في أولياته. وهي لم تعرض عليه الدخول كذلك. ثم إن پانتاليونى ظهر في هذه اللحظة وأعلن أن فراو لينور أوت إلى فراشها، وودع إميليو سانين في حياء ظاهر، وبدا كأنه يتجنبه. وكان عجبه من مسلكه شديدًا... ووصل هركلوبر سانين إلى فندقه، وحياه دون أن ينسى مجاملاته الرسمية. ولم يستطيع هذا الألماني المتزن الشديد الثقة بنفسه أن يتغلب على قلقه وارتباكه، وفي الحق إن الجميع كانوا فريسة القلق والارتباك.

بيد أن سانين لم يلبث أن تخلص من ذلك الشعور الذي سرعان ما حلت محله حالة من البهجة الغامضة اللذيذة... وشرع يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ويصفر بعد أن أسترد خلو باله... لقد كان راضيًا عن نفسه.

ـ 17ـ

قال سانين لنفسه في الصباح التالي وهو يرتدى ملابسه: "سأنتظر الضابط حتى العاشرة لأستمع إلى ما قرره، فإذا تأخر عن هذا الميعاد فعليه هو في هذه الحالة أن يبحث عنى" ولكن الألمان يستيقظون في الصباح مبكرين فما كادت الساعة تدق تسع دقات حتى دخل الخادم الغرفة ليخبر سانين أن الملازم الثاني ڤون ريختر يريد مقابلته. وعندما وقعت عين سانين على ذلك الضابط دهش لصغر سنه، كان ڤون ريختر يبدو في هيأه غلام، وقد أراد أن يخلع على وجهه الصغير الذي لم ينبت فيه الشعر بعد، مظهر الوقار، ولكنه أخفق فيها أراد كل الإخفاق، بل إنه لم يستطع مداراة ارتباكه. وعندما حاول الجلوس تعثر في سيفه وكاد يقع... تلعثم وهو يخبر سانين بلغة فرنسية ركيكة أن صديقه البارون ڤون دونهوف كلفه بأن يطلب إلى "الهرڤون زانين" تقديم اعتذار عن الإهانة التي وجهها إليه أمس، فإذا أبى ذلك فعليه أن يقدم الترضية المطلوبة. وأجاب سانين بأنه لا ينوى تقديم أي اعتذار عما بدر منه، ولكنه مستعد لتقديم الترضية... وسأله ڤون ريختر عندئذ عن اسم شاهده الذي يمكن أن يتم معه الاتفاق على مكان المبارزة وشروطها. فطلب إليه سانين أن يعود بعد ساعتين حتى تتاح فرصة العثور على مثل هذا الشاهد، وسأل نفسه: "ومن أين لى بالشاهد المطلوب؟!!" ووقف هرڤون ريختر متهيئا للانصراف. ولكنه تلكأ

كأنما غلب عليه تأنيب الضمير، والتفت إلى سانين وتمتم قائلا إن صديقه البارون ڤون دونهوف مضطر إلى أن يسلم بأن سلوكه أمس،.. كان... إلى حد ما... جديرا بالمؤاخذة، ولذلك فإن كلمة اعتذار رقيقة عما لحقه من إهانة تكفيه. وأجاب سانين مرة أخرى أنه لم يرتكب ما يستحق اللوم، ولذلك فهو لا ينوى تقديم أى اعتذار سواء أكان في صورة كلمة رقيقة أو غير رقيقة. فغمغم الضابط وهو يحمر خجلا:

ـ أرجو في هذه الحالة أن تتبادلا طلقات النار بصفة ودية...

ورد سانين:

ـ أخشى أن أكون عاجزًا عن فهم قصدك. أتريد أن نطلق النار في الهواء؟

وتلعثم الضابط وقد غلبه الخجل:

ـ لا، لا... أنا لم أقصد ذلك... إلا أنه... ما دمتما شريفين... ولكن يحسن أن أتفاهم على مثل هذه الأمور مع شاهدك...

وتوقف عن الكلام وخرج.

وارتمى سانين في أحد المقاعد على أثر انصراف الضابط، ورشق الأرض بنظراته وهو يناجى نفسه "فيم كل هذا؟!... وأية هاوية يتجه إليها مجرى حياتي؟! لقد فقدت أيامى الماضية وأيامى المستقبلة معناها فجأة، ولم يبق ماثلا في ذهني إلا مبارزة سوف أقدم عليها

فـي فرانكفـورت!!"... وتذكر عمـة مخبولة من عماته كانـت تحب أن ترقص علـى نغمات أغنية هـذه كلماتها:

أقبل... أقبل...

أيها الملازم العزيز!

أقبل أيها الفارس... كن فارسي...

وجلجلـت ضحكاتـه، وأخـذ يترنـم علـى نحـو مـا كانـت تفعـل عمتـه المخبولـة:

أيها الملازم العزيز!

ارقص معي...

كن فارسي الصغير...

وقفز من مقعده وهو يقول لنفسه بصوت مسموع:

ـ ولكن لابد لي من مخرج. لابد من أن أجد الشاهد المطلوب.

وفـى هـذه اللحظـة وجـد پانتاليونـى واقفًـا أمامـه، ممسـكا بورقـة مطويـة، وقبـل أن يسـأله عمـا أتى بـه تقدم إليه الشـيخ، وتمتـم وهو يقدم إليـه الورقة.

ـ طرقـت البـاب عـدة مـرات دون أن يجيبنـي أحـد، فخيـل إلـيَّ أنـك خرجـت... هـذه رسـالة مـن الآنسـة چيمـا.

تنـاول سـانين الورقـة بحركـة آليـة، وفـض غلافهـا، وأجـرى عينيـه على أسـطرها. لقد قالت له چيما في الرسـالة إن المسـألة التي لا يجهلها تقلقها قلقًـا شـديدًا، وإنهـا لذلـك تريـد أن تراه علـى الفور.

وطفق پانتاليونى يقول، وقد ظهر أنه لا يجهل فحوى الرسالة:

ـ إن الآنسـة... الـ "سـنيوريتا" مضطربـة مهمومـة. وقـد طلبـت إلى أن أحضـر لأرى مـا أنـت صانـع، ولأعـود بـك إليها.

ونظـر سـانين إلى الشـيخ الإيطالي، مسـتغرقًا في التفكيـر. وأومض في ذهنـه خاطـر فجائـي بـدا لـه فـي أول الأمـر مسـتحيل التحقيـق. ولكنه عاد فسـأل نفسه:

ـ ولكن... لم لا؟؟.

ثم خاطب الشيخ بصوت عال:

ـ أيها السيد پانتاليونى!

وجفـل الرجـل، وغـرس ذقنـه فـي ربـاط عنقـه، وحملـق فـي سـانين الـذي واصـل قولـه:

لابد أنك تعلم ما حدث أمس.

وتحركت شفتا الشيخ، وضرب جبهته العريضة بيده وتمتم:

ـ نعم...

وكان إميـل قـد أفضـى إليه بكل ما حـدث على أثر عودته مـن الرحلة. واستطرد سانين

آه! أتعلـم ذلـك... حسـنًا. لقد حضر ضابط اليوم ودعانـي إلى المبارزة، وقبلـت تحديـه... ولكنـى المبـارزة تحتاج إلى شـاهد كما تعلـم... أتقبل أن تكون شاهدي؟

وأخذ پانتاليونى بهذا العرض. وارتفع حاجباه حتى تواريا وراء

طرتـه المتدليـة مـن ناصيتـه العريضـة. وبعد برهـة ذهول اسـتطاع أن يقـول بالإيطاليـة (وكان قبـل ذلك يتحـدث بالفرنسـية... وأية فرنسـية!!):

ـ ألا مفر من أن تقاتله؟...

ـ لا مفر. إذ لو أحجمت عن مقاتلته للحقنى عار لا يمحى.

ـ هيـه... وهـل سـتبحث عـن شـاهد آخـر فيمـا إذا رفضـت طلبـك؟...

ـ لا بد لي من ذلك... بالطبع.

وخفض پانتاليونى بصره وهو يقول:

ـ اسـمع لـي يسـيد سـانين "سـنيور زانينى" أن أسـألك عـن عقبى هذه المبـارزة... ألا تظـن أنهـا سـتنال من سـمعة فتـاة... معينة؟...

ـ لا أظـن ذلـك... ومهمـا يكـن الأمـر، فـلا مفـر من هـذه المبـارزة كما قلـت لك.

ـ هيه.

وازدادت ذقن الشيخ غوصًا في رباط عنقه وأردف:

ـ وأين ذلك الألماني النذل؟ "فيروفلوكتوكلوبيريو" ماذا عنه؟...

ـ هو؟... لا شيء.

وهز پانتاليونى كتفيه باحتقار:

ـ ماذا؟!... على أية حال فأنا أشعر بأن من واجبى أن أشكرك.

وصمت قليلا، ثم أردف بصوت مضطرب:

ـ نعم أشكرك على معاملتك لي، وأنا في وضعي الراهن المهين، كما لو كنت سيدًا محترمًا. "أونو جالانتومو". وهذه اللفتة منك تدل على أنك أنت السيد المحترم بحق غير أنى رغم ذلك مضطر إلى التفكير فيما عرضته على قبل إبداء رأيي فيه.

ـ ولكن الوقت لا يتسع للتفكير يا سيد پانتاليونى سبيد... سيبا. وأكمل الشيخ اسمه.

ـ تولا... سيبا تولا. بيد أن المهلة التي أطلبها لا تتعدى ساعة أو بعض ساعة... فإن الأمر يمس ابنة أولياء نعمتي ولابد لذلك من أن أطيل التفكير... أنا مضطر... بيد أنك ستقف على رأيي في مدى ساعة، أو ثلاثة أرباع الساعة.

ـ حسنًا. سأنتظر.

ـ والآن؟ أي رد سأحمله للسينيوريتا چيما؟...

والتقط سانين صفحة من الورق وخط فيها الكلمات الآتية:

"لا تقلقي يا صديقتي العزيزة. سأوافيك بعد ثلاث ساعات، وسأفضى إليك وقتئذ بأخبار ما حدث. وأشكرك على عطفك". وبعد انتهائه من كتابة هذه الرسالة سلمها لپانتاليونى الذي أطبقها بحرص، ووضعها في جيبه الجانبي، وتوجه إلى باب الغرفة وهو يقول:

ـ في مدى ساعة.

ولكنه ارتد فجأة، واتجه مسرعًا إلى سانين، وأمسك بيده، وشد عليها في حرارة وصاح:

ـ أيها الشاب النبيل! أيها القلب الكبير! اسمح لرجل ضعيف هرم. "آ أون ڤيكيوتو" أن يشد على يدك الجبارة: "لاڤوترا ڤالوروزا ديسترا".

وقفز خطوة إلى الوراء، ورفع يديه إلى أعلى. ثم توارى خلف الباب.

وتبعه سانين بنظره. ثم عاد فالتقط إحدى الصحف وحاول تصفحها، ولكن عينيه جرتا فوق الأسطر عبثا، فهو لم يفهم كلمة مما قرأ.

دخل الخادم على سانين بعد ساعة. وناوله هذه المرة بطاقة قديمة غير مزيفة كتب عليها: "پانتاليونى سيباتولا من بلدة ڤاريزى مغنى بلاط صاحب السمو دوق مودينا". وظهر پانتاليونى في أعقاب الخادم... ظهر في زي يختلف كل الاختلاف عن زيه العادي. فقد كان يرتدى سترة سوداء طويلة الذيل، وصدارًا أبيض تتدلى من جيبه سلسلة نحاسية متقنة الطلاء، وسروالا أسود مشدودًا بنطاق ذي قفل من عقيق. وكان يمسك بيده اليمنى قبعة مكسوة بوبر الأرانب، وبيده اليسرى قفازا من صنع السويد، وقد اختار رباطا لعنقه أطول وأعرض من سابقه، وثبته بدبوس، في رأسه حلية كعين القط، وزين إصبعه الوسطى بخاتم على هيئة يدين ممسُكتين بقلب طعين. وكانت ملابسه هذه تفوح برائحة كريهة كرائحة مزيج من الكافور والمسك. فياله من وقار مضطرب لا يستطيع من ينظر إليه أن يمنع نفسه من الدهشة... وقام سانين لاستقبال زائره العجيب.

قال پانتاليونى بالفرنسية:

أنا شاهدك.

وانحنى بجسمه الأعلى حتى وسطه. وانفرجت قدماه من أمام كما يفعل الراقصون، وأردف بلهجة جادة.

ـ جئت أتلقى تعليماتك. أتنوى مواصلة القتال حتى الموت؟...

ـ ولـم أواصلـة حتى هـذه النهاية المريرة يا سـيد سـيباتولا؟ أنا لا أنوي أن أسـحب مـا قلتـه لذلـك الضابـط، ولكنى لسـت مع ذلـك سـفاحًا. صبرًا يا سـيدي، فسـيأتي شـاهد خصمـي عمـا قريـب. وسـأخلى لكمـا هـذه الغرفة حتـى تتفقـا علـى شـروط المبـارزة. وثـق أننـي لـن أنسـى خدماتـك أبـدًا، وشـكرا لك مـن صميـم قلبي.

وأجاب پانتاليونى

ـ الشرف فوق كل شيء.

وجلـس فـي المقعـد الوثيـر دون أن ينتظر مـن سـانين أن يعرض عليه ذلـك وأردف وهـو يمـزج في حديثه بيـن الفرنسـية والإيطالية:

إذا كان هـذا الألمانـي النـذل: "ال فيروفلوكتـو سـپيكيبوبيو"... إذا كان هـذا الأُلعبـان لا يعـرف واجبـه، أو إذا كان جبانًـا، فالذنـب ذنبـه، والعقبـى السـيئة لـه. إنـه مخلـوق عاطـل مـن كل ميـزة أو قيمـة... هـذا كل مـا فـي الأمـر... أمـا عـن شـروط المبـارزة فمـن واجبـى، بصفتـي شـاهدك، أن أعـد مصلحتـك مقدسـة... وأذكـر أننـي عندمـا كنـت أقيم في پـادوا نشـأت أُلفة بينـي وبيـن بعـض ضبـاط فرقة عسـكرية كانت مرابطـة هناك. وقـد عرفت منهـم قواعـد الشـرف في المبـارزات... وكثيرًا ما ناقشـت الأمير تاربوسـكى: "پرنسـيپى تاربوسـكى" في هذا الموضوع... متى سـيحضر ذلك الشـاهد؟...

ـ أنا أتوقع مجيئه بين لحظة وأخرى.

ثم أردف وهو يطل من النافذة:

ـ ها هو ذا آت.

ووقف پانتاليونى، ونظر في ساعته، وشد صدارة. ورفع بسرعة رباط جوربه الذي كان قد تدلى إلى قدمه. ودخل الضابط الشاب "ڤون ريختر" وكان لا يزال محتقن الوجه مرتبكًا، وقدم سانين الاثنين أحدهما للأخر قائلا بالفرنسية:

ـ مسيو ريختر الملازم الثاني، والسنيور زيباتولا الفنان...

وظهرت الدهشة على وجه الملازم الثاني عندما وقع بصره على پانتاليونى وكم كانت هذه الدهشة تتضاعف لو أن أحدًا من الناس همس في أذن ذلك الضابط أن الفنان الذي قدم إليه يجيد كذلك فن الطبخ!! بيد أن پانتاليونى حاول أن يظهر بمظهر من اعتاد المبارزات. ولا شك أن ذكريات خبرته القديمة على المسرح أسعفته، فقام بتمثيل دور الشاهد كما لو كان على خشبة المسرح فعلا. وساد الصمت برهة حتى قطعه پانتاليونى وهو يلعب بطرف حزامه.
ـ هلا بدأنا؟...

وأجاب الملازم الثاني:

ـ بالتأكيد... ولكن... إن وجود أحد المتبارزين...

وصاح سانين:

ـ سأترككم وحدكم أيها السادة...

وانحنـى، ثـم انسـحب إلى الغرفـة الداخلية وأغلـق وراءه البـاب. وتمدد علـى فراشـه مفكـرًا فـي چيمـا. ولكـن الحديـث الـذي كان يـدور فـي الغرفـة الأخـرى تسـرب إليـه مـن خـلال البـاب المغلـق. كان الشـاهدان يتحدثـان بالفرنسـية، واشـترك كلاهمـا فـي قتـل تلـك اللغـة العذبـة، وإن كان كل منهما قـد قتلهـا علـى طريقتـه. وأقحـم پانتاليونى من جديـد حكاية ضبـاط الحامية المعسـكرة فـي پـادوا، والأمير تاربوسـكى. وتحـدث الملازم الثانـي عن "كلمة الاعتـذار الرقيقـة" و "تبـادل النـار بطريقـة وديـة". ولكـن الشـيخ الهـرم رفض فكـرة "الاعتـذار". وهـال سـانين أن يجـده قـد عرج فـي حديثه علـى موضوع الشـرف، وعلـى الغـادة البريئـة المعرضـة للفضيحة. تلـك الغادة التي يسـاوى ظفـر إصبعهـا رجـال العالـم أجمعيـن. وظـل يكـرر هـذا القـول ويصيـح: "يـا للعـار!... يـا للعـار!... أونـا أونتـا! أونا أونتـا!" ولم يعـر الضابط هـذه العبارات فـي أول الأمـر انتباهـا، ولكـن نبـرات صوتـه دلـت بعـد ذلك علـى أن الغضب أخـذ يتمكـن منـه. وقـال فـي النهايـة مغضبًا إنه لم يأت ليسـتمع إلـى مواعظ پانتاليونـى فأجاب الشـيخ:

ـ ولكن من كان في مثل سنك يستفيد من سماع كلمة حق.

وظـل الحديـث الدائـر بيـن الشـاهدين المحترميـن يتقد حماسـة بين حيـن وآخـر، وطـال أكثر من سـاعة ثـم اتفق الطرفـان على الشـروط الآتية:

"يتقابل البارون ڤون دونهوف ومسيو دى سانين في الساعة العاشرة من الصباح التالى في الغابة الصغيرة المجاورة لبلدة هانو. ويقف كل منهما عند إطلاق النار على بعد عشرين قدما من الآخر. ولكل منهما أن يطلق طلقتين من غدارته على أن تكون الغدارة ذات زناد واحد".

وانصرف ڤون ريختر. ودخل پانتاليونى على سانين غرفة نومه ليبلغه نتيجة ذلك النقاش. وصاح إذ وقعت عينه عليه:

ـ مرحى أيها الروسي! مرحى أيها السيد الكريم! سيكتب النصر لك أنت!

وبعد لحظات اتخذا الطريق إلى دكان روزيللى. وطلب سانين إلى پانتاليونى أن يعده بكتمان أمر المبارزة على الجميع. وانحصرت إجابة الشيخ في رفع إصبعه إلى فمه مكررا كلمة: "سر!. سر!". "سجردزا... سجردزا". وبدا كأنه أصبح أصغر سنًا، إذ نشطت حركته، وخفت خطواته.

لقد أحيت له هذه الأحداث الغريبة ذكريات الماضي، وأرجعته إلى تلك الأيام التي كان يتحدى فيها الخصوم، ويشتبك معهم في أعنف المبارزات على خشبة المسرح طبعًا... إن أولئك المغنين مغرمون دائما بالتظاهر... والزهور والخيلاء.

ـ 19 ـ

خـرج إميـل إلى الشـارع عـدوا لاسـتقبال سـانين، وكان يترقـب وصوله منـذ مـدة، وهمـس فـي أذنـه لاهثـا أن أمه لا تـدري شـيئًا مما حـدث، وأنه يجـب ألا تقـال كلمـة أمامها تكشـف السـتر عنه. ثم قال إنهم أرسـلوه اليوم كذلـك إلـى المتجـر للمرانة علـى البيع... ولكنـه لا ينوى الذهـاب، وإن كان سـيتظاهر بالإذعـان، وسـيحتجب لذلـك بعـض الوقـت. قـال ذلـك كلـه فـي لحظـة، ثـم شـب والتصق بكتـف سـانين، وقبله بحـرارة قبـل أن ينطلق في الشارع.

كانـت چيمـا داخـل الـدكان فـي اسـتقبال سـانين. وأرادت أن تقـول شـيئًا ولكـن لسـانها خانها... كانت شـفتاها ترتجفـان، وعيناها تـدوران يمنة ويسـرة بيـن جفنيـن ضيقيـن. وبـادر سـانين إلـى تهدئـة روعهـا، وأكـد أن المسـألة هينـة، وأنهـا انتهـت إلـى... لا شـيء. فسـألته عندئـذ:

ـ ألم يطرق بابك أحد اليوم؟

ـ نعـم، جاءنـي زائـر، ودارت بيننـا مناقشـة حـول ذلـك الموضـوع... وتمكننـا مـن تسـوية المشـكل علـى خيـر وجـه.

وانثنت چيما ووقفت وراء المنصة. وقال سانين لنفسه:

ـ يبدو أنها لم تصدقني.

ولكنه تركها مع ذلك وانتقل إلى الغرفة الداخلية حيث وجد فراو لينور.

كان صداعها أخف وطأة من أمس ولكنها بدت كاسفة البال. وابتسمت لسانين ابتسامة ودية، وحذرته في نفس الوقت من أن صحبتها لن تكون سارة في ذلك اليوم، وأنها لن تستطيع إيناسه، ولاحظ وهو يجلس إلى جانبها أن جفنيها محمران ومنتفخان فسألها:

ـ ماذا بك يا سيدي؟... لا أحسب أنك كنت تبكين!!

فهمست وهي تشير إلى الباب الذي يفصلها عن چيما:

ـ صه... لا تقل هذا... بمثل ذلك الصوت العالي.

ـ ولكن، ما داعي البكاء؟

ـ آه يا سيد سانين... أنا نفسي أجهل ذلك.

ـ أجرح أحد شعورك؟

ـ لا، لا... لقد باغتتني الكآبة... لقد تذكرت جوفان باتيستا... وشبابي. وارتعبت لسرعة مرور الزمن. لقد تقدمت بي السن يا صديقي ولم أستطع قط أن أتعود هذه الفكرة. فأنا أشعر بأني لا أزال كما كنت فيما مضى. مع أن السن قد تقدمت بي. هذا ما في الأمر.

وطفرت الدموع من عيني السيدة وهي تستطرد:

ـ أرى أنك تنظر إلى مندهشًا! ولكن السن ستتقدم بك سريعًا أنت أيضا. وستعرف عندئذ أية مرارة يعانيها الإنسان في هذه الحالة.

وحاول سانين أن يواسيها، فلفت نظرها إلى ولديها، وقال إنها تجدد شبابها فيهما. ثم حاول كذلك أن يفاكهها فزعم أنها تَدعى تقدم السن لتستدرجه إلى امتداح جمالها. ولكنها استوقفته في جد، طالبة منه أن يكف عن مثل هذا القول. وأدرك لأول مرة في حياته مدى البؤس الذي يعانيه من يشعر بتقدم سنه. وأدرك كذلك أن مثل هذا البؤس يستعصي على كل تطييب خاطر ومواساة، وأن علاجه الوحيد هو تركه للزمن السخي بالنسيان:

اقترح عليها أن يلعبا الورق بعد أن أعيته أيه حيلة أخرى، فرحبت باقتراحه، وظهرت عليها بوادر الانتعاش.

لاعبها سانين الورق حتى أوان الغذاء، ثم استأنفا اللعب كذلك بعد الغداء، واشترك پانتاليونى معهما فيه. ولم تتدل طرته على غرته مثلما تدلت في ذلك اليوم، ولم تنكمش ذقنه كذلك وراء رباط عنقه مثلما انكمشت حينذاك: وكانت الصرامة تشوب كل حركة من حركاته المتوترة إلى حد يدعو من يراه إلى التساؤل "أي سر تنطوي عليه جوانح هذا الرجل؟!".

ولكن السر!... السر!... "سيجريدزا!... سيجريدزا!..."

ولجأ طوال نهاره إلى كل وسيلة ليؤكد احترامه العميق لسانين، فأقبل عليه في رزانة والجمع حول مائدة الغداء، وقدم إليه الطعام قبل السيدتين. وحاباه أثناء لعب الورق: وظل يردد قوله "إن الروس أشد أهل الأرض عزيمة وبأسًا وفروسية".

وقال سانين لنفسه:

ـ بل أشدهم مواربة!...

ولم يدهش سانين لحالة السيدة روزيللى المعنوية غير المتوقعة بقدر ما دهش للمعاملة الغريبة التي كانت ابنتها تعامله بها. ولا يرجع ذلك إلى أنها كانت تتحاشاه... لا، فإن الذي حدث كان على عكس ذلك تمامًا. فقد حرصت على الجلوس إلى جانبه أغلب الوقت. وكانت تهتم بحديثه، ولم تحول نظرها عنه أثناء كلامه. ولكنها كانت تتحاشى الخوض معه في أية مناقشة. بل إنها كانت تغادر مكانها، وتتغيب لبضع دقائق كلما وجه إليها الحديث، وتعود ثانية، وتنزوي في ركن من الغرفة، وتبدو كأنها تفكر وتتعجب... وأغلب الظن أنها كانت تتعجب. ولاحظت فراو لينور في النهاية تصرف ابنتها، وسألتها مرة أو مرتين عما بها. فأجابتها ابنتها:

ـ لا شيء... وأنت أدرى بأن مثل هذه الحالة تنتابني كثيرًا.

ووافقتها أمها قائلة:

ـ هذا صحيح.

وطال اليوم وهو يمر على هذا المنوال. فالنشاط لم يدب فيه، ولكنه لم يكن مع ذلك فاترا... ولو أن چيما لم تعامل سانين مثل تلك المعاملة لما استطاع أن يقاوم ميله إلى التباهي بنفسه، أو لاستسلم لتلك الكآبة التي تخيم على ليلة الوداع التي قد لا يعقبها لقاء... ولكنه عندما تعذر عليه التحدث إلى چيما انتهز فرصة الفترة السابقة على تقديم القهوة، وقام إلى البيانو، وعزف عليه بعض المقطوعات.

وعاد إميل في ساعة متأخرة، وانسحب مسرعًا إلى غرفته ليتحاشى الأسئلة التي يمكن أن توجه اليه عن هركلوبر. وحان وقت رحيل سانين.

وأقبل على چيما يودعها ولأمر ما تذكر وداع لينسكى للفتاة أو لجا في قصة أو چين أو نجن. (تأليف بوشكين) وضغط يدها وهو يحاول أن ينظر في عينيها، ولكنها أشاحت عنه بلطف، وتملصت يدها من يده.

- 20 -

عندما وصل سانين إلى عتبة الباب الخارجي كانت النجوم قد أشرقت جميعها... ويا لها من مجموعة لا عداد لها!... بعضها كبير والآخر صغير!... وبعضها أزرق... وبعضها أحمر أو أصفر أو أبيض!!... بيد أنها كانت جميعها تلمع وتتألق وتومض دون انقطاع. ولم يظهر القمر، ولكن كل شيء كان يبدو، رغم غيابه، واضحًا في غبش المساء. وواصل سانين سيره حتى وصل إلى آخر الشارع، فلم يكن يشعر برغبة في العودة إلى داره، وكل ما كان يرغب فيه أن يهيم على وجهه بغير هدف، مستمتعا بعبير الهواء النقي.

وعاد أدراجه بعد طول التجوال، ولكنه ما كاد يمر بحانوت الحلوى حتى انفتحت منه نافذة تطل على الشارع محدثة صوتا امتد حتى الميدان الصغير المقفر. وظهر من خلفها وجه سيدة غير واضح القسمات لأن غرفة النافذة كانت مظلمة. وتردد صوت ينادى:

ـ مسيو ديمترى!...

وجرى صوب النافذة محدقًا فيها... لقد كانت چيما تناديه...

وجدها حينذاك مرتكنة إلى قاعدة النافذة، مائلة إلى خارجها، وقالت في احتراس عندما اقترب منها:

ـ يا مسيو ديمترى... حاولت طول النهار أن أعطيك شيئًا حفظته لك... ولكن ترددي حال دون ذلك. أما وقد رأيتك الآن أمامي فجأة فلابد أن القدر قضى أن أعطيك هذا الشيء...

واضطرت چيما في هذه اللحظة أن تتوقف عن الكلام. فقد وقع ما حال دون استمرارها فيه... حدث ما يندر حدوثه، فمن أعماق السكون، وتحت سماء هادئة صافية، هبت على غرة عاصفة هوجاء بلغ من عنفها أن الأرض كادت تتزلزل... اصفرت النجوم وارتجفت، ودار الهواء في دوامات متلاحقة ساخنة لافحة تصدم الأشجار وجدران البيوت وأسطحها. وقد أطاحت بقبعة سانين فيما أطاحت به. وعبثت بشعر چيما حتى أشاعت فيه الفوضى. وكان رأس سانين يكاد يلامس أسفل النافذة الوطيئة، فقد التصق وقتذاك بالحائط محتميا فيها، فانحنت عليه چيما وقد تملكها الرعب، وأمسكت كتفيه بكلتا يديها، والتصق صدرها بناصيته، ولكن العاصفة لم تستمر إلا دقيقة واحدة انقشعت بعدها كأنها سرب هائل من الطير مر بالمكان مرورًا... لقد استنفدت قوتها المركزة دفعة واحدة... وعاد السكون يرنق على المكان مرة أخرى.

رفع سانين عينيه، وتطلع إلى وجه ما أجمله!... وما أنقذ وقع الألم والانزعاج الباديين عليه!!... تطلع إلى عينين ما أوسعهما!... وما أبدعهما!... وما أنفذ الشجن الذي تبثانه!!... تجلى له هذا

الحسـن خلابـا يـا سـاحرا إلـى حـد أن قلبـه كاد يكـف برهـة عـن خفقانـه. وأمسـك خصلـة مـن شـعرها الحريـري تدلت على صـدره، فضمهـا إلى ثغره وقبلهـا، وكان علـى وشـك أن يصيح:

- آه يا چيما!...

وسألت الفتاة وهي تسرح بصرها في الفضاء تاركة يديها على كتفيه:

- ماذا حدث؟... أكان وميض برق؟...

فصاح سانين عندئذ:

- چيما!...

فصعـدت زفـرة طويلـة، ودارت إلـى داخـل الغرفة. ثم عـادت فأنزعت فـي سـرعة خاطفـة وردة ذابلـة كانـت مشـبوكة في ثوبهـا، وألقت بهـا إليه قائلة:

- كنت أريد أن أعطيك هذه الوردة.

وعرف سانين الوردة التي استردها من الضابط في اليوم السابق.

وانصفـق مصراعـًا النافـذة علـى الفـور. ولـم يظهـر شـيء وراءهما، بل لـم ينعكـس علـى زجاجهما حتـى لـون رداء چيمـا الأبيض.

وعاد سانين إلى فندقه عاري الرأس... ولم يلحظ أنه فقد قبعته.

- 21 -

لـم يستسـلم للنـوم إلا قـرب الصبـاح، ولا عجـب! فإنه لم يشـعر، وهو لا يـزال متأثـرًا بهـول العاصفـة الصيفيـة المفاجئـة، بـأن چيما جميلـة؛ وبأن جاذبيتهـا خارقـة للعـادة – لـم يشـعر بذلك، لأنـه كان على علم سـابق بـه...

ولكـن الجديـد الـذي شـعر بـه هـو... أنه وقـع في حبائـل حبهـا... لقد دهمـه الحـب فجـأة كمـا دهمتـه تلـك العاصفـة المفاجئـة... والآن، تلـك المبـارزة السـخيفة!... واسـتبدت بـه هواجـس ملؤها التشـاؤم. وظل يسـأل نفسـه عما سـينتهي إليـه أمر حبه لهذه الفتـاة فيما إذا نجا مـن المبارزة!... أليسـت مخطوبـة لغيـره؟ وفـي الحقيقـة إن هـذا الخطيـب ليـس منافسًـا خطيـرًا فـي حبهـا، فقـد تتحـول عنـه إليـه هـو. (أي إلـى سـانين) بـل قـد يكـون حبـه تمكـن منهـا بالفعـل!!. ولكـن... ومـاذا بعـد كل ذلـك؟ مـا هي النتيجـة؟!. يـا لـه مـن سـؤال؟! ألا تتميـز الفتـاة بذلـك الحسـن الرائـع!!..

سـار فـي غرفتـه طـولا وعرضًـا، ثـم جلـس إلـى المائـدة، وتنـاول ورقة خـط بهـا بضعـة أسـطر ووضعهـا فـي غـلاف... وعـاد يفكـر فـي چيمـا... فـي وجههـا المتجلـي فـي إطـار النافـذة المظلمـة عاكسًـا ضـوء النجـوم المتلألئـة... وفـي ذراعيهـا الشـبيهتين بذراعـي تمثـال إلهـة إغريقيـة...

وشـعر بهمـا تتكئـان بخفـة على كتفـه... ثم تناول الـوردة التـي ألقت چيما بهـا إليـه مـن نافذتهـا. وخيل إليـه أن أوراقهـا الذابلة تفوح برائحـة أرق من الوردة اليانعة وسـأل نفسـه:

"وماذا لو قتلت غدا... أو كسر أحد أضلاعي؟!".

ولـم يـأو إلى فراشـه. ولكـن النوم فاجـأه وهو جالس علـى المقعد في كامل كسوته.

***

وشعر بيد تهز كتفه...

وفتح عينيه فوجد پانتاليونى أمامه، وسمعه يقول:

ـ إنـه ينـام نومـة الإسـكندر الأكبـر فـي الليلـة السـابقة علـى معركـة بابـل...

وسأله سانين:

ـ ولكن كم الساعة الآن؟

ـ تقتـرب مـن السـابعة، والانتقـال إلـى هانو يسـتغرق سـاعتين. ولا بد لنـا أن نصـل إلـى هنـاك قبلهم. إن الـروس يسـبقون أعداءهم إلـى المعركة دائمًـا، وقـد جئـت لك بأحسـن عربة فـي فرانكفـورت كلها.

وشرع سانين في الاغتسال وهو يسأل:

ـ وأين الغدارة؟

ـ سيأتي بها ذلك الألماني النذل "فيروفلوكتو تيديمسكو". وسيأتي بطبيب كذلك.

وظهر في وضوح أن پانتاليونى حاول أن يحتفظ بالحيوية التي ظهر بها أمس. ولكنه ما كاد يجلس في العربة إلى جانب سانين، وما ألهب السائق ظهر الجوادين، فانطلقا خببا، حتى طرأ تغير واضح على "صديق الضابط في حامية بادوا"! لقد ظهر عليه الانزعاج والانفعال حتى لكأن شيئًا بداخله قد انهار كما تنهار الحائط المتآكلة. وظل يردد قوله بصوت مرتجف.

ـ ما هذا الذي نفعله؟... يا إلهي!... "سانتسيما مادونا!". ووشج أصابعه في جذور شعره وأردف:

ـ ما هذا الذي أفعله؟... ما أنا إلا هرم مجنون "فرينيتكو". وفوجئ سانين بهذا القول وطفق يضحك، ثم طوق خصر الشيخ بذراعه وقال بالفرنسية:

ـ ما دمنا فتحنا زجاجة النبيذ فلابد أن نشربها.

وأجاب الشيخ:

ـ نعم، نعم. سيشرب كل منا الكأس حتى الثمالة، ولكنى مع ذلك مجنون... نعم. أنا مجنون... كم كانت الحياة من قبل جميلة هادئة!!. والأن... "تا تا تا ترا تا تا!"

وعلق سانين على ذلك بقوله:

ـ تمامًا كما تعزف الأوركسترا مقطوعة "توتى".

وضحك ضحكة مغتصبة وأردف:

ـ ولكن الذنب ليس ذنبك.

ـ أعرف ذلك. بل أرجوه. ولكن الأمر وقع مع ذلك في سرعة وتهور... الشيطان!... الشيطان!... "دياڤولو!... دياڤولو!..."

وأخذ الشيخ يلطم جبهته بيده ويتنهد. وظلت العربة تطوى الطريق... وتطويه.

***

كان اليوم رائعًا. وبدت الشوارع أنيقة نظيفة قبل أن تستيقظ المدينة، وأومضت نوافذ البيوت كالورق المفضض. وعندما تجاوزت العربة أبواب المدينة ترددت زقزقة الطيور في عرض السماء التي كان لونها لا يزال أزرق باهتًا. وفي منعطف من منعطفات الطريق ظهر لسانين من وراء الشجر وجه مألوف لديه. وتقدم صاحب هذا الوجه صوب العربة، ووقف أمام سانين... رباه!!. إنه إميل.

والتفت سانين إلى پانتاليونى وسأله:

ـ ما هذا؟ أهو ملم بما يحدث؟

وتأوه الإيطالي المسكين، وقال بصوت مرتجف تتخلله ولولة القنوط:

ـ ألـم أقـل لـك أنى مجنـون؟ لقد ظل ذلك الشـقي يعكـر صفوي طوال الليـل. وفي الصباح انطلق لسـاني...

وقال سانين لنفسه:

ـ أهكذا يكتم السر؟ "سيجريدزا؟ ".

وأمـر سـانين السـائق أن يوقـف العربـة عندمـا وصلـت إلـى إميـل. وطلـب إلـى "ذلك الشـقي" أن يقترب، وتقدم إميل بخطـوات مترنحة، وكان ممتقـع الوجـه علـى نحـو ما كان عليه يـوم أصيب بالنوبة القلبيـة. ولم يكد يقـوى علـى الوقوف.

وسأله سانين مقطبًا:

ـ ماذا تفعل هنا؟... لماذا غادرت دارك؟

وأجاب إميل مستعطفًا:

ـ دعني أذهب معك.

ثـم أضـاف بصـوت مرتجـف وقـد اشـتبكت يـداه علـى هيئـة توسـل، واصطكـت أسـنانه كمـا لـو كان مصابًـا بالحمـى:

ـ لـن أتدخـل فيمـا سـيحدث... خذنـي معـك. لا مطلـب لـي إلا أن تأخذنـي معـك.

فقال سانين:

ـ إذا كنت تَكِن لي أقل حب وتقدير فعد إلى دارك في الحال. أو اذهب إلى الهركلوبر، والزم الصمت فلا تبح بكلمة لأحد، وانتظر عودتي.

وأجاب الصبي بصوت متهدج يشبه الحشرجة،

ـ عودتك!... وإذا كنت لن...

وقال سانين وهو يشير إلى السائق بالاستعداد لمواصلة السير:

ـ إميل!... تمالك جأشك... عد إلى الدار يا إميل... أتوسل إليك... اسمع يا صديقي... أنت لا تفتأ تقول إنك تحبني، فإن كنت صادقًا فيما تقول فعد أدراجك إرضاء لي.

ومد إلى إميل يده ليحييه، فقفز الصبي إلى الأمام وهو يصعد الزفير، ومال على اليد الممدودة فقبلها. ثم أخلى الطريق وجرى مخترقًا الحقول إلى فرانكفورت. وشيعه الشيخ الهرم بعينه وهو يغمغم.

ـ قلب نبيل آخر...

ولكن سانين رمقه بنظره عابسًا، فانزوى الشيخ في ركن المقعد شاعرًا بخطئه... ولم يلبث أن استغرق في التفكير. وتزايد عجبه لحظة بعد أخرى أيمكن أن يكون هو... القائم "فعلا" بدور شاهد في مبارزة؟ وهو الذي استأجر العربة؟... وأعد كل شيء؟... وفارق

فراشه الهادئ المريح في السادسة صباحًا؟!... والأنكى من كل هذا أن ساقيه تؤلمانه أشد الألم!...

وعاد سانين فأشفق عليه، وشعر بضرورة الترفيه عنه، وبحث عن العبارات التي تضرب على الوتر الحساس، فوجدها مواتية مطواعة... قال له:

ـ أين روحك المعنوية السالفة يا سيد سيباتولا النبيل؟!... أين البأس القديم؟!...

واعتدل السنيور سيباتولا، وصاح بصوت عميق:

البآس القديم...؟ إنه لم يتبدد عن آخره، فما زالت منه بقية. "إل أنتيكوفالور".

ونصب جسمه ثانية، وتدفق حديثه عن حرفته... عن الأوبرا... وجارسيا العظيم. وعندما وصلت العربة إلى هانو كان الشيخ قد تحول إلى رجل آخر. ويستطيع من يفكر في هذا أن يدرك مدى مفعول "الكلمة". فما من قوة في الأرض أخطر منها أثرًا... وما من شيء في الأرض أضعف منها وأهون!...

ـ 22 ـ

كانـت الغابـة التي سـتجرى فيهـا المبارزة علـى بعد ثلاثة أربـاع الميل مـن هانـو. ووصـل سـانين وپانتاليونى قبـل غيرهما كمـا توقع هـذا الأخير. وطلبـا إلـى سـائق العربـة أن ينتظرهمـا على حـدود الغابة. وغاصـا في ظل شـجر ظليـل. وانتظرا مجـيء الآخرين حوالي سـاعة.

لـم يجـد سـانين الانتظـار ممـلا. فقـد أزجـى الوقـت فـي قطـع طريق الغابـة الضيـق ذهابًـا وإيابًـا منصتًـا إلـى تغريـد الطيـور. ومتتبعـا طيرانهـا. وحـاول كغيـره من الـروس الذين يواجهـون مثل موقفه، ألا يفكـر في الأمر. ولكنـه وقـع فـي هذا المحظور إذا صادف في طريقه شـجرة زيزفون صغيرة اقتلعتهـا عاصفـة أمـس، ودب فيهـا الفنـاء وأنضـب عودهـا، وأذبـل أوراقها. وأومـض حينـذاك فـي ذهـن سـانين خاطـر مشـؤوم: "مـا هـذا؟ أيكـون فألاً سـيئًا؟" ولكـن لـم تمـر دقيقـة على ذلـك الخاطر حتـى عاود الشـاب مرحه، وواصـل تمشـيه، ولـم يحجم عـن تخطـى الشـجرة المقتلعة كلمـا اعترضت طريقـه فـي ذهابـه وإيابـه، أما پانتاليونـى فكان على عكـس زميله، لا يكف عـن التأفف، وسـب الألمـان الملاعين، والسـعال وحك ظهـره وركبتيه. وكان لشـدة انفعالـه يتثـاءب علـى التوالـي فيرسـم تثاؤبـه علـى وجهـه الصغيـر أشـكالا مضحكـة. رآه سـانين علـى تلـك الحال فـكاد ينفجـر ضاحكًا.

ووصل إلى آذانهما أخيرًا صوت عجلات تدور على الطريق الناعم.

وصاح پانتاليونى:

ـ ها هم أولاء قادمون.

وانتصب واقفًا مرهفا السمع، شاعرًا بانفعال عصبي بادر إلى إخفائه برعشة مفتعلة عبر عنها بذلك الصوت "ب ر ر ر". وزعم أن برد الصباح قارس. وفي الحق أن الندى كان يبلل الحشائش وأوراق الشجر وقتذاك، ولكن لفحة من حر الصيف كانت قد أخذت تتغلغل إلى صميم الغابة.

وظهر ضابطان في ظل الشجر مقبلين عن بُعد، يرافقهما رجل ربع القامة، متراخي الحركة، كأن النعاس يداعبه تبين أنه طبيب الفرقة وكان يحمل إناء يطفح ماء، وحقيبة متدلية على كتفه اليسرى تحوي أدوات الجراحة وحوائجها، ولم يخف أنه اعتاد مثل هذه المغامرات التي كانت من أهم موارد دخله فإن كلا من المتبارزين كان عليه أن ينقده قدرًا معنيًا من المال واضطلع هرڤون ريختر بحمل صندوق السلاح، أما البارون ڤون دونهوف فكان يعبث أثناء سيره ببعض طيور صادها ولا شك أنه كان بعد ذلك غاية في الأناقة!!.

وهمس سانين في أذن الشيخ الهرم:

ـ پانتاليونى!!. إذا واتتنى منيتي، ولا شـيء مسـتحيل الحدوث، فسـتجد فـي جيـب سـترتى وردة ملفوفة فـي ورقة، ورجائـي أن تحملها إلى الآنسـة چيمـا... أسـمعني؟... أتعدني بتنفيـذ رغبتي هذه؟

وألقى الشـيخ على سـانين نظرة حزينة، وأومأ إيمـاءة تفيد الموافقة... ولكـن اللـه وحـده يعلم ما إذا كان قد فهم شـيئًا مما طلبه سـانين.

انحنـى فريقـا المبـارزة كل للآخـر طبقًـا للتقليـد المعـروف. ولـم يظل جامـدًا فـي هـذه الحالـة التي توترت فيهـا الأعصاب إلا الطبيـب الذي تمدد علـى الحشـائش وواصـل تثاؤبـه كأنمـا يقصـد أن يقـول: "لا داعـي للتظاهر بالعواطـف الكريمـة". وطلـب هوڤون ريختـر إلى هر "تشـيبا دولا" (يقصد پانتاليونـى سـيباتولا) أن يختـار مـكان تبـادل النـار. وجفـل هـذا الآخـر وقد انهـارت بيـن جوانحـه الخائـط المتآكلـة مـن جديـد وأجاب بصوت يشـوبه الانفعال:

ـ افعل ما بدالك يا سيدي العزيز، وسأتتبع ما يحدث.

وباشـر ڤـون ريختـر العمـل، ووجـد بعـد البحـث ممـرًا واسـعًا بيـن الأشـجار تُزينـه زهـور محيطـة بـه مـن كل ناحيـة. فشـرع يقيسـه، ويحـدد مـكان وقـوف المتبارزيـن بطـرف عصـاه المدبـب. ثـم أخـرج الغدارتيـن مـن صندوقهمـا. وجلـس القرفصـاء ليحشـوهما ومجمـل القـول إنـه بـذل قصاراه ليـؤدي عملـه علـى خيـر وجـه، وكان لا يكـف عـن تجفيـف

عرقه المتساقط بمنديل أبيض. وتتبع پانتاليونى كل حركة من حركاته عن قرب، وكان يبدو متخاذلا كمن أصيب "بنزلة شعبية". ووقف الخصمان في مكانين متباعدين. وكانا أشبه بتلميذين وقع عليهما أستاذهما عقابًا فأخذا ينظران إليه شزرًا.

وحانت الساعة الفاصلة...

وتناول كل من الخصمين غدارته...

ولكن هرڤون ريختر سارع فلفت نظر پانتاليونى إلى أن قواعد المبارزة تقتضي إسداء كلمة نصح أخيرة للمتبارزين، وحث لهما على إنهاء خلافهم قبل النطق بهذه الكلمات الثلاث المشؤومة "واحد... اثنان... ثلاثة!..." ورغم أن النصح في هذه الحالة ليس إلا إجراء شكليًا، فإنه يزيح عن كاهل السيد "تشيبا دولا" بعض المسئولية. وإذا كان شاهدا المتخاصمين لا يكلفان به، وإنما يكلف به واحد من الحاضرين غير متحيز لأحد الطرفين المتنازعين، فإن عدم حضور أحد لمشاهدة المبارزة حداه (أى ڤون ريختر) إلى الرضا بأن يتولى "هر تشيبا دولا" زميله الأكبر سنًا هذا الواجب. وكان پانتاليونى يحاول في تلك الآونة الاختباء وراء الأعشاب ليتحاشى رؤية اعتداء الضابط على سانين. فلما وجه إليه ڤون ريختر قوله المتقدم لم يفهم منه شيئًا أول الأمر (لا سيما وأن ذلك الضابط كان يتحدث بصوت خارج من أنفه). بيد أنه انتفض بعد برهة، وتقدم في حماسة، وضرب صدره بقبضة يده. وصاح خشن الصوت، معبرًا بلغته المختلطة المضحكة:

ـ "آلا لا لا ما هذه الوحشـية؟ "كي بيسـتياليتى؟" أيتقاتل هكذا شـابان فـي مثـل هذا الصبا؟... يا للشـيطان!... عـودًا إلى داركمـا... "أنداتى آكازا".

وسارع سانين إلى القول:

ـ أنا أرفض الصلح.

وتلاه خصمه قائلا.

ـ وأنا أرفضه كذلك.

وطلـب ڤـون ريختـر إلـى پانتاليونـى أن ينـادى معلنًـا بـدء القتـال: واحـد اثنـان ثلاثـة. " وتقهقر الشـيخ مذهولا، وغاص بين الأعشـاب متشـنج الأطـراف، زائـغ البصـر، مشـيحًا بوجهـه... ولكنـه صـرخ بأعلـى صوتـه: "أونا دووى تـرى!!. "

وأطلـق سـانين غدارتـه أولا، ولكنـه أخطـأ الرميـة. وأصابـت رصاصتـه جـذع شـجرة قريبـة مـن قدمـي خصمة محدثـة دويـا. وأعقبة البـارون ڤون دونهـوف بإطـلاق غدارتـه بـدوره، ولكنـه أنحـرف بهـا وصوبهـا إلـى الفضاء قصدًا.

وخيـم صمـت توترت فيه الأعصـاب... وجمد كل فـي مكانه. وانطلقت مـن صدر پانتاليونـى زفرة مكتومة

وسأل دونهوف خصمه:

ـ أترغب في مواصلة القتال؟

وأجاب سانين:

ـ لم صوبت طلقتك إلى الفضاء؟؟

ـ وما شأنك في هذا؟...

ـ أتنوى تكرار ذلك في الطلقة التالية؟

ـ ربما... فأنا لم أستقر بعد على رأى.

وصاح ڤون ريختر:

ـ أيها السادة!... أيها السادة!... تقضى أصول المبارزة ألا يتبادل الخصمان الكلام. لقد ارتكبتما خطأ فاحشًا...

قال سانين:

ـ أنا متنازل عن حقي في إطلاق النار.

وألقى بغدارته على الأرض.

وصاح ڤون دونهوف وهو يلقى بغدارته على الأرض كذلك:

ـ وأنا كذلك أود ألا أواصل المبارزة. وأضيف إلى ذلك أنى مستعد الآن للاعتراف بما ارتكبته من خطأ... في ذلك اليوم السالف.

ووقف برهة من الزمن مترددًا. ثم مديده في غير ثقة... ولكن سانين جرى إليه فصافحه. وتبادل الشابان النظر والابتسام، واصطبغت وجنتاهما بحمرة قانية.

وصاح پانتاليونى باندفاع جنوني.

ـ براڤى... براڤى...

وصفـق بيديـه وهـو يخـرج مـن بيـن العشـب مندفعًـا كالحمامـة المتعثـرة.

ووقـف الطبيـب الـذي كان جالسًـا على جذع شـجرة مقطوعـة. وأفرغ إنـاءه الممتلـئ مـاء؛ وتوجـه في كسـل إلى خـارج الغابة.

وصاح ڤون ريختر.

ـ لقد سلم الشرف... وانتهت المبارزة...

وصرخ پانتاليونى كأنه على المسرح:

ـ مرحى!... مرحى.

وعادت به الذاكرة إلى الماضي السحيق...

***

بعـد أن بـادل سـانين الضابطيـن التحيـة والانحنـاء، وجلـس فـي العربـة، شـعر (دون مـراء) بعاطفـة تنفـذ إلـى أعمـاق كيانـه... عاطفـة ليسـت كلهـا اغتباطـا وجـذلا، بـل هـي أشـبه بالراحـة التـي تعقـب إجـراء عمليـة جراحيـة، ولكـن عاطفـة أُخـرى كانـت تخالجـه كذلـك... عاطفـة أشـبه بشـعور الخجـل. فقـد أحـس أن التقـاءه بخصمه فـي سـاحة المبارزة

كان مفتعلاً زائفًا. كان أشبه بعمل تقليدي رسمي، أو بإجراء شكلي اعتاد طلبة الكليات الحربية. تذكر الطبيب الخائر العزيمة. تذكر ابتسامته (أو التواء أنفه) حين شاهده (أي شاهد سانين) أثناء مغادرته الغابة، بعد المبارزة، وهو يسير جنبًا إلى جنب مع خصمه. ثم تذكر پانتاليونى وهو ينقد ذلك الطبيب أجره نظير الدور الذي مثله... أج... أج... إن هذا كله لا يستريح له الضمير.

نعم، كان سانين يشعر بالخجل... ويكاد يشعر بالإثم. ولكن بصرف النظر عن هذا... أكان يستطيع شيئًا غير الذي فعله؟... أكان يستطيع التغاضي عن الضابط المعتدى وتركه ينجو دون أن يعاقبه على فعلته؟ أكان من الممكن أن يتصرف كالهركلوبر؟... صحيح أنه فعل ما فعل دفاعا عن چيما، غير أن ضميره لم يكن مع ذلك مستريحًا... كان يشعر بالخجل... بل يكاد يشعر بالإثم.

أما پانتاليونى فلم يشعر إلا بأنه انتصر... لقد تملكه الزهو على حين فجأة، فهو چنرال عائد من ميدان معركة حطم فيها الأعداء. ووجهه الطافح بالبشر يدل أبلغ دلالة على رضاه عن نفسه. كان سلوك سانين أثناء المبارزة يثير حماسته، ولذلك نادى به بطلاً، وأبى أن ينصت إلى أي اعتراض أو رجاء. وشبهه بتمثال من المرمر أو البرنز شبهه على وجه التحديد بتمثال "القائد" في قصة دون جوان واعترف بأنه وقع فريسة للفزع، ولكنه قال متعللا:

ـ ولكنـى فنـان كمـا تـرى... فنـان عصبـي المزاج. أمـا أنت فابـن الثلوج وجبـال الجرانيـت. ولـم يكـن سـانين فـي حالـة معنويـة تمكنـه مـن تهدئة الفنـان المهتاج.

***

وحيـث تـركا إميـل منـذ سـاعتين وجـداه منتظـرًا أوبتهمـا فـي نفـس المـكان. وقد اندفع من وراء شـجرة كالمرة السـابقة، مـرددا صيحات الفرح، وملوحًـا بقبعتـه فـي الفضاء، وقافـزا كالطير في الهواء. ومـرق صوب العربة حتـى كاد يسـقط تحـت عجلاتهـا، وتعلـق ببابها قبل أن يشـد السـائق لجام الخيـل، وارتمـى على سـانين مرددا:

ـ أأنـت علـى قيـد الحيـاة؟ ألم تصـب بمكـروه؟ اغفر لي عـدم الإذعان لأمـرك والعـودة إلـى فرانكفورت، فقـد كان الأمر فوق طاقتي... ولم أسـتطع إلا انتظـارك هنـا... خبرني عما حـدث... أقتلته؟

وعانـى سـانين صعوبـة شـديدة فـي تهدئـة بـال الصبـي وحملـه علـى الجلوس.

وطفـق پانتاليونـى يحكـى للصبـى تفاصيـل مـا حـدث، ويحشـو حكايتـه وهـو يتهـدج طربًـا بألـوان الثرثـرة الجوفـاء ولـم يفتـه أن يعيـد ذكـر تمثـال "القائـد" البرنـزي، ووقـف يحاكـى "القائـد" سـانين فـي سـاحة المبـارزة وقـف منتصـب القامـة، طاويًـا ذراعيـه علـى صـدره، ناظـرًا مـن فـوق كتفـه إلـى الخصـم الـذي تخيلـه. وكان يباعـد مـا بيـن قدميـه حتى لا

يختل توازنه بفعل رجرجة العربة. وأنصت إميل إليه واجف القلب، ولم يقاطعه إلا لينفس عن انفعاله بصيحات الإعجاب، أو ليغمر صديقه البطل بقبلاته.

وبدأت عجلات العربة تصطدم ببلاط شوارع فرانكفورت، ثم وقفت أمام فندق سانين.

وفى أثناء صعود سانين إلى غرفته بالدور الثاني وبرفقته پانتاليونى والصبي مرقت سيدة محجوبة الوجه من الظلمة المخيمة في الممر، وتريثت أمام سانين، وأشارت إليه إشارة خفيفة وهي تلهث، ثم انحدرت في الدرج ركضا واندفعت إلى الشارع حيث توارت عن الأنظار.

ولم يدهش أحد لما حدث مثل خادم الفندق الذي أخبر سانين أن تلك السيدة سألت عن "السيد الغريب"، وانتظرت عودته أكثر من ساعة، فما إن وقعت عينها عليه حتى ولت هاربة!!... واستطاع سانين أن يتبين چيما خلال اللحظة التي مرت فيها من أمامه. لقد رأى عينيها الواسعتين تنفذان من الستر الحريري السميك المنسدل على وجهها.

وتمتم بصوت ينم عن الغيظ.

ـ والآنسة چيما تعلم بالأمر كذلك؟

قال هذا بالألمانية ملتفتا إلى مرافقيه اللذين كانا يسيران في أعقابه. واصطبغ وجه إميل حياء، وبدت عليه دلائل الارتباك وهو يتمتم:

ـ اضطررت أن أبوح لها بالأمر... فقد حذرته من تلقاء نفسها، ولم أستطع إزاء قلقها أن أكتم عنها شيئًا... ثم إن ذلك لم تعد له أهمية الآن.

وأردف، وقد انتابته حماسة مفاجئة:

- لقد انتهت الأمور إلى تلك النهاية السعيدة واطمأنت چيما على نجاتك وعافيتك.

وأشاح سانين بوجهه عنه وغمغم متضايقًا:

يا لهما من ثرثارين لا يكتمان سرًا

ودخل غرفته حيث جلس في أحد الكراسي.

وتوسل إليه إميل:

ـ لا تغضب على.

حسنًا... سأتحاشى ذلك.

ولم يكن سانين غاضبًا بالفعل. (فهو لم يكن يود حقًا أن تجهل چيما "كل شيء" عما حدث). وواصل قوله لإميل بعد فترة صمت:

ـ ولكن كفى قبلات وانفعالات. انصرف الآن، فأنا في حاجة إلى أن أخلو بنفسي... أنا متعب، وأود أن أنام.

فصاح پانتاليونى:

- فكـرة صائبـة. فأنـت في أشـد الحاجـة إلى الراحة، ثم إنك تسـتحقها بالفعـل أيهـا السـيد النبيـل. تعـال يا إميل. سـر علـى أطراف أصابـع قدميك شـه - شـش - شش.

غير أن سانين لم يقصد أن ينام، بل قال لهما ذلك ليتخلص منهما.

فمـا اختلى بنفسـه حتى شـعر بثقـل التعب يدب بالفعـل في مفاصله، فهـو لـم ينـم فـي الليلة السـابقة إلا لماما. وعندما ألقى بنفسـه في فراشـه، غـرق علـى التو في سـبات عميق.

***

ظـل مسـتغرقًا فـي النـوم عـدة سـاعات. ورأى فـي المنـام أنـه مشـتبك فـي مبـارزة، ولكنـه كان هـذه المـرة يبـارز هركلوبر. وأطلـت عليه ببغاء تجثـم في أعلى شـجرة تنـوب... ولـم تكـن تلـك الببغـاء سـوى پانتاليونـى الـذي أخـذ يكـرر نـداءه: "واحـد – اثنـان - ثلاثـة". واسـتمر يصيـح بصـوت صادر من منقـاره: "ثلاثـة - ثلاثة - ثلاثـة..." ولكـن الصـوت تعالـى حتـى لـم يصبح صوت حلـم... وفتـح سـانين عينيه، ورفـع رأسـه عـن الوسـادة، وسـمع طرقًا علـى البـاب فقال:

- ادخل؟

وظهـر الخـادم، وأخبره أن سـيدة بالبـاب حريصة علـى مقابلته. وخطر ببـال سـانين أن هـذه السـيدة لابد أن تكـون چيما. ولكن ظهـر أنها لم تكن إلا والـدة چيمـا... فراو لينور.

ومـا دخلـت الغرفـة حتى سـقطت على أحد المقاعـد وانفجرت باكية. وجـاء سـانين فجلس إلى جانبهـا، ولمس كتفها برفق وعطف، وسـألها:

- مـاذا حـدث يـا سـيدتي العزيـزة الطيبـة؟ مـا الخطـب؟ هدئـي مـن روعـك... باللـه عليـك...

- أك! يا سيد ديمترى! كم أنا شقية!...

ـ أنت شقية؟...

- أك.... جـدًا، جـدًا. مـن كان يتصـور حـدوث ذلـك؟! لقـد وقـع وقوع الصاعقة.

كانت تتنفس بصعوبة، وواصل سانين استفساره:

- ولكن، ما الذي حدث؟ أوضحي الأمر... أأحضر لك كوبة ماء؟...

- لا... شكرًا لك

وأخرجـت منديـلا جففـت بـه دموعهـا. ولكنها عـادت تبكـي على نحو أعنـف مـن قبل. وقالـت على حيـن فجأة:

- أنا أعلم كل شيء... كل شيء.

- ماذا تقصدين بعبارة "كل شيء".

- كل مـا حـدث اليـوم وأعلـم كذلـك أسـبابه. وفي الحق إنـك تصرفت تصـرف الرجـل الشـريف... ولكن أية حالة تعسـة نشـأت من جـراء ذلك؟!... إن معارضتـي لقيامكـم برحلـة "سـودين" لـم تكـن مـن غيـر سـبب. (لـم تعـارض فـراو لينـور فـي القيـام بتلـك الرحلـة كمـا تزعـم، ولكنهـا أصبحـت تؤمـن الآن بأنهـا توقعـت منها السـوء.)

وقـد قصدتـك بحسـبانك رجلاً شـريفًا. بحسـبانك صديقًـا، وإن كنت لم أعرفـك إلا منـذ أيـام. بيـد أنـى أرمـل كما تعلـم... أرمـل وحيـدة... وها هي ذي ابنتي.

واختنقـت السـيدة بدموعهـا! وحـار سـانين فـي قولهـا... فـردد آخـر كلمـة سـمعها.

ـ ابنتك؟ ابنتك!!...

وخرج صوت السيدة من وراء المنديل المبلل بدموعًا كأنه الأنين:

ـ ابنتـي چيمـا... أخبرتني اليوم أنها عدلت عـن فكرة الزواج بالهركلوبر، وكلفتني أن أخطره بذلك

عرت سانين رجفة خفيفة، فهو لم يكن يتوقع هذه النتيجة.

واستأنفت السيدة قولها.

- ولنـدع الفضيحـة جانبًـا رغـم أن أحـدًا لـم يسـمع عـن فتـاة شـريفة تهجـر خطيبهـا - ولننظـر إلـى النتائج: إن فسـخ هذه الخطبة لـن يجر علينا إلا الخراب:

ولفت السيدة منديلها وكورته بانفعال. وكأنما اعتزمت وهي تضغطه أن تضغط فيه أحزانها. ثم استأنفت كلامها.

- إننا لم نعد نستطيع أن نعيش على إيراد دكاننا المتناقص. والهركلوبر غنى يا سيد ديمترى. وهو يزداد غنى يومًا بعد يوم... ثم ما سبب رفضها له؟! ألا إنه لم يدافع عنها؟ إني أسلم بأنه لم يحسن التصرف. ولكن يجب أن نضع في المقام الأول من تقديرنا أنه من المدنيين، وإنه لم يتخرج في الجامعة. ثم إن من حق تاجر محترم مثله أن يتجاوز عن الهنات السخيفة التي يرتكبها بعض صغار الضباط المغمورين... والإهانة التي لحقت ابنتي!... أ كانت جسيمة على نحو ما يصورونها؟...

- استميحك العذر يا سيدتي. فإنه يبدو لي أنك تتهمينني.

- إني لا أتهمك بشيء. فأنت تختلف عن هركلوبر. أنت رجل عسكري... ككل روسي.

- عفوا يا سيدتى، ولكني لست كذلك.

وواصلت السيدة قولها دون أن تعير اعتراض سانين انتباها:

ـ أنت غريب عن هذه الديار. أنت زائر عابر... وأنا مدينة لك بالشيء الكثير..!

كانت تصعد أنفاسها في جهد ظاهر، وتحرك يديها في انفعال. وبسطت منديلها وتمخضت فيه. وكانت الطريقة التي أطلقت بها

العنان لأشجانها تكفي وحدها للدلالة على أنها لم تولد تحت سماء الشمال الباردة. وواصلت ولولتها:

ـ أو يستطيع هركلوبر أن يواصل عمله في المتجر إذا اعتاد الاشتباك في عراك مع كل عميل؟... أتعقل هذا؟! ثم على الآن أن أنبئه بفسخ الخطبة! فان فعلت، فأي مورد رزق يتبقى لنا؟ كنا نجيد وحدنا فيما مضى صنع بعض أصناف الحلوى الإيطالية، واعتاد العملاء وقتذاك أن يتقاطروا علينا. أما الآن فالجميع يجيدون صنع تلك الأصناف.. وبصرف النظر عن كل هذا. انظر إلى الأقاويل التي ستتناقلها المدينة عن حكاية "مبارزتك "! إن أحدًا لا يستطيع أن يسكت ألسنة السوء وفي هذا الظرف بالذات يعلن نبأ فسخ الخطبة. إنها لفضيحة! إنها لفضيحه! وجيما فتاة طيبة. إنها تحبني دون شك، ولكنها عنيدة، ذات نزعة تحررية كأبيها. ثم إنها تستخف بأقاويل الناس. إنك الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يحدثها في هذا الأمر.

وتضاعفت دهشة سانين:

- أنا؟! يافراو لينور!

- نعم أنت. أنت وحدك. فأنت الذي تصدى للدفاع عنها. إنها ستصدقك. إنها على استعداد لتصديق كل ما تقول، فقد عرضت حياتك للخطر في سبيلها. أنت تستطيع أن تفتح عينيها على الحقائق.

- أما أنا فقد أفرغت ما في جعبتي لتحقيق تلك الغاية أنت تستطيع أن تقنعها بأنها ستحطم حياتها وحياتنا جميعًا. وكما أنقذت أخاها من الهلاك فاعمل على إنقاذها الآن. أنت رسول العناية الإلهية، وأنا مستعدة أن أتوسل إليك راكعة على ركبتي.

وهمت السيدة بالوقوف متهيأة للارتماء على قدمي سانين. فأسرع هذا إليها ليمنعها عما تعتزمه، وصاح منفعلا:

ـ فراو لينور! ماذا تصنعين بالله عليك؟!.

فأمسكت يديه بحرارة وهتفت:

ـ أتعدني؟... أتعدني...

- حاولي أن تفكري في الأمر يا سيدتي. كيف أستطيع ذلك؟

- أتعدني؟ أم لعلك تريد أن أنطرح في هذه اللحظة على قدميك؟

وحار سانين فيما يفعل. فهو لم يجرب من قبل مواجهة الطبع الإيطالي الحاد. وصاح في النهاية:

ـ سأفعل ما تريدين. سأتحدث إلى الآنسة چيما

وانطلقت من فم السيدة صيحة فرح. وواصل سانين قوله:

ـ ولكنى لا أضمن نتيجة تحدثي إليها.

وتوسلت إليه فراو لينور:

ـ آه. لا ترفض طلبي. لا ترفض طلبي، فقد قطعت على نفسك عهدًا. وستكون نتيجة حديثك معها خيرًا. أنا واثقة من ذلك. وعلى أية حال فقد أفرغت أنا ما في جعبتي، ولم تعن ابنتي بالإنصات إلى.

وسألها سانين بعد فترة صمت:

- أكان رفض چيما لزواجها بالهركلوبر قاطعًا؟

- نعم كان قاطعًا. إنها حادة الطبع كأبيها.

وردد سانين ببطء:

ـ حادة الطبع؟ چيما!.

وأردفت السيدة.

- نعم، نعم ولكنها مع ذلك وديعة كالملاك. وسوف تطيعك أستحضر. قريبًا؟ قريبًا جدًا؟؟. آه يا صديقي الروسي العزيز.

وغادرت مقعدها في اندفاع. وطوقت عنق سانين بنفس الاندفاع وكان لايزال جالسا في كرسيه. وقالت متهدجة الصوت:

ـ اقبل بركات أم صادقة... وأحضر لي الآن كوبة ماء.

وجاء لها سانين بما طلبت، وأقسم أن يزورها في أقرب وقت. ورافقها مشيعًا حتى الشارع. ثم عاد إلى غرفته، ووقف شاخص البصر ذاهلا كل الذهول.

وقال لنفسه بعد فترة: " لقد أخذت الأحداث الآن تتأثر لنفسها.

آه! ما أشد دوران رأسي". ولم يحاول أن ينظر في قرارة قلبه باحثًا عن دفين سره. واكتفى بأن يعلم أن الفوضى تشيع في نواحي ذلك القلب الحائر، ثم تحركت شفتاه بهذه العبارات دون أن يقصدها: "يا له من يوم!! عنيدة!! حادة الطبع!! أهيَّ كذلك؟!. هذا وصف أمها لها على أية حال. ومطلوب إلى أنا أن أنصحها؟!. أنصحها هى؟!. يا لها من نصيحة أقوم " أنا" بإسدائها!!."

وكان رأس سانين يدور فعلا.. وقد طفت وسط إعصار تلك الأحاسيس والتأثرات والخواطر المكتومة، صورة چيما الغالية.. تبدت له كما تبدت في تلك الليلة الدافئة، والمشحونة بالكهرباء، محاطة بإطار النافذة، وعاكسه لألاء النجوم الخافقة. لقد ظلت تلك الصورة منقوشة على صفحة فؤاده.

- 23 -

اقتـرب سـانين مـن دار مـدام روزيللـى بخطـى غيـر ثابتـة. وكان قلبـه يـدق بعنـف إلـى حـد أنـه كان يشـعر بضرباتـه بيـن حنايـاه... بل إنـه كان يسـمعها... أى قـول سـيقوله لچيما؟... وكيف سـيحدثها في هـذا الموضوع؟

ودخـل البيـت مـن بابـه الخلفـي لا مـن طريـق الـدكان. ووجـد فـراو لينـور جالسـة فـي الغرفـة الصغيـرة الأماميـة. وظهـر عليهـا لـدى رؤيتـه السـرور والشـجو معًـا.

همست في أذنه وهي ممسكة يديه الاثنتين بكلتا يديها:

ـ كنـت أنتظـرك... اذهـب إلـى الحديقـة فهـيَّ هنـاك. خُذ حـذرك، فأنا أعتمـد عليك.

وخرج سانين إلى الحديقة.

كانـت چيمـا تجلـس فـي مقعد خشـبي قريـب من ممـر الحديقـة: وتنقل حبـات الكـراز الناضـج مـن سـلة كبيـرة إلـى طبـق موضـوع بجانبها. وأوشـكت الشـمس حينـذاك أن تغـرب، فقد اقتربت السـاعة من السـابعة. وكسـت أشـعة الغـروب حديقـة مـدام روزيللـى بالعقيـق، وكانـت تكسـوها قبـل ذاك بغلائـل الذهـب، وتـردد همـس أوراق الشـجر بيـن حيـن وحيـن، وكاد لا يسـمع لشـدة

خفوتـه، وتنقـل النحـل مـن وردة إلـى وردة وهـو يئـز أزيـزًا، وهـدرت يمامـة جاثمـة علـى فـرع شـجرة هديـرًا رتيبًـا دون كلـل أو ملـل.

كانـت چيمـا تغطـي رأسـها بنفـس القبعـة التـي ارتدتهـا أثنـاء رحلـة سـودين وحدجـت سـانين بنظرهـا مـن تحـت حاشـية قبعتهـا ثـم انحنـت ثانيـة على السـلة. واقترب سـانين منهـا، وكان يبطئ في خطوتـه كلما ازداد قربًـا... و... و... ولـم يخطـر ببالـه وقتئـذ إلا أن يسـألها عـن سـبب التقاطهـا الكـراز من السـلة!...

وأجابته يما بعد إطراق:

ـ أنـا أختـار الحبـات الناضجة لأطبخهـا وأصنع منها مربـى... أما الأخرى فسـأصنع منهـا نوعًـا من الحلـوى: وأنت تعلـم أننا نبيع مثل هـذه الأصناف من الحلوى.

ومـا انتهـت مـن قولهـا هـذا حتـى ازدادت انحنـاء على سـاتها: وظلت يدهـا التـي كانـت تحمـل حبتيـن مـن الكـراز معلقة بيـن السـلة والطبق:

ـ أتأذنين لي في الجلوس إلى جانبك؟

وتزحزحت چيما عن مكانها قليلا وقالت:

ـ يمكنك أن تجلس

وجلس سانين إلى جانبها وسأل نفسه: "كيف أبدأ حديثي معها؟"

ولكن چيما نجدته بقولها:

ـ لقد اشتبكت اليوم في مبارزة...!

واتجهـت إليـه بوجهـا الجميـل المنفعل المشـرب بحمـرة الخجل. وأى عرفـان بالجميل أشـع عنـد ذاك مـن عينيها!!

ـ وما أهدأك مع ذلك! إخالك لا تشعر بالخوف.

ـ دعـك مـن هـذا: لم يكن هنـاك أي خطر يتهددني، فقـد انقضى الأمر على أسـلم وجه وأهدئه.

وحركـت چيمـا أصبعهـا مـن ناحية عينهـا اليمنـى إلى اليسـرى (وهذه حركـة إيطاليـة أيضًـا) وقالت فـي إصرار:

ـ لا، لا. أنـت لا تسـتطيع خداعـي. لقـد روى لـي پانتاليونـى كل مـا حـدث.

ـ أصدقته؟ لابد أنه قارنني بتمثال "القائد".

ـ قـد تكـون طريقـة تعبيـره مضحكـة ولكـن حقيقـة عواطفـه بعيـدة عن أن تضحـك، وكذلـك مـا حـكاه عنـك اليـوم... أأقدمـت علـى مـا أقدمـت عليـه بسـببي؟... أكان هـذا منـك فـي سـبيلي؟... أنـا لـن أنسـى هـذا الجميـل أبـدًا.

ـ أؤكد لكِ يا آنسة چيما...

ـ لن أنساه أبدًا...

وكـررت هــذه العبــارة وهــيَّ تشــخص إليــه، وتنظــر فــي عينيــه. ثــم دارت بوجههــا إلــى الناحيــة الأخــرى. واســتطاع، وهــي علــى ذلــك

الوضع، أن يرى وجهها من ناحيته الجانبية، وأدراك أنه لم ير جمالا كهذا طوال حياته، ولم يكابد عاطفة من قبل كالعاطفة التي يكابدها في هذه اللحظة... كانت روحه تشتعل اشتعالا.

ومر بذهنه خاطر كوميض البرق: "والوعد الذي قطعه لأمها؟..."

تردد قبل أن يقول للفتاة:

ـ يا آنسة چيما...

خيرًا؟...

وظلت تنظر في الاتجاه الآخر، وتلتقط حبات الكراز الناضجة ممسكة بها من عيدانها بحرص، وتزيل ما علق بها من زوائد. ولكن أية نبرة حنان كانت تشيع في صوتها عندما فاهت بكلمة "خيرًا"!!...

وسألها سانين في ارتباك:

ـ أفاتحتك أُمك في... موضوع؟...

ـ أي موضوع؟...

ـ ألم تُحدثك عنى؟...

وألقت چيما في السلة بما كان بيدها من حبات الكراز، وسألته بدورها:

ـ لقد حادثتك إذن في الأمر!...

ـ نعم.

ـ وماذا قالت لك؟

ـ أخبرتـني أنـك... قررت فجأة الرجوع... عن نيتك السـابقة... وطأطأت چيمـا رأسـها ثانيـة. وكاد وجههـا يتـوارى وراء حافـة قبعتها، ولم يبـد واضحًا غيـر عنقهـا الرقيـق الدقيق، الشـبيه بقاعـدة مرمرية تحمـل وردة كبيرة في حجم رأس الإنسـان.

ـ أية نية سابقة؟...

ـ نيتك الخاصة. بمستقبل حياتك...

ـ أتقصد؟... أنت تقصد هركلوبر، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ وأنبأتك أمي أنى أرفض الزواج بهركلوبر؟...

وتحركـت چيمـا فـي مقعدها، فاهتزت السـلة ثم سـقطت على الأرض. وتدحرجـت منهـا بعـض حبات الكراز إلـى الممر. ومرت دقيقـة بعد دقيقة. ثـم جـاء صوت چيما مـن جديد:

ـ ماذا دعاها إلى مخاطبتك في هذا؟

وكان سـانين لا يـزال يـرى من چيمـا عنقها دون وجههـا.. ويرى صدرها يعلـو ويهبط في سـرعة غيـر عادية.

ـ مـاذا دعاهـا إلـى مخاطبتـي؟ خطـر لهـا أنـه... مادامـت الصداقـة قد توشـجت بيننـا فـي مثـل هـذه الفتـرة القصيـرة، ومـا دمـت توليتنـي بعض ثقتـك، فـإن هـذا قـد يمكننـي... من إسـداء النصح لـك... وقـد يحملك على الاسـتماع لنصحى..

وانزلقـت يـدا چيمـا إلـى حجرهـا... وأخذتـا تبسـطان ثنايـا ثوبهـا. وصمتـت برهـة:

ـ وأية نصيحة تود أن تسديها إلى يا سيد ديمترى؟

واسـتطاع سـانين أن يـرى يديهـا ترتجفـان فـي حجرهـا... ولـم يكـن اشـتغالهما ببسـط ثنايـا الثـوب إلا لمداراة ذلـك الارتجاف. ووضـع يده على أطـراف أناملهـا الصفـر المرتعشـة، وقال:

ـ چيما... لم لا تنظرين إلى؟...

والتفتـت إليـه فـي حركـة فجائيـة، وأزاحـت قبعتهـا عـن وجههـا، وحدقـت فيـه. وفاضـت عيناهـا مـن جديد بدلائـل الثقـة وعرفـان الجميل. وانتظـرت أن يبادرهـا هـو بالقـول... ولكـن مـرأى وجههـا السـاحر خطـف بصـره وأربكـه... كانـت أشـعة الشـمس الغاربـة تصبـغ ذلـك الوجـه الناضر الصبـا بغلائلهـا الذهبيـة، فبـدت أسـاريره أشـد حيويـة وإشـراقًا مـن أشـعة الشـمس نفسـها...

ـ سأقبل نصيحتك أيا كانت يا سيد ديمترى.

وابتسـمت ابتسـامة هادئـة. ورفعـت حاجبيهـا فـي حركـة خفيفـة ثـم أردفت:

ـ فما هي هذه النصيحة؟...

وكرر سانين قولها:

ـ هـذه النصيحـة؟... انظـرى... تقـول والدتـك إن إعراضـك عـن هركلوبـر لغيـر سـبب، إلا أنـه لـم يبـد "نوعـا" مـن الشـجاعة فـي اليـوم السـابق...

ـ لغير سبب إلا هذا!!...

وانحنـت وهـي تغمغـم بهـذه العبـارة، والتقطـت السـلة الملقـاة على الأرض وأعادتهـا إلـى المقعـد حيـث كانت.

ـ وتقـول والدتـك إن فسـخك للخطبـة... مـن الناحيـة العامـة... غيـر حكيـم، فأولـى بـكِ أن تفكـري فـي النتائـج وتزنيهـا قبـل الإقـدام على هذه "الخطـوة". ثـم إن حالـة "شـئونكم الخاصـة" تفرض على كل فرد في الأسـرة تحمل بعـض المسـئوليات...

وقاطعته چيما:

ـ هـذه آراء "مامـا" كمـا تقـول، وأنـا أعرفهـا جميعهـا... ولكن. مـا رأيك أنت؟؟.

رأيي أنا؟!.

وغـاص سـانين فـي صمـت عميق. وشـعر بحشـرجة في حلقـه، وضاق تنفسـه، وغالـب نفسـه حتى قـال بصعوبة:

ـ أنا أيضًا... أحسب أن...

واعتدلت چيما في جلستها:

ـ أنت أيضًا؟!. أنت؟!.

ـ نعم... ولكنى أقصد...

وعجز سانين عن إضافة كلمة جديدة واحدة. فقالت چيما:

ـ حسنًا. فما دُمت أنت... أنت الصديق... تنصحني أن أرجع عن رأيي... أي أن أعود إلى رأيي القديم... فسأفكر في الأمر ثانية.

وأعادت الكراز الذي انتقته، ووضعته في الطبق، وأعادته إلى السلة دون وعى.

ـ وما دامت أمي تأمل أن أتبع نصيحتك... فَرُبما أتبعها بالفعل.

ـ ولكنى... يا آنسة چيما... أود أولا أن أعرف الأسباب التي حملتك على...

ـ سأفعل ما تُريد.

وانقبض ما بين حاجبيها، وامتقع خداها، وعضت شفتها السفلى وأردفت:

ـ إنك طوقت عنقي بجميل لا أرى معه إلا أن أطيعك في كل ما تُريد. وسأخبر "ماما" أنى سأعيد النظر في الأمر... آه!... ها هي ذي آتية.

وظهرت فراو لينور بالفعل على عتبة الباب المؤدى إلى الحديقة. فقد بلغ من نفاذ صبرها أنها لم تطق الانتظار أطول من ذلك. ثم إنها

قدرت أن سانين لابد أن يكون قد فرغ وقتئذ من التحدث إلى چيما. رغم أنه لم يقض معها إلا ربع ساعة.

وصاح سانين متوسلا، وبدا كأنه أُصيب بنوبة فزع شديد.

ـ لا، لا... بالله عليكِ لا تقولي لها شيئًا... انتظري.. حتى أفضى إليك بما عندي... سأكتب لكِ رسالة... وأرجو ألا تقرري شيئًا قبل أن تتلقيها... انتظري...

وضغط يد الفتاة، وقفز من فوق المقعد، ومر مندفعًا من أمام فراو لينور المدهوشة، رافعًا لها قبعته، ومرددًا كلمات غير مفهومة. وتوارى عن العيان.

وتقدمت فراو لينور صوب ابنتها:

ـ أرجو أن تخبريني يا چيما...

وأسرعت چيما إلى أمها فقبلتها، وقالت برقة:

ـ يا أمي العزيزة!... ألا تنتظرين ولو قليلا جدًا؟! أتنتظرين إلى الغد؟ أتنتظرين؟... على ألا تذكر كلمة واحدة عن الموضوع حتى الغد... هيه؟...

وغرقت فجأة في فيض من دموعها، ودهشت هي نفسها لذلك. أما دهشة فراو لينور الكبرى فكان سببها ذلك البشر الذي تألق من بين دموع ابنتها. كان وجه الفتاة حينذاك مشرقًا بالبسمات. فسألتها أمها:

ـ ماذا جرى لكِ؟... إنك لم تبكِ أبدا... وها أنتِ ذي على حين فجأة...

ـ لا أهمية لذلك يا أماه... لا أهمية له... انتظري... انتظري فحسب... علينا أن ننتظر نحن الاثنين حتى الغد.. ولا تسأليني شيئًا فيما قبل ذلك... ولنجن الآن الثمار فالشمس توشك أن تغيب...

ـ ولكنك لن ترتكبي أية حماقة... أليس كذلك؟...

ـ آه... إني رزينة كما تعلمين...

وأومأت إيماءة ذات مغزى، وبدأت في جنى الثمار، وكانت تجمعها حزمة حزمة، وترفعها فوق وجهها المتورد. ولم تمسح دموعها، ولكنها تركتها تجف على خدودها من تلقاء نفسها.

ـ 24 ـ

عاد سـانين إلى فندقه وهو يكاد يركض. فقد كان يشـعر بأنه لن يسـتطيع الوقـوف علـى حقيقـة مـا يجـرى داخـل نفسـه إلا إذا وصل إلـى غرفتـه، وانفرد فيهـا بنفسـه. وهكـذا كان الأمـر فهـو لـم يكد يسـتقر فـي الغرفـة، ويجلس إلى مكتبـه حتـى وضـع مرفقيـه علـى سـطح المكتـب، وضغـط وجهـه بكفيـه... ثم صـاح مكتئبًـا بصـوت خارج مـن أعماقه "أنـا أُحبها... أُحبهـا حبًا طاغيًـا جنونيًا". وشـعر بكيانـه يحتـرق كما تحترق جمرة انحسـر عنها الرماد فجـأة. ومرت برهة علـى تلـك الحـال عجـب بعدهـا لنفسـه كيـف كان يجلس إلـى چيمـا، ويبادلها الحديـث، ولا يشـعر مـع ذلـك بأنـه يعبدها حتى طـرف ثوبها، وأنه مُسـتعد كل الاسـتعداد، علـى حـد تعبير الشـاب، "لقضاء نحبه تحـت أقدامهـا!!..." كان هذا اللقـاء الأخيـر فـي الحديقة حاسـمًا. فهـو حين يفكـر فيهـا الآن لا يذكرها وقتما أطلـت مـن النافـذة محلولـة الشـعر، مُشـرقة الوجـه تحت أضـواء النجـوم... بل يذكرهـا وهـي جالسـة إلـى جواره فـي مقعـد الحديقـة... يذكرها حين حسـرت قبعتهـا فجـأة وغمرته بتلـك النظرات التي تفيـض ثقة وعرفانًـا بالجميل... وعند ذلـك تسـري فـي عروقه رعـدة الحـب... ويلتهب فيهـا الظمأ إلـى الحب...

وتذكـر الـوردة التـي ظل يحملها فـي جيبه يوميـن متتالييـن، فأخرجها ورفعهـا إلـى فمـه، وضغـط بها شـفتيه في قـوة محمومة إلى حـد أنه جفل

مـن ألـم الضغـط، إنـه الآن لا يسـتطيع أن يعقـل، أو يفكـر، أو ينظـر إلـى المسـتقبل ويحسـب حسـابه. لقـد انتـزع نفسـه مـن قيـود ماضيـه وقفـز إلـى الأمـام. لقـد حطـم ربـاط قاربـه وابتعـد عن شـاطئ وحدتـه الرهيب... شـاطئ العزوبـة القاحـل... منسـاقًا مـع تيـار الحيـاة المتدفق الراقـص، غير معنـى بمـا يحـدث أو مستفسـرًا عـن وجهتـه، أو مسـتوثقًا مـن أن قاربـه الهـش لـن تحطمـه الصخـور. إنه لم يعـد يركب الجـداول التـي تصفها قصة "أوهلانـد" الشـعرية التـي كانت تُهدهد أشـجانه أخيرًا... وإنمـا يركب البحر ذا الأمـواج التـي لا تقـاوم. وينسـاق معهـا أيان تنسـاق.

انتزع ورقة وسطر بها ما يأتي دون أن يشطب كلمة أو يتردد:

عزيزتي چيما،

"أنـتِ تعرفيـن بالطبـع النصيحـة التـي أخذت علـى عاتقي أن أسـديها أليك وتعرفيـن كذلـك مـا تريـده أمـك ومـا كلفتنـي بـه ولكـن الـذي لا تعرفينـه، ولا أجـد بـدا مـن الإفضـاء بـه إليـك هـو أنـى أحبـك... نعـم أحبـك بـكل مـا يضطرم فـي قلـب عـرف الحـب لأول مـرة، مـن صبابـة ملتهبـة. إن هـذا الالتهـاب شـب فـي قلبـي فجـاءة، وبلـغ مـن الشـدة مبلغًـا عجـزت معـه عـن تحـت الكلمـات القـادرة علـى التعبير عنـه. وعندمـا جـاءت إلـى أمـك طالبـة مسـاعدتي كان حبـي لـك يتقـد بيـن ضلوعـي، ولكنـه لـم يكـن قـد التهـب بعـد. ولـو أنـه كان ملتهبًـا وقتـذاك كمـا هـو الآن لرفضـت علـى الأغلـب بِحُسْـباني رجـلا شـريفًا أن أضطلـع بالمهمـة التـي كلفتنـي بهـا... وهـذا الاعتـراف الـذي أسـجله علـى

نفسـي الآن هـو كذلـك اعتـراف رجـل شـريف ومـن حقـك أن تعرفـي أي رجـل تعامليـن ثـم إنـه لا يجوز أن ينشـأ بيننا سـوء تفاهـم على أي نحـو. وهكذا ترين أنـى لا أسـتطيع أن أقـدم إليـك نصيحـة مـا... أحبك... أحبـك... أحبك... ولا شـيء فـي خاطـري أو فـي قلبـي غير حبي لـك، "د. سـانين.".

طـوى هـذه الرسـالة بعد الفـراغ مـن كتابتهـا، وغلفها، وخطر لـه بادئ الأمـر أن ينـادى خـادم الفنـدق ويكلفـه بحملهـا إلـى چيمـا. ولكنـه قـال لنفسـه "لا، فهـذا التصـرف غيـر سـليم... أأكلـف إميـل بذلـك؟... ولكن هذا التصـرف ليـس خيـرًا مـن سـابقه، فالذهـاب إلى متجـر هركلوبـر... والبحث بيـن المسـتخدمين عـن إميـل!!. لا... ثـم إنـه يكـون علـى الأغلب قـد غادر المتجـر الآن... ".

وضـع قبعتـه علـى رأسـه وهـو لا يـزال يفكـر في الأمـر، وما خـرج من عطفـة ودخـل عطفـة أخـرى حتـى وجـد نفسـه، لفـرط سـروره، أمـام إميل الـذي كان يحمـل حقيبـة مـن الجلـد تحـت إبطـه، ولفافـة مـن الـورق فـي يـده، ويجـد فـي السـير متجهًـا إلـى داره. وخطـر لسـانين أن القـول القائل "إن لـكل عاشـق طالعًـا سـعيدًا" لا يخلـو مـن الصـدق.

والتفت إميل، فما رأى سانين حتى أسرع إليه.

ولـم يمكـن سـانين الصبـي مـن الاستسـلام لفـورة عواطفـه، وناولـه الرسـالة موضحًـا لـه ما يجـب عمله لضمان وصولها سـرًا إلى أختـه. وأنصت إميـل باهتمـام إلـى قـول صاحبه:

ـ احرص على ألا يراك أحد...

واتخذ وجه سانين وهو يقول ذلك طابع الجد والخطورة، ونطقت قسماته بأن هذا السر الذي لا يعرفه أحد يجب أن يظل طي الكتمان:

ـ نعم، يا صديقي...

واعترى سانين شيء من الارتباك، وربت على كتف إميل وهو يردف:

ـ وأرجو أن تحمل إلى الرد... أتعدني بذلك؟... هذا فيما إذا كان هناك رد... وسألزم داري...

وهمس إميل في أذنه مسرورًا:

ـ لا تقلق بالك...

وانصرف عدوا وهو يتلفت ويومئ لسانين.

وعاد سانين إلى غرفته، وارتمى على المقعد المستطيل دون أن يوقد الشموع. وحمل رأسه بين يديه، واستسلم لخوالج الحب الجديد الذي اعترف به، والذي يستعصي على الوصف. فلن يعرف عذوبته الشجية إلا من يكابده، أما من يجهله فلن يغنيه عن التجربة أي وصف.

وفتح الباب، وأطل إميل برأسه وقال همسًا:

ـ جئتك بالرد... ها هو ذا.

ورفع ورقة مطوية إلى أعلى.

قفز سانين من مقعده وانتزع منه الرسالة. وقد بلغ من جموح عاطفته أنه لم يعد يفكر في كتمانها، وفي التزام الوقار حتى أمام هذا الصبي الذي هو أخوها... ولا شك أنه لو استطاع كبح جماح نفسه أمامه لما توانى عن ذلك. خطا صوب النافذة، وقرأ على ضوء مصباح الشارع القائم أمامها هذه الأسطر:

"أرجوك... أتوسل إليك ألا تحضر غدًا... لا تحضر طوال يوم غد... هذا أمر ضروري... أمر ماس... وسنتخذ بعد ذلك قرارًا... إني واثقة من أنك ستلبى طلبي... لأنك، چيما

قرأ سانين الرسالة ثم أعاد قراءتها... وبدا خطها في عينيه غاية في اللطف وفي قوة التأثير! والتفت إلى إميل بعد أن أطرق قليلا، وناداه بصوت عال. وكان الصبي يقف بعيدًا، منحيًا وجهه، لشدة حرصه على أن يظهر بمظهر الكتوم، شاغلا نفسه بخربشة الحائط.

أسرع الفتى إلى سانين هاتفا:

ـ أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك؟

ـ اسمع يا صديقي... أتستطيع حضرتك...

واعترض إميل كسيف البال:

ـ لم لا ترفع الكلفة في مخاطبتي؟... قل: "أنت" بدل "حضرتك"

وأجاب سانين ضاحكًا:

حسنًا

فقفز الغلام طروبًا. واستطرد سانين:

ـ اسمع يا صديقى... أرجو أن تقول لها وأنت تعرف من أعنى إن الأمور ستسير وفق مشيئتها...

وزم إميل شفتيه، وهز رأسه في جد، وواصل سانين قوله:

ـ وأنت؟... كيف ستقضى يوم غد؟...

ـ أنا؟... كيف تريدني أن أقضيه؟...

ـ احضر إلى في الصباح مبكرًا... إذا أمكنك ذلك... وسنقوم بجولة حول مدينة فرانكفورت. ماذا ترى في هذا الاقتراح؟...

وقفز إميل طروبًا مرة أخرى، وقال:

ـ أرى رأيك. وهل هناك ما هو أمتع من ذلك؟... جولة معك في الخلاء!... إن تحقيقها أشبه بتحقيق معجزة... سأحضر ولا شك.

- وإذا افترضا أن أهلك منعوك من الخروج...

- لن يمنعوني...

- اسمع... لا تقل لأحد وأنت تعرف من أقصد - أنى دعوتك إلى تلك الجولة...

- ومـاذا يدعونـي إلـى ذلـك؟... سـأخرج فحسـب. دون أن أقول شـيئًا. وهل فـي ذلـك ضير؟

وقبل إميل سانين بحرارة، وجرى إلى الشارع.

وقضـى سـانين مـدة طويلـة وهـو يـذرع غرفته جيئـة وذهابًـا، ولم يأو إلى فراشـه إلا في سـاعة متأخرة من الليل. واستسـلم مرة أُخرىَ لأحاسـيس الحـب اللذيـذة النافذة، ولوخزاتـه التي يغمر بعضها القلب سـرورًا، ويملؤه بعضهـا الآخـر خوفا من الحيـاة الجديدة التـي تنتظره.

وقـد أبهجـه أنـه دعـا إميـل إلـى زيارتـه في اليـوم التالـي للقيـام بتلك الجولـة وقضـاء اليـوم بطولـه فـي صحبتـه. فإن هـذا الصبي يشـبه أخته كل الشبه...

وقـال سـانين لنفسـه: "سَـيُذكرني بها." بيـد أن هناك سـؤالا كان يحيره أكثـر مـن أي سـؤال آخـر، وهـو "كيف أنـه كان أمـس يختلـف كل الاختلاف عمـا هـو اليـوم؟... كان شـخصًا آخـر!!." وسـبب حيرتـه أنـه توهـم وهو في عنفـوان هيامـه أن حبـه لچيمـا ليس بالشـيء الجديـد الطارئ... فقـد أحبها دائمًـا بمثـل القـوة التي بهـا اليوم.

- 25 -

ظهـر إميـل علـى بـاب سـانين فـي السـاعة الثامنـة مـن صبـاح اليـوم التالـي ممسـكًا بربـاط الجـرو تارتاجليـا. ولـو كان هـذا الفتـى ألماني الأصل لمـا كان أكثـر دقـة فـي المحافظـة علـى مواعيـده. وقـد كـذب علـى أهلـه فزعـم لهـم أنه سـيذهب كعادته إلى المتجر بعد أن يمر بسـانين ويتمشـى معـه قليـلاً قبـل الإفطـار. وفيمـا كان سـانين يرتـدى ملابسـه أخـذ إميـل يحدثـه عـن چيمـا فـي شـيء من الحـرج بالطبـع ويذكـر له مشـادة وقعت بينهـا وبيـن هركلوبـر. ولكـن سـانين لاذ بصمـت صـارم. وظهـر علـى الغلام أنـه أدرك سـبب وجـوب الكـف عـن ذكـر أيـة كلمة عن هـذا الموضـوع، أو الإدلاء بأيـة إشـارة إليـه. وانطـوى علـى نفسـه. وكان وجهـه يتخـذ بين حين وحيـن هيئـة الجد.

وبعـد أن تنـاول الصديقـان القهـوة، سـارا علـى الأقـدام طبعًـا إلـى "هاوزيـن" وهـي قريـة محاطـة بالأشـجار، لا تبعـد كثيـرًا عـن فرانكفـورت.

ويستطيع الإنسان أن يرى منها سلسة جبال "توناس".

قضيـا يومًـا بديعًـا كانـت شمسـه السـاطعة تدفئهمـا دون أن يلفحهما حرورها.

وسـرى النسـيم خـلال أوراق الشـجر الخضـر طربًـا بوقـع حفيفهـا. وألقـت السُـحب المتموجـة ظلالهـا الخفيفـة السـابحة فـوق أديـم الأرض.

وتـرك الفتيـان القريـة وراءهمـا، وأخـذا يطويـان الطريـق المسـتوى الناعم، ودخـلا فـي جـوف غابـة، فهامـا فـي أرجائهـا طويـلا. ثـم عـادا إلـى القريـة فتنـاولا فـي أحـد مطاعمهـا غـداء دسـمًا، ولـم يهـدآ، بـل صعـدا إلـى قمـة تـل، وأخـذا يتمليـان المنظـر الـذي تجلـى تحتهمـا. ثـم طفقـا يلقيـان الحجـر ويرقبـان وقوعـه مـن فـوق المنحـدر، ويصفقـان طربـا بمنظـر تدحرجـه المضحـك، ولـم يكفـا عـن ذلـك حتـى احتـج عليهمـا أحـد المـارة بأسـفل الجبـل، وانبـرى يسـبهما بصـوت عـال مجلجـل. وتمـددا علـى الحشـائش القصيـرة الجافـة المصفـرة. وعـادا بعـد ذلـك إلـى إحـدى حانـات القريـة فشـربا الجعـة. ثـم غادراهـا وركضـا متسـابقين. وتباريـا بعـد ذلـك فـي القفـز الطويـل، وصادفـا مكانـا يجلجـل فيـه رجـع الصـدى، فتبـادلا الـكلام مـع الأصـداء، وتعالـى غناؤهمـا وصياحهمـا. ثـم أخـذا ينزعـان بعـض الأغصـان مـن الشـجر، ويزينـان قبعتيهمـا بالزهـر. بـل لقـد رقصـا.

واشـترك تارتاجليـا معهمـا فـي كل مـا قامـا بـه، ولكـن علـى قـدر طاقتـه وقدرتـه. فـإذا كان لـم يشـترك فـي إلقـاء الحجـر فقـد كان يتدحـرج وراءه، وإذا كان لـم يغـن فقـد سـاهم فـي الغنـاء بالنبـاح. بـل لقد أقـدم حتى على شـرب الجعـة، وإن كان لـم يبـد عليـه الارتيـاح لشـربها (كان أحـد الطلبـة يقتنـى ذلـك الجـرو فيمـا مضـى، وهـو الـذي عـوده شـرب الخمـر) ولم يكن يطيـع إميـل بقـدر إطاعته لأمـر "سـيده" بانتاليونـى، فكان يكتفـى بتحريك ذنبـه كلمـا طلـب إليـه إميـل أن يتكلـم (أى ينبـح) ثـم يدلى لسـانه الأحمر الملـوى مـن طرفيه.

ولـم يعـوز الشـابين الـكلام. ففـي أول الرحلـة افتتـح سـانين الحديث (بحسـبانه أكبـر مـن زميلـه سـنًا)، فناقـش موضـوع "القضـاء والقـدر"، ثـم موضـوع موهبـة الإنسـان (طبيعتهـا وعناصرهـا ومغزاهـا). ولكـن الحديـث لـم يلبـث أن تحـول إلـى موضوعـات أبسـط مضمونـا. وأخـذ إميـل يسـأل أسـتاذه وصديقـه عـن روسـيا، وعـن المبـارزات التـي تجـرى هنـاك؟ وعـن نسـائها وهـل هن جميـلات؟... وعن اللغة الروسـية ومدى صعوبـة تعلمها؟ وعـن شـعوره حيـن صـوب الضابـط غدارتـه إليـه... وجـاء دور سـانين فـي السـؤال، فطفـق يسـأله عـن أبيـه وأمـه، وعـن مشـاغل الأسـرة مـن الناحية العامـة، بـاذلا مـا فـي وسـعه ليصـرف نفسـه عـن ذكـر چيمـا، فـي حيـن أن ذكرهـا هـو وحـده الـذي كان يشـغل بالـه. وفـي الحـق إنـه لـم يكـن يفكـر فيهـا بالـذات، وإنمـا كان يفكـر فـي غـده... فـي ذلـك الغـد الغامض الـذي سـوف يحمـل إليـه سـعادة لا مثيـل لهـا... سـعادة مـا أبهاهـا ومـا أروعهـا!!. وخيـل إليـه أن سـتارًا خفيفًـا شـففًا ينسـدل حينـا بعـد حين بين خاطـره وبيـن الصـور التـي تتـراءى لـه... وقـد رأى مـن وراء ذلـك السـتار وجهًـا فـي ريعـان الصبـا، ثابتـا فـي مكانـه، ملائكـي القسـمات، تداعـب شـفتيه ابتسـامة رقيقـة، ولكـن عينيـه المسـبلتين تصوبـان نظـرة ذات قسـوة متصنعـة... لـم يكـن مـا رآه وجـه چيمـا، ولكنـه وجـه السـعادة نفسـها... وفـي النهايـة حانـت السـاعة الموعـودة... فـإذا السـتار الشـفاف ينحسـر عـن الوجـه المتألـق، وإذا الشـفتان تنفرجـان، والعينـان المسـبلتان تتفتحـان وتنظـران إليـه... لقـد لمحتـه العنايـة الإلهيـة... فـأى نـور أبهـى

مـن نـور الشـمس أضاء أعماقـه!!... وأي نشـوة سـرمدية، وطرب طاغ غمرا جوانحه!!.

كان كلمـا فكـر فـي السـاعة الموعودة... السـاعة التي يحتفـظ له الغد بهـا. أهمـل قلبـه خفقـه مـن خفقاتـه نظيـر خفقـه سـعادة تحـل محلهـا، ونظيـر خفقـه تلهـف متفاقـم متشـوف إلـى النشـوة المأمولـة.

يبـد أن هـذه اللهفـة وهـذا التشـوف لـم يعكـرا الصفـو الـذي نعـم به في ذلـك اليـوم... كانـا متمكنيـن منـه ولكنهمـا لـم يقفـا فـي سـبيله... لـم يمنعـاه مـن تنـاول وجبـة ثانيـة مـن الطعـام مـع إميـل. وكان هنـاك خاطر يمـر بذهنه بيـن آونـة وأخـرى كومـض البـرق... كان هاتـف يهتـف لـه: "آه لـو عـرف الناس مـذاق هـذه السـعادة!!"... ولكـن لهفتـه وتشـوفه لـم يمنعـاه حتـى مـن لعبة" القفـز فـوق الظهـور". لقـد أقبـل علـى هـذه اللعبـة مـع إميـل بعـد الغـداء، واختـار لهـا أرضا منبسـطة مكسـوة بالحشـائش... ولكنه بينمـا كان يرفع رجليه، ويحلـق كالطيـر ليقفـز مـن فـوق ظهـر إميـل، وبينمـا كان تارتـا جليـا يصاحـب تلـك الحـركات بنباحـه... رأى (أى سـانين) مـا أربكـه وأفزعـه... رأى فـي طـرف الملعـب ضابطيـن عـرف فيهما خصمه في المبارزة وشـاهد ذلـك الخصم... رأى ڤـون دونهـوف وهرڤـون ريختـر، وكان كل منهمـا يضع عوينة واحـدة على عينه اليسـرى وينظر مقطبًا... انتصب سـانين على قدميه، ودار فتناول سـترته (وكان قـد خلعهـا قبـل اللعـب)، وارتداهـا بسـرعة، وطلب إلـى إميل أن يحـذو حذوه ففعـل، وسـارع كلاهمـا إلـى خـارج ذلـك المكان.

ووصلا إلى فرنكفورت في ساعة متأخرة.

وقال إميل وهو يودع سانين:

ـ سيلومونني على هذا التأخير... ولكن لا أعبأ بذلك، فقد قضيت يومًا ممتعًا... ممتعًا جدًا.

ووجد سانين لدى عودته إلى الفندق رسالة من چيما في انتظاره. وكانت تحمل له بشرى موعد لقاء صباح اليوم التالي في بستان من البساتين التي تحيط بمدينة فرانكفورت من كل ناحية.

لكم اشتد خفقان قلبه!!. وكم تضاعف رضاه عن نفسه لأنه حقق لها رغبتها كاملة!!. أي ذخر يعده به ذلك الغد الفريد؟.. المستحيل؟. المحتوم؟!!. بل أي ذخر لا يعده به ذلك الغد؟!!...

سبر رسالة چيما بعينيه. وأذكرته خطوط حرف "الچيم" الذي ذيلت به رسالتها اعتدال أصابعها، وتناسق أجزاء يدها... ثم تذكر بحسرة أنه لم يضغط هذه اليد بشفتيه ولو مرة واحدة... وطفق يناجى نفسه: "إن حقيقة الإيطاليات تخالف المعروف عنهن... إنهن متواضعات حصينات لاسيما چيما، فهيَّ ملاك. بل إلهة... بل هي أطهر من تماثيل القديسات المرمرية."

"ولكن سيحين الموعد... وهو يعد بعيدًا..."

كان رجل واحد يشعر تلك الليلة في فرانكفورت بالسعادة الحقة. ورغم أن عينه قد غفلت إلا أنه يتمثل قول الشاعر:

"نعم أنام. ولكن قلبي اليقظ يظل ساهرًا."

لقد ظل قلبه يرف كجناح فراشة مستوية على أوراق وردة تسبح في أضواء شمس الصيف...

ـ 26 ـ

استيقظ سانين في الخامسة صباحًا، وانتهى من ارتداء ملابسه في السادسة، وبعد نصف ساعة أخرى كان يتمشى في البستان بالقرب من جوسق سبق لچيما أن أشارت إليه في رسالتها على أن يتم اللقاء الموعود حواليه.

وكان الصباح هادئًا دافئًا لم يكتمل إشراقه بعد. واغبر الجو حينًا بعد حين مؤذنا بهطول المطير. ولكن سانين لم يجد على أوراق شجرة قريبة منه أي أثر للبلل. ولاحظ بعد برهة رذاذا أشبه بقطرات الندى يكسوكم معطفه، ولكن ذلك الرذاذ كف كذلك عن الهطول. وسكن الجو حتى لكأن الكون لم يعرف الهواء قط. وتعطلت الأصوات فلم تنتقل من مكان إلى آخر. وتراكم عن بُعد ضباب أبيض. ونفذ في الجو عبير الورود وزهور الأعشاب البيض.

ولم تكن الحوانيت قد فتحت أبوابها بعد. ولكن طلائع المارة أخذت تظهر في الطرقات، وتعالى من وقت لآخر صوت عجلات عربة تسير وحيدة في البكور. بيد أن البستان كان خاليًا من رواده، ولم يظهر فيه إلا بستاني أخذ ينقر أحواض الزرع بمعوله في بطء وتراخ، وامرأة عجوز عرجاء ذات رداء أسود كانت تجتاز الممر الموازي للبستان. ووقتما رأى سانين تلك المسكينة عن بعد لم يخطئ ويظنها

جيما ولـو للحظـة مـن الزمـن، ولكـن قلبـه قفز مع ذلـك في صـدره إذ رأى شـخصًا يقبـل صوبـه... وقد تتبعهـا بنظره حتـى توارت.

ودقـت سـاعة برج الكنيسـة سـبع دقـات معلنة موعـد اللقاء، فَتَسـمّر سـانين فـي مكانـه... أمـن المحتمـل ألا تحضر؟؟... وسـرت قشـعريرة باردة فـي بدنـه. ثـم سـرت فيـه بعـد لحظـات فشـعريرة مماثلـة، وإن اختلـف سـببها، فقـد التقطـت أذنـا سـانين وقـع أقـدام، وحفيـف ثـوب حريـري... والتفـت إلـى مصـدر الصـوت... وإذا هـي بعينهـا مقبلـة صوبـه...

سـارت إليـه فـي ممـر البسـتان، وكانـت ترتـدى سـترة شـهباء وقبعـة سـوداء. ونظـرت إليـه دارت برأسـها، ولـم تتوقـف حينما وصلت إلـى مكانه بـل واصلت سـيرها مسـرعة.

وهتف بصوت مختنق:

ـ جيما!...

وأومـأت إليـه إيمـاءة خفيفـة دون أن تتوقـف عن المسـير. وتقطعت أنفاسـه فأخـذ يلهث. وسـار وراءهـا بسـاقين لا تطاوعانـه إلا بصعوبة.

جـاوزت جيمـا الجوسـق، وعرجـت على اليميـن، ومرت بنافـورة يحيط بهـا مـاء ضحـل، ويرفـرف حولهـا عصفـور... وواصلـت سـيرها بيـن أعشـاب وأشـجار عاليـة. ثـم ارتمـت آخـر المطاف علـى مقعد يتوارى خلـف أغصان متشـابكة... واتخـذ سـانين لـه مكانًا إلـى جوارها.

ومـرت دقيقـة سـاد فيهـا الصمـت. بـل إنها لم تنظـر إليه خلالهـا، وهو كذلـك لـم يرفـع بصـره إلـى وجههـا، ولكنـه خفضـه إلـى يدهـا التـي كانت تطـوق مقبـض مظلتهـا... ومـاذا عسـاهما أن يقـولا؟... وهـل هنـاك كلمات أبلـغ دلالـة علـى مـا يشـعران بـه مـن وجودهمـا هنـا فـي هـذه السـاعة المبكـرة... منفرديـن... ملتصقيـن علـى هـذا النحـو؟!...

وبادرها سانين بقوله بعد فترة الصمت:

ـ أأنت ساخطة علي؟...

لـم تكـن هنـاك عبـارة أسـخف من هـذه يبتـدئ بهـا سـانين الحديث، وهـو لـم يفتـه ذلـك، ولكن حلقـة الصمت المسـتحكمة قـد انحطمت على أية حـال... وعقبـت چيما:

ـ أنا!... ساخطة عليك!!. ولماذا؟!... لا بالطبع.

وتسلسل قوله:

ـ إلا يساورك شك في صدقي؟

ـ أتقصد صدق ما ورد في رسالتك؟

ـ نعم.

وطأطـأت چيمـا رأسـها ولـم تجـب. وأفلتت المظلـة من يدهـا، ولكنها سـارعت فالتقطتهـا قبـل أن تقـع علـى الأرض. واندفع سـانين فـي قوله:

ـ آه!. صدقيني!... صدقي كل كلمة كتبتها لك!

وتبدد كل أثر لتهيبه. واشتعل حماسة وهو يقول:

ـ إذا كانت في هذا الوجود حقيقة... حقيقة مقدسة لا تدحض، فهيَّ حبي لك... هيامي بكِ... يا چيما!

واسترقت إليه النظر، وكادت المظلة تسقط من يدها.

ومد يديه إليها متضرعًا دون أن يجرؤ على لمسها، وطفق يردد قوله:

ـ صدقيني... صدقيني!... كيف أستطيع أن أقنعك؟!...

وأجابت وهي تعاود النظر إليه:

ـ نبئني يا مسيو ديمترى... أكنت في ذلك اليوم الذي حاولت فيه أن تنصحني... أن تقنعني أكنت يومئذ تعلم؟... أكنت تشعر؟...

قال مدافعًا عن نفسه بحرارة:

ـ نعم، كنت أشعر... ولكنى لم أعلم... لقد أحببتك منذ اللحظة الأولى... أحببتك من أول نظرة. ولكنى لم أدرك مدى ما أصبح لك من مكانة في فؤادي... ثم إني أنبئت بخطبتك!!... فأما عن المهمة التي كلفتني بها أمك... مهمة نُصحك، فإني أتسأل أولا عما إذا كان في مقدوري أن أواجهها برفض طلبها؟؟... وإخال ثانيا أنى أديت تلك المهمة على نحو يتيح لك أن تحذري...

ورنق الصفو وقع أقدام ثقيلة. وظهر من وراء الشجر المتسلق رجل ضخم القامة، يحمل حقيبة كبيرة على إحدى كتفيه، وتدل هيئته على أنه أجنبي. رمق العاشقين المتجاورين فوق المقعد بنظرة وقحة اعتادها أولئك الغرباء، وسعل بصوت عال، ثم واصل سيره.

واستأنف سانين حديثه بعد أن توارى الرجل:

ـ ذكرت لي أمك أن فسخ الخطبة لابد أن يحدث فضيحة مدوية. قطبت چيما وهي لا تكاد تشعر بما فعلت. وأردف سانين:

ـ وأشارت كذلك إلى أن تصرفي مع الضابطين أتاح لألسنة السوء إلى حد ما أن تلوك الأقاويل التي لا تسر. ولذلك فإني أتحمل "نوعا من المسئولية" يوجب على محاولة إقناعك بالإبقاء على خطبة هركلوبر.

ومرت چيما بيدها على شعرها، وقالت:

ـ يا مسيو ديمترى! أرجو أن تكف عن ذكر تلك الخطبة، فأنا لن أصبح قط زوجة للهركلوبر... إني صارحته بفسخ خطبته.

ـ فسخ خطبته!! ومتى كان ذلك؟

ـ أمس.

ـ أصارحته بذلك وجها لوجه؟...

ـ نعم... وجها لوجه... في منزلنا... فقد جاء أمس لزيارتنا.

ـ چيما!!... أهذا يعنى أنك تحبينني أنا؟...

ودارت إليـه بكُليتهـا، وسـقطت يداهـا علـى حجرهـا مقلوبتيـن إلـى أعلـى، وهمهمـت بصـوت أشـبه بالهمـس:

ـ أكنت أحضر إليك اليوم لو لم يكن الأمر كذلك؟؟.

وتنـاول سـانين يديهـا الحائرتيـن، ورفـع راحتيهمـا إلـى عينيـه، ثـم خفضهمـا إلـى شـفتيه... وهتـك عندئـذ السـتر الـذي انسـدل أمـس أمـام عينيـه... فـإذا السـعادة تتجلى أمامـه!... وإذا وجههـا يبدو مشـرقًا متألقًا!...

ورفـع سـانين وجهـه ليلقـى علـى چيما نظـرة مباشـرة جريئـة. وبادلته النظـر رافعـة بصرهـا إليـه مـن تحـت جفنيـن مسـبلين. والتمعـت عيناهـا وراء قنـاع شـفاف مـن دمـوع السـعادة. ولـم ترتسـم علـى وجهها ابتسـامة فحسـب، ولكـن ضحكـة... ضحكـة سـعيدة صامتة.

وهـم أن يضمهـا إلـى صـدره، ولكنهـا تزحزحـت عنـه قليـلا محتفظـة بضحكتهـا السـعيدة الصامتـة. وهـزت رأسـها... وكأنما كانـت عيناها تقولان له :

ـ انتظر!...

وصاح الرجل:

ـ آه، يا چيما! يا حبيبتي!. أكان يخطر ببالي أنك ستحبينني... أنت؟...

وارتجـف قلبـه ارتجـاف وتر الموسـيقى، بـل تهدج وانتفـض حين نطق فمـه كلمة حبيبتـي لأول مرة.

وأجابت چيما بصوت ناعم:

ـ وأنا كذلك لم يخطر هذا ببالي.

ـ أكان يخطـر ببالـي يـوم مررت بمدينـة فرانكفورت لأقضـي فيها بضع سـاعات، أنني سـأجد فيها سـعادة حياتـي بأكملها؟

وسألته چيما في شغف:

ـ حياتك بأكملها؟ أهذه هي الحقيقة... دون مبالغة؟

وأجاب وهو يشعر بحماسة متجددة:

ـ نعم، سعادة حياتي بأكملها... السعادة الأبدية...الأبدية.

واقتـرب منهمـا معـول البسـتاني حتـى صار علـى بعـد خطوتيـن مـن المقعـد الـذي يجلسـان فيـه. فهمسـت چيمـا فـي أُذن عاشـقها:

ـ لنعد إلى دارنا... سويًا. أتود ذلك؟

ولـو أنهـا قالـت لـه وقتئـذ: "ألقـى بنفسـك فـي اليـم". أتـود ذلـك؟ لوجدتـه هـوى إلـى أعمـاق اليـم قبـل أن تتـم عبارتهـا.

وخرجا من البستان سائرين جنبًا إلى جنب، واتجها صوب دار چيما، وتحاشيا شوارع المدينة المزدحمة بالسكان، واختارا شوارع أطرافها الهادئة.

- 27 -

مشـى سـانين ملتصقًـا بچيمـا وإن كان لـم ينقطـع، بيـن حيـن وحيـن، عـن التمهـل فـي مشـيته، والتخلـف عنهـا بضـع خطـوات، بيـد أن عينيه لم تتحـولا عنهـا لحظـة، وكذلـك لم يكـف ثغره عن الابتسـام. وكان يبـدو عليها أنهـا علـى عجـل، ولكنهـا كثيـرًا مـا كانـت تقـف رغـم ذلـك بغتـة دون أن يدعوهـا إلـى الوقـوف داع. وفـي الحـق إنهمـا كانـا يتحـركان وكأنهمـا فـي حلـم... كان الانفعـال يصبـغ وجنتيهـا بحمرة الـورد، ويصبـغ وجنتيه بصفرة الجـودى، ذلـك أن تسـليم كل منهمـا قلبـه للآخـر منـذ دقائـق كان طاغيًـا غريبًـا رائعًـا إلـى حـد أن حيـاة كل منهمـا قد تحـورت فجأة، وتغيـرت كلية، ولـم يفـق كلاهمـا مـن هـول مـا حـدث، ولـم يـدركا إلا أن زوبعـة فاجأتهما شـبيهة بتلـك الزوبعـة الليليـة التـي كادت تُلقـى بـكل منهمـا فـي أحضـان الآخـر. بـل لقـد شـعر سـانين، وهـو يواصـل سـيره، كأن چيمـا قـد سـلطت عليهـا أضـواء جديـدة... لاحـظ في مثل غمضـة العين أن لمشـيتها وحركاتها حسـنات لـم يلاحظهـا مـن قبـل... ويالعذوبـة تلـك الحسـنات وسـحرها!!... ولـم يفـت چيمـا كذلـك أن نظرتـه إليهـا تغيـرت هـي الأخرى.

كان كل منهمـا يـذوق طعـم الحـب لأول مـرة، فتجلت بيـن جوانحهما معجـزات الحـب الأول جميعًـا. ومـا الحـب الأول إلا ثـورة جامحـة يقـف

فيها الصبا وراء المتاريس، ويحطم رتابة الحياة اليومية في مثل ومض البرق، ويرفع عامه المشرق الخفاق، موطنا النفس على استقبال ما يجود به القدر، سواء في ذلك الموت والحياة، وعلى الاحتفاء به في حماسة ملتهبة.

وقال سانين فجأة:

ـ من هذا؟ أهو رجلنا الهرم؟...

وأشار إلى رجل يمر بهما مسرعًا مداريًا وجهه حتى لا يلاحظه أحد، ووجد الفرصة لإشباع حاجته إلى محادثة چيما في موضوع غير موضوع الحب الذي أصبح مسلما به... مصونًا مقدسًا. كان محتاجًا إلى محادثتها في موضوع مختلف كل الاختلاف... وأجابت چيما على سؤاله:

ـ نعم، إنه پانتاليونى... وأغلب الظن أنه ظل يتبعني منذ مغادرتي الدار في الصباح. وقد قضى طوال أمس وهو يسير في أعقابي... يخيل إلى أنه حزر...

وقال سانين:

ـ أحزر سرنا؟...

وكانت عبارة چيما الأخيرة قد أثلجت صدره، وهل كان هناك وقتئذ قول تقوله چيما لا يشيع الجذل في كيانه؟!!...

وطلب إليها أن تحكى له تفاصيل ما حدث في اليوم السابق.

وسارعت في الفور إلى سرد حكاية مرتبكة تقطعها البسمات العذبة،

والتنهدات القصيرة، والنظرات المتألقة الخاطفة التي كانت تتبادلها مع سانين. وقالت له فيما قالت إن أمها حاولت بعد الحديث الذي جرى بينهما في الحديقة؛ أن تستدرجها إلى البوح بما استقر رأيها عليه. ولكنها (أي چيما) لم تشف غليل أمها، وطلبت إليها مهلة أربع وعشرين ساعة تُعلن بعدها قرارها. وكم عانت في سبيل التمسك بتنفيذ ما اعتزمته، وكم ذللت من صعاب... وفي خلال تلك المهلة زارهم هركلوبر دون توقع، وكان أشد أناقة وضبطا لحركاته من العادة... وروت چيما لسانين كيف عبر هركلوبر عن تقززه من تصرف الروسي الغريب، وتقحمه غير المغتفر. وكان يقصد بالطبع تلك المبارزة التي يعدها (على حد تعبيره) مهينة له، وقد طلب أن يوصد بابها في وجه ذلك الدخيل المعتدى لأنه (وهنا تغير صوت چيما وحركاتها إذ أخذت تُقلد ذلك المتصنع التافه بدقة) "مس شرفي، وأظهرني أمام الناس بمظهر العاجز عن حماية سمعة خطيبتي فيما إذا بدا لي ذلك أليق وأفضل. وستعلم غدًا فرانكفورت بأسرها أن غريبًا بارز أحد الضباط بسبب خطيبتي. إنها لوصمة تلطخ شرفي!" واستأنفت چيما حكايتها قائلة "وتصور أن أمي كانت تؤيده في كل ما يقول... ولكنى لم أتردد في إخباره أنه لم يعد هناك داع للقلق على

شرفه وشخصه وما قد يلحقه من إهانة بسبب أقاويل الناس عن خطيبته، لأنه لم تعد خطيبة تسبب هذه المضايقات. وقد صارحته بأني لن أكون له زوجة قط... وأعترف لك بأني كنت أود أخذ رأيك قبل فسخ الخطبة على هذا النحو... ولكنه جاء إلينا... ولم أستطع كبح جماحي. أما والدتي فقد صرخت فزعًا... وتركتهما ودخلت الغرفة الأخرى ثم عدت بخاتم الخطبة فسلمته إليه - ولعلك لم تلحظ أنى نزعت ذلك الخاتم من إصبعي منذ يومين - وقد غاظه ذلك أشد الغيظ، ولكن غروره وخيلاءه حالا دون لجاجة في القول، وسرعان ما غادر منزلنا. وكان على بالطبع أن احتمل حنق أمي... وآلمني أشد الألم أن أراها تكابد ذلك العذاب. بل لقد خيل إلى وقتئذ أنى تسرعت فيما أقدمت عليه. ولكنك أدرى بسر ما حدث... فقد أفصحت رسالتك عن المخبوء... بيد أنى كنت على علم به حتى قبل الرسالة.".

ودس سانين هذا السؤال:

ـ أكنت على علم بأني أحبك؟...

ـ نعم، كنت أعلم أنك تحبني.

ومضت چيما تثرثر. وكم تاهت في الكلام فتحدثت كيفما اتفق. وكانت تخفض صوتها وتبتسم، فإذا مر عابر سبيل توقفت فجأة عن القول... وأنصت سانين إليها مأخوذا بنشوة الحب، مفتونًا بصوت حبيبته كما فتن في اليوم السابق بخطها.

وعاد الكلام يتدفق من فمها مختلطًا بعضه ببعض:

ـ أمـي منزعجـة أشـد الانزعـاج. وهـي لا تسـتطيع أن تعقـل أنـى أمقـت رجـلا مثـل هوكلوبـر، وأنـى لـم أقبـل خطبتـه بدافـع حبـي لـه، ولكـن قبلتهـا إذعانًـا لهـا بعـد إلحاحهـا علـى أن أرضـى بـه خطيبًـا... وهـي تشـك فيـك... وأصارحـك القـول إنهـا علـى يقين من أنى مُغرمـة بك. بيد أن هـذه الفكرة لم تخطـر ببالهـا يـوم طلبـت إليـك أن تنصحنـي! يا له مـن طلب عجيـب!! أليس كذلـك؟ وهـي تجـدك اليـوم خبيثًـا مرائيًـا. وتقـول إنـك كنـت تسـتغل ثقتهـا. ولذلـك فهـيَّ تحذرنـي منـك، وتزعـم أنـك سـتخدعني كمـا خدعتها.

وصاح سانين:

ـ ولكن... ألم تُخبريها يا چيما!!

ـ كلا بالطبع... أكان يجوز لي ذلك قبل التحدث إليك في الأمر؟

ومد سانين يديه صائحا:

ـ أرجـو يـا چيمـا أن تصاريحهـا الآن على الأقل بكل شـيء... اذهبي بي إليهـا... فأنـا حريص علـى أن أثبت لها أنى لسـت مخادعًا...

وكان صـدره يخفـق بالمشـاعر المتقـدة الكريمـة. وقالـت چيمـا وهي تنظـر إليـه محملقة:

ـ أتعنـى أنـك تريـد الذهـاب إلـى أمـي الآن؟... أمـي التـي تؤكـد أنـك لـن... أنـه لـن تكـون بيننا علاقة وثيقـة، وأن الأمـر فيما بيننا سـيتمخض عن لا شيء!...

وكانت هناك كلمة عجز فم چيما عن النطق بها رغم أنها ظلت تلذعه بمثل كي النار. ولم يفت سانين ذلك، وشعر بمتعة السبق إلى النطق بها وهو يقول:

ـ إن الزواج بك يا چيما، وقبولك لي زوجًا... إني لا أتصور سعادة أتم من تحقق ذلك.

ولم تعد هناك حدود لحبه ومروءته وتصميمه...

وكانت چيما قد توقفت قليلا وهي تنصت إليه فما سمعت قوله هذا حتى عاودت السير بخطوات أسرع من ذى قبل... بل لقد كان يبدو أنها تحاول الهرب من فرط السعادة الغامرة، غير المتوقعة، وغير المحتملة لشدة وقعها.

بيد أن ركبتيها ارتجفتا فجأة، فقد ظهر لها هركلوبر من ركن الشارع المقابل الذي لا يبعد غير خطوات. وكان يرتدى قبعة جديدة، ومعطفًا جديدًا، واعتدل قده اعتدال الرمح، والتوت خصائل شعره التواء شعر الكلاب الصغيرة، ووقعت عينه في أول الأمر على چيما، ثم على سانين، فأدار وجهه الوسيم وهو يقبل عليهما مختالا... ويبدو أنه نخر في صوت مكتوم... وأذهلت المفاجأة سانين لبرهة قصيرة، ولكنه عندما التفت إلى هركلوبر الذي اتخذ سيماء الاستخفاف والدهشة والشفقة، ورآه مورد الخدين على ذلك النحو المبتذل، تملكته فورة من الغضب، واتجه إليه وهو يوسع الخطى.

ولكـن چيمـا أمسـكت به من ذراعه، ثـم تأبطها بحـزم... وصوبت نظرة صريحـة إلـى خطيبها السـابق، فضـاق جفنـاه، وانقبض ظهـره، وانحرف عن الطريـق وهـو يتمتم من بيـن أسـنانه: "النهاية المألوفة لـكل أغنية".

ومر بهما متبخترًا رشيقًا كعادته.

وتسأل سانين وهو يهم بالهجوم عليه:

ـ ماذا يقول هذا الوغد؟

ولكـن چيمـا ثنتـه عـن عزمـه، وحملتـه علـى مواصلـة سـيره وهـي لا تـزال متعلقـة بذراعـه.

وظهـر دكان "روزيللـى" عـن بعـد. وتوقفـت چيمـا عـن السـير ثانيـة، وسـألت سـانين:

ـ ديمتـرى!... مسـيو ديمتـرى!!... إننـا لم ندخـل الدار بعـد، ولم نفاتح أمـي فـي الأمـر... فأمامك فسـحة مـن الوقـت للتـروي، وإذا... أعنـى أنك لا تزال حـرًا يـا ديمترى.

واقتصـرت إجابـة سـانين على اقتيادهـا إلى داخل الـدار، وضغط يدها على صـدره بقوة.

وصاحت چيما عندما دخلت على أمها الغرفة مع سانين:

ـ أمي! أمي! لقد جئت إليك بالرجل الحق...

ـ 28 ـ

لـو أن چيمـا أنبـأت أمهـا بأنهـا جلبـت لهـا وبـاء الكوليـرا، أو جلبـت لهـا المـوت نفسـه، لمـا قابلـت فـراو لينـور النبـأ بيـأس أشـد مـن اليـأس الـذي اعتروهـا وقتـذاك. فقـد انـزوت فـي ركـن مـن الغرفـة، وجلسـت هنـاك فـي مواجهـة الحائـط، وانفجـرت باكيـة. بـل لقـد ولولـت كمـا تولـول الفلاحـة الروسـية وهـي تـودع جثـة زوجهـا أو ولدهـا. وأربـك ذلـك چيمـا فـي أول الأمـر، وغلبهـا علـى أمرهـا إلـى حـد أنهـا لـم تتوجـه إلـى أمهـا، بـل تسـمرت وسـط الغرفـة فـي ذهـول. أمـا سـانين فقـد طـاش صوابـه، وتهيـأ هـو نفسـه للبـكاء. واسـتمر عويـل الأرمـل سـاعة كاملـة دون أن يجـدي معهـا عـزاء. وقـرر پانتاليونـى أن يغلـق بـاب الـدكان حتـى لا يدخلـه غريـب ومـن حسـن الحـظ أن السـاعة كانـت مبكـرة، ولـم يحـن بعـد وقـت تـردد العمـلاء وذهـل الرجـل الهـرم لمـا جـرى... وهـو لـم يحبـذ تصـرف چيمـا وسـانين علـى أسـاس تسـرعهما فـي اتخـاذ هـذا القـرار السـريع بشـأن مسـتقبل حياتهمـا. ولكنـه كان فـي قـرارة نفسـه مرتاحًـا لهـذا التصـرف، ومسـتعدا لمناصرتهمـا فـي حالـة حاجتهمـا إلـى نصرتـه، فقـد كانـت كراهيتـه لهركلوبـر شـديدة إلـى أقصـى حـد. وكان إميـل يعـد نفسـه واسـطة خيـر بيـن شـقيقته وصديقـه، وشـعر برضـاه عـن نفسـه للنهايـة السـعيدة التـي انتهـت إليهـا الأمـور. ولـم يكـن فـي وسـعه أن يـدرك السـبب الـذي دفـع أمـه إلـى ذلـك الغضـب الشـديد، واسـتخلص بالبداهـة أن النسـاء لا عقـل لهـن علـى أيـة حـال.

وكان سانين أسوأ الجميع حالا. فهو لم يحاول أن يقترب من فراو لينور إلا تعالى عويلها، ولوحت له بيديها أن يبتعد. وعبثا صاح من بعيد معلنًا أنه جاء لخطبة چيما... وفي الواقع إن استياء فراو لينور من نفسها كان يغلب على استيائها من سانين فهيَّ لا تريد أن تغتفر لنفسها غفلتها عما كان يجرى حولها. وكانت تنادى من خلال نشيجها.

ـ او أن چيوڤان باتيستا كان على قيد الحياة لما حدث شيء من هذا وقال سانين لنفسه. "رباه! ما الأمر؟!... إن ما يحدث مجرد سخف!" ولم يجرؤ على التطلع إلى چيما، وهي كذلك لم تستطع أن ترفع بصرها إليه، وهدهدت جزعها بالانصراف إلى أمها تلاطفها وتسترضيها. وكانت فراو لينور في أول الأمر تدفع ابنتها بعيدًا عنها كما كانت تدفع الآخرين كلما حاول أحد الاقتراب منها لتهدئة جأشها.

وخفت حدة العاصفة رويدًا رويدًا حتى هدأت. وتوقف عويل فراو لينور، وسمحت لابنتها أن تقودها من ركن الغرفة إلى مقعد وثير قريب من النافذة، وأن تسقيها جرعات من الماء المعطر بروح البرتقال. وسمحت لسانين لا، لم تسمح له أن يقترب منها... ليس هذا... وإنما سمحت له أن يبقى في الغرفة (كانت قبل ذلك تُكرر طلبها إليه أن يبارح الغرفة فورًا)، وكفت عن مقاطعة أقواله، وانتهز العاشق المتدله فرصة الهدوء الطارئ فأبدى من زلاقة اللسان ما لفت إليه النظر. ومن المشكوك فيه أنه كان يستطيع مطارحة چيما

نفسـها بمـا يكنـه لهـا مـن أعمـق المشـاعر وأطيـب التمنيات فـي مثل قوة الإقنـاع هـذه، لقـد عبـر عـن أصـدق الأحاسـيس وأشـرف النيـات التـي لـم يختبـر نظيرهاغير"ألماڤيڤـا" فـي قصـة حـلاق إشـبيليا. وهـو لـم يحـاول أن يكـذب علـى فـراو لينـور، أو يكـذب علـى نفسـه فيخفـى مآخـذ خطبتـه لچيمـا، بيـد أن تلـك المآخـذ لـم تكـن فـي الواقـع إلا سـطحية. فهـو حقًـا غريـب، وصلتـه بالأسـرة قريبـة العهد، ولا يعـرف أحد من أفرادها شـيئًا عن حياتـه وعـن إيـراده، ولكنـه كان علـى أتـم اسـتعداد لتقديـم الأدلـة الوفيرة علـى أنـه رجل محتـرم، وغير معدم. وهنـاك كثيرون مـن مواطنيه يمكن أن يؤيـدوا ذلـك كل التأييـد. وهـو يأمـل أن يوفـر لچيما أسـباب السـعادة، وأن يتمكـن مـن تعويضهـا عـن فراقهـا لأهلهـا بمختلـف ألـوان المتعـة... ولكن كلمـة "الفـراق" لـم تكـد تخرج من فمه حتى أفسـدت كل شـيء، فـإذا فراو لينـور ترتجـف من رأسـها إلى قدميهـا، وتتمايل علـى مقعدهـا... ولم يتوان سـانين عـن اسـتدراك مـا قالـه بوصـف ذلـك الفـراق بأنـه فراق مؤقـت، بل لعـل الحالـة لا تسـتدعى حـدوث فـراق ما.

وصادفـت فصاحـة سـانين آذانـا منصتـة. وأخـذت فـراو لينـور تنظـر إليـه بعينيـن خلتـا مـن دلائـل النفـور والغضـب وإن احتفظتـا بمعانـى العتـب والحسـرة ثـم سـمحت لـه بالاقتـراب منهـا، بـل لقـد أذنـت لـه فـي الجلـوس إلـى جانبهـا (وكانـت چيما تجلـس في الجانـب الآخر). ثـم عاتبته بالقـول بعـد عتـاب النظـر، ودل ذلـك علـى أنهـا بـدأت تليـن. وطفقـت تشـكو حظهـا السـيء، ولكـن حدة شـكواها هدأت شـيئًا فشـيئًا، واتسـمت

باللين والعذوبة. وبدأت توجه مختلف الأسئلة إلى سانين وچيما، كل بدوره... ثم سمحت لسانين أن يضع يده في يدها دون أن تبادر إلى انتزاعها منه... ثم ذرفت وابلا من الدموع مرة أخرى... ولكن بُكاءها عبر في هذه المرة عن معنى مغاير لما سبق... ثم ارتسمت على ثغرها ابتسامة حزينة، وذكرت زوجها المغفور له، وتحسرت على عدم وجوده في مثل هذا اليوم... ولكنها قصدت كذلك من ذكره معنى مغايرًا لما سبق...

ومرت برهة أخرى فإذا المخطئان يركعان أمامها، وهي تضع يدها على رأس كل منهما على التوالي... ثم مرت برهة جديدة فإذا هما ينهالان عليها تقبيلا وتدليلا، وإذا إميل يجرى إلى الغرفة الأخرى متهلل الوجه ويباشر صنع قراطيس للحلوى.

وأطل پانتاليونى على الغرفة، وابتسم ابتسامة امتزج فيها الإشراق بالعبوس. ثم انثنى راجعًا إلى الدكان ليفتح بابه الخارجي

ـ 29 ـ

تحـول قنـوط فـرار لينور إلـى كآبـة، وتحولـت كآبتها إلى استسـلام في سـرعة غيـر عاديـة. بـل إن استسـلامها الهـادئ نفسـه لـم يعوق فـي تحوله إلـى غبطـة مكنونـة بذلـت السـيدة قصاراهـا فـي سـبيل كبحهـا وكتمانهـا محافظـة علـى الوقـار والاحتشـام. والواقـع أنهـا شـعرت بميـل إلـى سـانين منـذ وقعـت عينهـا عليـه لأول مـرة. وعندمـا اعتـادت فكـرة مصاهرتـه لـم تجـد فـي تلـك الفكـرة مـا يشـوبها. وإن كانـت قـد حسـبت أن مـن واجبها الاحتفـاظ إلـى حيـن بسـيماء القلـق والأنزعـاج والأسـى. ثم تكومـت في ذا كرتهـا الأحـداث الهامـة التـي جـرت فـي الأيـام القليلـة الماضيـة. ورأت من واجبهـا أن تمطـر سـانين بوابـل من مختلف الأسـئلة. أما سـانين الذي غادر فندقـه فـي الصبـاح الباكـر لمقابلـة جيما، مسـوقًا بدافع عاطفته السـحرية، خالـي الذهـن من فكـرة الزواج، فقد اضطلـع الآن بدور الخاطـب راضيًا كل الرضـى إن لـم يكـن مقبلا عليه متحمسًـا ولـم يتوان عـن الإجابـة المفصلة علـى الأسـئلة المنهالـة عليـه جميعها.

وعندمـا اطمأنـت فـراو لينـور إلـى أن صهرهـا الجديـد ينتمـي إلـى طبقـة الأشـراف، بـل وبعدمـا أظهـرت دهشـتها مـن أنـه ليـس أميـرًا مـن الأسـرة المالكـة، اتخـذت سـيماء الجـد، وحذرتـه أنهـا سـتتحدث إليـه فـي صراحـة تامـة لأن واجـب الأمومـة يفـرض عليهـا ذلـك. وأجـاب سـانين

أنـه لـم يتوقـع منهـا غيـر الصراحـة التامـة، ورجاهـا ألا تقتصد فـي أي قول، وألا تحـرص علـى مراعاة شـعوره.

وذكـرت فـراو لينـور أن هركلوبـر (عندمـا نطقـت بهذا الاسـم صعدت زفـرة قصيـرة، وزمـت شـفتيها لمـدة لحظـة)... هركلوبـر... خطيـب چيمـا السـابق، يربـو دخلـه علـى ثمانيـة آلاف جايلـدر، ويـزداد هـذا الدخـل عامًا بعـد عـام. وهـي تـود لذلـك أن تعـرف مقـدار دخل سـانين.

وتمتم سانين:

ـ ثمانيـة آلاف جايلـدر!... هذا المبلغ يسـاوى عندنا في روسـيا خمسـة عشـر ألـف روبـل... إن دخلـي يقـل عن ذلـك بكثيـر. فأنا أمتلـك ضيعة في "تولاجوبرنيـا" يمكـن أن تغـل... تغـل بالفعـل، فيمـا إذا أحسـنت إدارتها، ما يقـرب مـن خمسـة أو سـتة آلاف... وفـي حالـة التحاقـي بخدمـة الحكومـة أسـتطيع الفـوز بوظيفـة لا يقـل مرتبها عـن ألفين...

وصرخت فراو لينور:

ـ وظيفة في روسيا!!. إن هذا يعنى ارتحالي مع چيما إلى روسيا!...

وأضاف سانين بقوة:

ـ ولكـن أسـتطيع الالتحـاق بوظيفـة فـي السـلك السياسـي، فـان لـي بعـض الأصدقـاء مـن ذوي النفـوذ... وهـذا يعنـى أن أتمكـن مـن العيـش

خارج روسيا... بل إني أعرض عليك ما هو خير من ذلك. فأنا أستطيع بيع ضيعتي وتوظيف ثمنها في مشروع تجارى... في توسيع دكانك مثلا.

ولم يغب عن سانين أن ما يقوله محض هراء، ولكن فورة من التهور جمحت به وقتذاك، وتطلع إلى چيما التي لم ترتح إلى هذا الحديث الدنيوي فأخذت تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا... وتطلع إليها فإذا العقبات جميعها تتبدد في نظره، وإذا هو على أتم استعداد لتسوية أية مشكلة، والقيام بأي عمل في سبيل تجنيبها أقل مضايقة.

وقالت فراو لينور بعد تردد قصير:

ـ لقد عرض على هركلوبر هو أيضا أن يمدني بقدر من المال لتوسيع تجارتي.

وصاحت چيما بالإيطالية:

ـ ماما!... بالله عليك يا ماما...

وأجابت أمها بنفس اللغة.

ـ يجب مناقشة هذه الأمور في وقتها يابنيتى...

وظلت ترمق سانين بين حين وحين وتسأله عن إجراءات الزواج وقواعده في روسيا، وعما إذا كان هناك مانع من التزوج بكاثوليكية كما هي الحال في پروسيا؟ (كانت ألمانيا بأسرها تذكر في ذلك

الحين، أي حوالي إلى عام ١٨٤٠، النزاع الذي قام بين الحكومة الپروسية ورئيس أساقفة كولونيا حول الزواج المختلط) وبدت عليها دلائل الارتياح عندما علمت أن ابنتها ستنتظم في زمرة النبلاء على أثر زواجها بسانين، وقالت له:

ـ ولكنك ستضطر إلى العودة لروسيا أولا. أليس كذلك؟

ـ لماذا؟.

ـ عجبًا!... لتحظى بموافقة الإمبراطور على زواجك!...

وأخبرها سانين أن ذلك غير ضروري قط. ولكنه سيصر مع ذلك إلى القيام بزيارة خاطفة لروسيا قبل الزواج (عندما نطق بكلمة "الزواج" اعتصر الألم قلبه، ونظرت إليه چيما، وحزرت ما يعتمل في نفسه، وأطرقت وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل) وسينتهز فرصة رجوعه إلى وطنه لمحاولة بيع ضيعته... بيد أنه سيعود بالمال الضروري على أية حال.

وقالت فراو لينور.

ـ أتستطيع يا ترى أن تأتى لي كذلك بمعطف من الفرو الاصطراخانى؟

فلقد سمعت أن في روسيا معاطف من هذا النوع بديعة جدًا... ورخيصة جدًا...

وصاح سانين:

ـ هذا يسرني بالطبع، وسأحضر لچيما معطفًا من ذلك النوع أيضًا.

وأضاف إميل وهو يدس رأسه في الغرفة.

ـ وجئنى أنا أيضا بقبعة من الجلد المراكشى مطرزة بخيوط فضية.

ـ حسنًا... سأجيئك بالقبعة... وبنعل لپانتاليونى.

وقال فراو لينور:

ـ كفى حديثًا عن هذه الأمور التافهة فنحن نعالج أمورًا هامة. ثم أضافت المرأة العملية.

ـ هناك مسألة أخرى. لقد قلت إنك ستبيع ضيعتك، فهل تنوى أن تبيع معها فلاحيك كذلك؟...

وشعر سانين بوخزة تدمى قلبه. فقد تذكر ما قاله في يوم من الأيام أثناء مناقشة دارت بينه وبين مدام روزيللى وابنتها عن نظام رق الفلاحين... تذكر عباراته بنصها إذ أكد يوم ذاك، مُبديا أشد الامتعاض، أنه لن يبيع فلاحيه بحال من الأحوال، فما من قوة في العالم يمكن أن تدفعه إلى ذلك. وهو يعد بيع الآدميين عملا يناقض الشرف والخُلق الكريم... وقال بعبارات متعثرة:

ـ سأبذل قصارى جهدي في سبيل بيع ضيعتي إلى صديق أُحسن به الظن... ولعل فلاحي الضيعة يؤثرون شراء حريتهم بالمال.

وقالت فراو لينور:

ـ هذا أحسن حل... ففي الحق أن بيع البشر...

وظهر پانتاليونى وراء إميل، وصاح:

ـ بربرية... "بارباري!... بارباري!..."

وتوارى بمثل السرعة التي ظهر بها ضاربًا شعره المستعار بيده.

وقال سانين وهو يختلس نظرة إلى چيما:

ـ أنا أنفر من هذا.

وخيل إليه أنها لم تسمع عبارته فقال لنفسه "حسنا... لا بأس".

وسارت المناقشة العملية على هذا النهج إلى قرب ميعاد الغداء، وأصبحت فراو لينور قبيل انتهاء تلك المناقشة وديعة أليفة، وصارت تنادى سانين باسمه دون كُلفة، وترفع له إصبعها في إيماءة تأنيب ودي، وتهدده بالانتقام منه لإقدامه على خداعها. وضيقت عليه الخناق بأسئلتها الدقيقة المفصلة عن كل ما يتعلق بأسرته زاعمه أن هذه مسألة دقيقة هامة. وفرضت عليه أن يصف لها تفاصيل حفلة الزفاف وفق ما ترسمه الكنيسة الروسية. وكانت تستسلم لنشوة مُذهلة كلما تخيلت ابنتها في ثوب الزفاف الأبيض، وعلى رأسها تاج مُذهب. وصاحت وقد تملكها زهو الأمومة.

ـ هي جميلة كأنها ملكة... بل لا يوجد بين ملكات العالم من يعادلها جمالا.

وهتف سانين:

ـ لا يوجد في العالم كله غير چيما واحدة.

ـ نعم، ولهذا سميت چيما. (معنى "جيما" بالإيطالية: دُرة فريدة.)

وارتمت چيما على أمها تُقبلها. ويبدو أنها لم تتنفس بسهولة إلا منذ تلك اللحظة، وكأنما ألقى عن كاهلها عبء ثقيل.

وشعر سانين فجأة بسعادة طاغية وسرور صبياني عندما خطر له أن أحلامه التي نشأت وترعرعت في هذه الغرفة أخذت تتحقق، بل ها هي ذي تتحقق بالفعل. وطفحت نفسه رغبة في الانتقال رأسا إلى الدكان، والوقوف وراء منصة البيع كما فعل منذ أيام. وحدث نفسه: "أنا أملك هذا الحق الآن... ألست أحد أفراد الأسرة"؟.

ونفذ رغبته بالفعل، ووقف وراء منصة البيع، ولى طلبات العملاء. أو باع في الواقع رطلا من الحلوى لطفلتين، ولكنه أعطاهما رطلين كاملين، ولم يتقاض إلا ثمن نصف رطل.

وجلس على مائدة الغداء إلى جوار چيما بحسبانه خطيبها المعترف به.

ولم تنقطع فراو لينور عن إبداء ملحوظاتها وآرائها العملية. ووالى إميل الضحك، وتعلق بسانين ملحًا عليه أن يستصحبه إلى روسيا. واستقر الرأي على أن يتم سفر سانين في بحر أسبوعين. وعم

الفـرح الحاضريـن إلا پانتاليونـى الـذي لـم يقلـع عـن تجهمه. وغاظتـه فراو لينـور بقولها:

ـ ألم تكن أنت شاهد المبارزة؟

وقطب پانتاليونى وازداد تجهما.

ولـم تتكلـم چيمـا أثنـاء ذلـك إلا نـادرًا، ولكـن وجههـا لـم يبـد قـط أبهـى جمـالا وإشـراقًا. وطلبـت إلى سـانين بعد الغـداء أن يخـرج معها إلى الحديقـة لبرهـة مـن الزمـن. وعندما وصلت فـي صحبته إلـى المقعد الذي جلسـت فيـه تلتقـط الكـراز منـذ يوميـن توقفـت عـن السـير وقالت:

ـ لا تغضـب علـيَّ يـا ديمتـرى. ولكنـى أود أن أقـول لك مـرة أخرى إنك مـا زلت إلـى الآن غير مقيد شـيء...

ومنعها من أن تواصل قولها. فدارت بوجهها عنه وأردفت:

ـ أمـا مـا ذكرتـه أمـي عن اختـلاف العقائـد الدينيـة... فانظر... وامسـكت بصليـب مرصع بالحجـر الكريـم كان معلقًـا علـى صدرهـا، وجذبتـه بقـوة فانقطـع الخيـط الدقيـق الـذي كان عالقًـا بـه، وناولتـه لسـانين قائلـة:

مـا دُمـت قـد اصبحـت لـك، فعقيدتـي كذلـك أصبحـت عقيدتـك... وعندمـا عـاد العاشـقان إلـى المنـزل كانـت عينـا سـانين مبللتيـن بالدمـوع المحتبسـة. ومـا حـل المسـاء حتـى عـادت الميـاه إلـى مجاريهـا، بـل لقـد لعبـوا الـورق.

ـ 30 ـ

استيقظ سانين في اليوم التالي مبكرًا، وكان قد وصل إلى قمة السعادة البشرية. ولكن حالته النفسية هذه لم تكن هيَّ التي أطارت النوم من عينيه، وإنما حدث ذلك بسبب تلك المشكلة الحيوية... تلك المشكلة الحاسمة... مشكلة بيع ضيعته في أسرع وقت... وبأنسب ثمن... كان ذلك يشغل باله، ويعكر صفوه. وتوالت على ذهنه الخواطر متتابعة متزاحمة، ولكن أحدًا منها لم يهده إلى الحل الموفق. وخرج إلى الهواء الطلق ليرطب أنفاسه وينعش ذهنه بنسيم الصباح البليل، مصمما على الاهتداء إلى خطة مفصلة كاملة لحل تلك المشكلة قبل مقابلة جيما.

***

ما هذه القامة التي ظهرت أمامه، ثقيلة الوزن، غليظة الأطراف، ولكنها حسنة الهندام؟ من هو صاحبها الذي يميل قليلا وهو يسير برجله العرجاء؟ أين رأى هذا القذال المغطى بشعر أشبه بالكتان؟ وهذا الرأس المنطلق من بين كتفين عريضتين؟ وهذا الظهر اللين المكتنز؟ وهاتان اليدان السمينتان؟... أيكون هذا پولوزوف زميله في الدراسة؟... زميله الذي لم يره طوال الخمسة الأعوام الأخيرة؟ وأسرع سانين في مشيته حتى جاوزه، والتفت إلى الوراء فرأى وجهًا

عريضًا يميل لونه إلى الصفرة وعينين كعيني الخنزير وإن كانتا حسنتى الرمش والحاجبين، وأنفًا قصيرًا منبطحًا، وشفتين غليظتين كأنهما مدبقتان، وذقنا مستديرا أجرد... كان تعبير ذلك الوجه، على العموم، يطفح بالريبة والنكد وفتور الهمة... أي نعم... هذا هو إيپوليت پولوزوف نفسه .

ونادى سانين.

ـ پولوزوف! إيپوليت سيدوريتش؟... أهذا أنت؟...

وتوقف الرجل عن المسير، وتطلعت عيناه الصغيرتان، وانقضت فترة سكون انحلت بعدها الشفتان الملتصقتان، وارتفع صوت أشبه بالنغمة النشاز:

ـ ديمترى سانين؟...

وصاح سانين وهو يشد على يدي پولوزوف المكسوتين بقفازين من جلد الماعز والمتساقطتين على جانبيه بلا حركة أو حياة:

ـ نعم، هو نفسه. أأنت هنا من مدة طويلة؟ وأين تقيم؟ ومن أي بلد أتيت؟

وأجاب پولوزوف في صوت متهافت:

ـ جئت أمس من ڤيسبادن بقصد شراء بعض الحاجيات لزوجتي، وأعود اليوم ثانية إلى ڤيسبادن.

ـ آه، صحيح!... إنك متزوج... ويقال إن زوجتك جميلة.

وأشاح پولوزوف بوجهه:

ـ نعم، يقولون ذلك.

وضحك سانين قائلا:

ـ أراك تتغير. فأنت نفس الفتى غير المبالي الذي عرفته أيام الدراسة.

ـ ولماذا أتغير؟!...

ـ ويقال كذلك إن زوجتك واسعة الثراء.

وضغط كلمة "يقال" بشفتيه وهو ينطق بها. وأجاب پولوزوف باستهتار:

ـ نعم، يقولون ذلك أيضًا.

ـ وأنت؟... ألا تعلم أنت ذلك يا إيپوليت سدوريتش؟!.

ـ انظر يا شيخ... يا ديمترى... إررر... پاڤلوڤتش... نعم، پاڤلوڤتش... إني لا أتعرض لشئون زوجتي الخاصة...

ـ تتعرض لها!... ألا تتعرض لأي منها؟!...

وأشاح پولوزوف بوجهه مرة أخرى.

ـ نعم، لأي منها يا شيخ... فهيَّ تسير في طريقها، وأنا أسلك طريقي...

وسأله سانين:

ـ إلى أين؟...

ـ ليست لي وجهة معينة. فأنا الآن كما ترى أقف في عرض الطريق وأحادثك، وبعد الفراغ من حديثي معك سأعود إلى فندقي حيث أتناول إفطاري.

أتقبل أن أصحبك؟

ـ أتقصد أن تفطر معي؟

ـ نعم.

ـ لا بأس، تعال. فالأفضل ألا يطعم الإنسان منفردًا... ولكنك لست ثرثارًا، أليس كذلك؟

ـ أظن ذلك؟

ـ تعال إذن.

واستأنف پولوزوف سيره، ورافقه سانين. وصمتت الشفتان الغليظتان من جديد، وتمايل الهيكل الضخم في مشيته، وحدث سانين نفسه: "كيف استطاع مثل هذا الأبله أن يصيد زوجة موسرة؟! فهو لا يتمتع بثروة أو جاه أو لباقة. وكان مدرسوه وزملاؤه في الدراسة يعدونه فاتر الهمة راكد الذهن أبله شرها، بل كانوا يلقبونه "المتساقط اللعاب" (مريل)... ما أعجب هذا؟!... ومادامت زوجته غنية إلى

الحد الذي يذكرونه يقال إنها ابنة "مقاول" معروف فلم لا تشترى الضيعة؟

وهل يعقل أنه لا يتدخل في شئونها الخاصة كما يزعم، بيد أنى سأعرض عليه بيع الضيعة بثمن مغر... ولم لا؟... وقد يكون كل هذا دليلا على أن نجمي في صعود!... فليكن... ولأجرب...".

وسار پولوزوف بسانين إلى أرقى فندق في فرانكفورت. ومن تحصيل الحاصل أن نقول إنه استأجر أحسن غرفة. وكانت العلب والصناديق والحزم تملأ جانبًا كبيرًا من الغرفة بعد أن كدست مقاعدها ومائدتها في الجانب الآخر...

وتمتم پولوزوف:

ـ هذه المشتريات جميعها لماريا نيكولاييفنا يا صديقي الهرم.

وماريا نيكولاييفنا هي زوجته بالطبع وتساقط على أحد المقاعد، وحل رباط عنقه، وقال متأوها.

ـ ما أشد حرارة الجو!...

ثم دق الجرس، وعندما جاء رئيس الخدم طلب إليه إعداد فطور دسم، وقال له:

ـ ولتكن عربتي جاهزة في تمام الساعة الواحدة... تمام الساعة الواحدة... أسمعت؟...

وانحنـى رئيـس الخـدم بـأدب جم، وانسـحب في خضـوع وخفة. وحل پولـوزوف أزرار صـدارة. وظهر حتـى من طريقة رفع حاجبيـه، ومط فتحتي أنفـه، وتغضيـن أنفـه، أنـه يجد الـكلام وقتئذ عبئًـا ثقيلاً، أو أنه (أى سـانين) سـيضطلع بهـذا الحمل وحده.

وأدرك سـانين حالـة صديقـه النفسـية، فأمسـك عـن مضايقتـه بكثـرة الأسـئلة، واقتصـر فـي توجيـه الضـروري منهـا. وعلم أنـه قضى فـي الخدمة العسـكرية مـدة عاميـن. (لابـد أن منظـره فـي البـزة العسـكرية كان عجبًا) وتـزوج منـذ ثلاثـة أعـوام. وهـو يقيـم منـذ عـام واحـد خـارج روسـيا فـي صحبـة زوجتـه التـي حضرت إلى ڤيسـبادن للاستشـفاء... أو لشـيء من هذا القبيـل. ثـم إنهمـا سـيقصدان بعـد ذلـك باريـس... ولم يبـز سـانين صديقه فـي التحـدث عـن ماضـي حياتـه، وعـن مشـروعات مسـتقبله، ولكنـه عرج مباشـرة علـى الموضـوع الـذي يهمـه، وحـدث صاحبـه عـن اتجاه نيتـه إلى بيـع ضيعته.

وانصـت إليـه پولـوزوف سـاكنًا صامتًـا متلفتًـا مـرة بعـد مـرة صـوب البـاب الـذي سـيدخل منـه الطعـام. وأخيـرًا ظهـر رئيـس الخـدم مصطحبـا تابعيـن لـه يحمـلان صحافًا مفضضة الحواشـي، مليئـة بالأطعمـة المطلوبة.

وسـأل پولـوزوف رفيقـه وهـو يجلـس إلى المائـدة ويثبت منشـفة في رقبـة قميصه:

ـ أتقع ضيعتك في منطقة تولاجوبرنيا؟

نعم.

ـ إنها تابعة لولاية بيفريموف. أنا أعرفها تلك الولاية.

ـ وضيعتي؟... أتعرفها كذلك؟

ـ بالطبع...

ثم دار برأسه إلى رئيس الخدم قائلا:

ـ افتح لي هذه الزجاجة.

وحشا فمه بكمية من عجة البيض والكمء وغمغم:

ـ مِلك ماريا نيكولاييڤنا، أي زوجتي، ضيعة في تلك النواحي. إن التربة هناك خصبة، ولكن فلاحيك قطعوا جانبًا كبيرًا من أشجار ضيعتك... وما الذي يدعوك إلى بيعها؟...

ـ أنا في حاجة إلى المال، وقد عولت على بيعها بثمن بخس، والشيء بالشيء يذكر... لماذا لا تشتريها أنت؟

وابتلع پولوزوف كأسا مترعة من النبيذ، ومسح شفتيه بمنشفته ن واسترسل في المضغ ثانية بصوت مسموع. ثم قال بعد لأي:

ـ هيم... م م... أنا لا أشترى أرضا. أنا لا أملك المال... ناولني الزبد... قد تشترى زوجتي ضيعتك، وعليك أن تفاتحها في الأمر.

وإذا كنـت لا تبالـغ فـي الثمـن الـذي تطلبـه فأحسـب أنها لن تمانـع كذلك فـي إتمـام الصفقـة. مـا أغبـى أولئـك الألمـان، إنهـم لا يجيـدون حتى طهى السـمك وهـو من أبسـط الأمـور، ويطالبـون مع ذلـك بتوحيد ألمانيـا!!. خذ هـذا الصنـف الكريه أبعـده عنى.

ـ أتقصد أن زوجتك تدير شئونها... جميعًا... بنفسها؟

ـ نعـم، هـذا هـو الواقع. أما شـرائح اللحم فجيدة الطهـي جرب هذه... لقـد سـبق أن قلـت لـك يـا ديمتـرى باڤلوڤيتـش إنـي لا أتعـرض لشـئون زوجتـي. وأكـرر لـك الآن مـا قلت.

وانهمك في مضغ اللحم بصوت مزعج. وقال سانين:

ـ هيم... ولكن أنى لي أن أحدثها يا إيپوليت سيدوريتش؟

ـ ليـس هنـاك أسـهل مـن هـذا يـا ديمتـرى پاڤلوڤيتـش. اذهـب إلـى فيسـبان، وهـي لا تبعـد كثيـرًا عـن فرانكفـورت... يا سـافى! ألديـك معجون الخـردل الإنجليـزي؟ يـا لكـم مـن بربـر!... ولكـن لا تضيـع الوقـت هـدرًا يـا ديمتـرى پاڤلوڤيتـش، فإننا سـنرحل بعد غـد. دعني أملأ لك كأسـك. إن هذا نبيـذ جيـد. وليـس خلا.

ودبـت الحيويـة فـي وجـه پولـوزوف وتـوردت وجنتـاه، فهـو لـم يكن ينشـط ويشـرق إلا حيـن يـأكل أو يشـرب.

وغمغم سانين:

ـ الواقع أنى في حيرة من أمري.

ـ أأنت متعجل إلى هذا الحد؟

ـ نعم. هذه هي المشكلة يا شيخ.

ـ وهل أنت في حاجة إلى مبلغ كبير؟

ـ نعم، لأني... كيف أشرح لك الأمر؟!. لقد عولت على أن أتزوج...

وأرجع پولوزوف كأسه عن فمه بعد أن هم بشربها ووضعها على المائدة. وسارع إلى القول بصوت أخشوشن من فرط الدهشة:

تتزوج؟!... هكذا فجأة؟!...

ووضع يديه الغليظتين على بطنه.

ـ نعم... وفي أقرب وقت.

ـ خطيبتك في روسيا بالطبع؟

ـ لا...

ـ أين هي إذن؟

ـ هنا... في فرانكفورت.

ـ ومن تكون؟

ـ هي ألمانية... أو هي في الواقع إيطالية مقيمة بفرانكفورت.

ـ أعندها مال؟

ـ لا... أبدًا...

ـ لابد إذن أنك تحبها حبًا جمًا.

ـ يا لك من فتى عجيب! بالطبع أحبهًا حبًا جمًا.

ـ وتريد المال لهذا السبب؟

ـ نعم... نعم لهذا السبب.

وابتلع پولوزوف ما في كأسه، ومسح فمه، وغمس أصابعه في كوب ماء، ثم جففها بالمنشفة في تؤدة وعناية، وجاء بسيجار وأشعلها، وتتبع سانين هذه الحركات جميعها صامتًا.

وغمغم پولوزوف أخيرًا بعد أن ألقى برأسه إلى الوراء، وصعد نفسًا من الدخان رفيعًا كالخيط.

ـ ليس أمامك إلا طريق واحد، هو أن تقابل زوجتي، فهيَّ تستطيع وضع حد لمتاعبك فيما إذا طاب لها ذلك.

ـ ولكن كيف السبيل إلى مقابلتها؟ ألم تقل إنكما سترحلان بعد غد؟ وأغمض پولوزوف عينيه، ونقل سيجاره فيما بين أسنانه، وتأوه ثم قال:

ـ سأعرض عليك ما يحسن عمله. ارجع الآن إلى نُزلك، وأعد حقيبة السفر بأسرع ما يمكن، ثم الحق بي هنا. فآنا سأبرح الفندق في تمام الساعة الواحدة، وفي عربتي متسع لك... وهكذا سأذهب بك إلى زوجتي. ولكنى اعتدت أن أقبل كل يوم. وقد فرضت علينا الطبيعة النوم بعد وجبة الظهيرة، ولا يسعني إلا الاستسلام... وحذار أن تقلقني أثناء نومي.

وفكر سانين قليلا، ثم رفع رأسه فجأة وقد حزم أمره:

ـ حسنًا... أنا موافق... وشكرًا. سأعود في منتصف الساعة الواحدة لأرحل معك إلى ڤيسبادن. وأرجو ألا يغضب ذلك زوجتك.

ولكن پولوزوف كان قد بدأ يغط في نومه، وقال مهوما:

ـ لا تقلقني.

ولم يكف عن تحريك رجليه. ثم استسلم للنوم كطفل كبير.

وألقى سانين نظرة أخيرة على ذلك الهيكل الضخم... ذلك الرأس، وتلك الرقبة... والذقن المرتفع إلى أعلى مستديرًا كالتفاحة. ثم خرج من الفندق، وسار مسرعًا صوب دكان روزيللى... إذ لابد من إخطار چيما بالأمر.

ـ 31 ـ

وجدها في الدكان مع أمها، وكانت فراو لينور تنحني وتقيس المسافات بين النوافذ بمسطرة صغيرة. وعندما رأت سانين نصبت طولها، وحيته ببشاشة، وإن كان قد غام عليها ظل من الارتباك، وقالت له :

ـ منذ حديثك معنا أمس والخواطر الخاصة بتحسين الدكان تتوالى على ذهني متعاقبة، ومن تلك الخواطر أن نضع قمطرًا هنا وقمطرًا هناك، ونصلهما برف زجاجي... إن هذا هو أحدث طراز. ثم نضع.

وقاطعها سانين هاتفا:

ـ عظيم... عظيم. ولابد من التفكير في كل هذا. ولكن لدى حديث أريد أن أنبئكم به.

ومد ذراعا إلى فراو لينور، كما مد ذراعه الأخرى لچيما، وقادهما إلى الغرفة الداخلية. وارتعبت السيدة إلى حد أن سقطت المسطرة من يدها. وكادت چيما تستسلم للرعب كذلك، ولكن نظرة إلى وجه سانين أعادت إليها الطمأنينة. فقد كان وجهه، رغم الجد المرتسم عليه، ينم عن ابتهاج بما عقد العزم على تنفيذه.

سألهما أن تجلسا بينما ظل هو واقفًا أمامهما، وحدثهما وهو يمسح شعر رأسه، ويومئ بيديه، عن كل ما جرى... عن التقائه بصاحبه پولوزوف، وعما عرضه عليه هذا الأخير من اصطحابه إلى ڤيسبادن، وعن احتمال بيع ضيعته. وختم حديثه بقوله:

ـ ولا يمكنكما أن تتصورا مبلغ ابتهاجي. إن الأمور تطورت على نحو قد يصبح معه ارتحالي إلى روسيا غير ضروري. ثم إننا نستطيع عقد الزواج في ميعاد أقرب مما كنا نأمل.

وسألت چيما: ومتى تزمع السفر إلى ڤيسبادن.

ـ اليوم. في بحر ساعة واحدة. لقد استأجر صاحبي عربة لهذا الغرض، وسأرحل معه.

ـ استراسلنا؟

ـ لن أتأخر عن ذلك دقيقة واحدة... فسأكتب على أثر حديثي مع تلك السيدة.

وسألته السيدة العملية.

ـ أهي ذات ثروة كبيرة؟... تلك السيدة؟...

ـ نعم. فقد كان أبوها صاحب ملايين، ولم يشاركها أحد في ميراثه.

ـ أآلت إليها الملايين جميعهًا؟ هذا من حسن حظك. ولكن حذار أن تبيع ضيعتك بثمن بخس. فعليك أن تكون معها متشددًا حذرًا. لا

تطلـق العنـان لعواطفـك. أنـا لا أجهـل رغبتـك فـي الـزواج السـريع بچيمـا. ولكـن الحيطـة يجـب أن تحتـل المقـام الأول تذكـر أنـك إذا حصلـت علـى ثمـن أكبـر لضيعتـك، نعمـت بمـال أوفـر أنـت وزوجـك وأولادك.

ودارت چيما بوجهها. وقال سانين مومئا بيده:

ـ أرجـو أن تثقـي يـا فـراو لينـور فـي حسـن تقديـري. بيد أنـى لا أنوي المسـاومة. فهنـاك ثمـن سـأعرضه عليهـا. فـإذا قبلـت دفعـه كان بهـا. وإلا فهـيَّ حـرة فيمـا تصنع.

وسألته چيما:

ـ أتعرف... هذه السيدة؟

ـ لم تقع عليها عيني قط.

ـ ومتى ستعود؟

ـ سـأعود بعـد غـد، فيمـا إذا أخفقت فـي مهمتي. أما إذا سـارت الأمور علـى مـا نأمـل، فسـتطول إقامتـي هنـاك يوميـن آخريـن. إلا أنـى لـن أضيع دقيقـة مـن وقتـي هـدرًا. ولا غـرو، فسـأترك قلبي هنـا وديعة لديكـم... كما تعلميـن... ولكـن أطيـل وقوفـي بينكـم، وتحدثـي إليكم، بينمـا يجـب أن أسـرع إلـى فندقي وأسـتعد للسـفر... شـدي على يـدي يافراو لينـور وتمنى لـي حظًـا سـعيدًا... فهـذه هـي عادتنا في روسـيا.

ـ أأشد عليها بيدي اليمنى أم اليسرى؟

ـ اليسـرى، فهـيَّ أقـرب إلـى القلـب... وسـأعود إمـا حامـلا درعـي وإما محمـولا عليـه. غيـر أن هاتفـا يهتـف فـي صـدري مبشـرا بأنـي سـأعود منتصـرًا... أسـتودعكم اللـه يـا أعزائـي... يـا أحبائـي.

ولـف خصـر فـراو لينـور بذراعـه وقلبها. ثم طلـب إلى چيمـا أن تقوده إلى غرفتهـا ليقضـى معهـا برهـة يفضي إليها بأمر هـام. وهو لم يقصد فـي الواقع إلا أن يودعهـا علـى انفـراد. وأدركـت فـراو لينـور قصـده فلم تسـأله عن ذلـك الأمر الهـام... وكانـت هـذه هـي أول مرة يدخل فيهـا غرفة حبيبته. فمـا تخطى عتبتها حتـى أخـذ سـحر الوجـد بمجامـع لبه، وجاش صـدره بلهيبـه وانفعالاتـه وملذاته المشـجية. وتلفـت حولـه، ثـم خـر راكعًـا أمـام فتاتـه الجميلـة. وطـوق خصرهـا بيديـه وغـرس وجهه فـي خصرها اللين... فهمسـت:

ـ أأنت لي حقا!... أستعود إلى قريبا؟...

فأجاب لا هثا:

ـ أنا لك... وسأعود إليك...

ـ سأنتظرك يا حبيبي.

وبعـد دقائـق كان سـانين يركـض صـوب فندقـه. ولـم يـر پانتاليونـى الـذي جـرى فـي أعقابه إلى عتبة الدكان أشـعث أغبـر، مناديًا صائحًـا، رافعًا يـداه فـي إيمـاءة وعيد.

***

حضر سانين إلى پولوزوف قبل تمام الواحدة بنصف ساعة. وكانت عربة ذات أربعة جياد قد أعدت لهما، ووقفت في انتظارهما أمام الفندق. وحينما رأى پولوزوف صاحبه اكتفى بقوله:

ـ أعزمت إذن على الذهاب معي؟...

وارتدى معطفه وكسوة حذائه، ووضع قبعته على رأسه، وقطعتين من القطن في أذنيه رغم الجو الصيفي الدافئ، وخرج إلى رواق الفندق. وكان الخدم قد قاموا بتنفيذ أوامره، فنقلوا البضائع التي اشتراها لزوجته إلى العربة، وأحاطوا المكان المعد لجلوسه بمختلف الحشايا والمساند، ووضعوا قرب موضع قدميه سلة محشوة بألوان المؤن، وثبتوا حقيبة كبيرة فوق مقعد السائق. وسخا پولوزوف في عطائه للخدم، وتسلق العربة وهو يئن كالخنزير، وعاونه على ذلك حارس باب الفندق بلباقة وعناية كبيرة. وقبع في مقعده، وأخذ يعيد تنظيم الحقائب المحيطة به. وانتقى لفافة من سيجاراته فأشعلها. وعندئذ أومأ إلى سانين كأنما يقول له.

ـ تستطيع أن تصعد إلى العربة أنت أيضا.

وصعد سانين وجلس في جواره.

وطلب پولوزوف من حارس الباب أن ينبه سائق العربة إلى ضرورة الحرص على حسن أداء مهمته فيما إذا كان يهمه الحصول على حلوان. ورفع أحد الخدم سلم العربة، وأغلق بابها... واندفعت الجياد إلى الأمام.

ـ 32 ـ

يقطـع القطـار اليوم المسـافة ما بيـن فرانكفورت وفيسـبادن في أقل من ساعة. أمـا عربـة البريد السـريعة فـي الزمن الخالـي فكانت تقطعهـا في ثلاث ساعات، بعـد اسـتبدال جيادهـا في الطريـق ثلاث مـرات على الأقل.

وأغفـى پولـوزوف، أو لعلـه كان يهـوم فـي مقعـده. وظـل سـيجاره عالقًـا بيـن شـفتيه. ولـم يكـد ينفـرج فمـه عـن كلمـة. ولـم يطـل مـرة واحـدة مـن النافـذة، فالمناظـر الطبيعيـة لـم تكـن تهمـه، بـل إنـه كان يعدهـا سـما زعافا.

وظـل سـانين صامتًـا كذلـك، ولـم يبـدد وقتـه هـو أيضًـا فـي تأمـل الطبيعـة، فكـم مـن أمور كانـت تحمله علـى التفكير، وقد استسـلم لتأملاته وذكرياتـه.

ولـم يتـوان پولـوزوف فـي كل محطـة عـن دفـع النفقـات المسـتحقة، ومنـح كل مـن السـواس حلوانـا يناسـب مـا قـام به مـن جهـد، والتحقق من الوقـت بالرجـوع إلـى سـاعته. ومـا كادت الرحلـة تنتصـف حتـى أخرج من السـلة برتقالتين اختار لنفسـه أحسـنهما وناول سـانين الأخـرى، وأطال هذا الأخيـر النظـر إليـه، ثـم انفجـر ضاحكًا. فسـأله صاحبـه وهو يقشـر برتقالته بظفـر إبهامـه الناصـع البياض:

ـ ماذا يضحكك؟

وأجاب سانين:

ـ أنا؟... هي رحلتنا التي تضحكني...

وعاد يسأله بعد أن حشا فمه ببعض فصوص البرتقالة:

ـ وماذا يضحكك منها؟...

ـ إن أمرها غريب. فأصارحك القول إنك لم تخطر أمس على بالى إلا كما يخطر عليه إمبراطور الصين. وهأنذا مع ذلك أسافر معك لأبيع ضيعتي إلى زوجتك، التي لا أعرف شيئًا عنها كذلك.

ـ ومن ذا الذي يعرف ما تخبئه الأيام؟... وعندما تتقدم بك السن لن يدهشك شيء في الوجود. وأذكر لك واقعة على سبيل المثل: أتتصور أنى حينما كنت ضابطًا بكتيبة الفرسان اعتاد قائد الكتيبة، الغراندوق ميخائيل پاڤلوڤيتش، أن يأمرني قائلا: "يا رافع العلم، أيها السمين المتداعي، أسرع في الركض بجوادك!!..."

وحك سانين قذاله، وقال:

ـ خبرني يا إيپلوليت سيدوريتش عن زوجتك، كيف هي؟ وما مبلغ حسن قبولها لما يعرض عليها؟ يجب أن ألم بشيء عنها...

وأستأنف پولوزوف قوله بحدة غير متوقعة:

ـ وماذا كان منى؟... لقد قلت لنفسي "إلى الجحيم بالترقيات والرتب العسكرية"... إني لم أكن أطمع في شيء من هذا... آه،

زوجتـــي!... إنهـا مخلوقــة كغيرهـا مــن عبـاد اللــه. ولكــن حــذار أن تفاجئـك سـنة مـن النـوم أمامهـا، فهـيَّ لا تحـب ذلـك... عليـك أن تواصـل الـكلام فـلا تنقطـع عنـه قـط، وابحـث لهـا عـن قـول يضحكهـا... حدثهـا عـن حبـك... عـن تلـك الحكايـة... ولكـن عليـك أن تصيغهـا صياغـة مسـلية.

ـ مسلية؟!.

ـ نعـم. ألـم تقـل لـي إنـك تعاني برحـاء الحـب؟ وتريد أن تتـزوج بمن تحب؟...

وأجاب سانين وقد حز قول پولوزوف في نفسه:

ـ أية تسلية تجدها في موضوع حبي ومشروع زواجي؟!.

ودارت عينا پولـوزوف بيـن جفنيـه، وتقاطـر عصيرالبرتقـال مـن دقنه. وسـأله سـانين بعـد صمـت قصير:

ـ أهـي زوجتـك التـي أرسـلتك إلـى فرانكفـورت لتشـتري لهـا بعـض الحاجيـات؟

ـ نعم.

ـ وماذا اشتريت؟

ـ لعبا... ألا تعلم ذلك؟

لعبا؟... أعندكم أولاد؟

وتزحزح پولوزوف متباعدًا عن سانين:

ـ ماذا؟ ولم يكون لي أولاد؟ اشتريت لها تلك الخرق... والحلى... وغيرها من الترهات... ألا تعرف هذه الأمور؟...

ـ أتعرفها أنت؟... ألك بها خبرة؟...

ـ نعم.

ـ ولكنك قلت لي إنك لا تتعرض لشئون زوجتك الخاصة؟

ـ أنا قصدت شئونها الأخرى. ولا بأس من شراء من الحاجيات الصغيرة لها. فما دمت لا أجد عملا أفضل منه، فلا أقل من أن أضطلع به. ثم إن زوجتي تعتمد على حسن ذوقي... وعلى حذقي في مثل هذه المعاملات...

وأخذ صوت پولوزوف يتهدج إعياء، فقد أنهكه الكلام.

ـ أزوجتك غنية حقًا؟

ـ نعم... هي غنية... ولكنها تحتفظ بمالها لنفسها.

ـ ولكنى أراك في حال لا تجيز لك أن تشكو.

ـ أنا زوجها. ألست كذلك فلم لا أفيد من الفرصة المتاحة لي؟

ثم إني أنفعها في حالات كثيرة... أنا كنز وقع في يديها... نعم، أنا زوج مريح مناسب.

ومسح پولوزوف وجهه بمنديل حريري، وضاق تنفسه وتعالى شخيره، وكادت أسارير وجهه تنطق ملتمسة الرحمة به، والكف عن الحديث الذي أصبح عبئًا ثقيلا عليه.

***

وتركه سانين ينعم بالهدوء، واستغرق هو في تأملاته من جديد.

كان الفندق الذي وقفت العربة على بابه في ڤيسبادن أشبه بالقصر المنيف. وما كاد خدمه يامحون العربة حتى دقت الأجراس في أرجائه البعيدة، وتعالى الهرج والمرج على الأثر. وحام رجال محترمو المنظر، سود الملابس، حول بابه الخارجي. وتقدم الحاجب متلألئ الشرائط القصبية، ففتح باب العربة مشرق الوجه بالابتسام.

ونزل پولوزوف من العربة كأنه بطل غزا الأمصار واستعبد الأمم. وصعد في سلم مفروش بالطنافس المعطرة. وأسرع إلى لقائه رجل حسن الهندام كذلك، ولكنه روسي الهيئة كان هذا الرجل خادمه الخاص وقال له پولوزوف أول ما رآه إنه لن يسافر بعد اليوم دون أن يصطحبه. فقد قضى ليلته السابقة في فرانكفورت دون أن يمده خادم الفندق بالماء الساخن. وعبرت سيماء الخادم عن التقزز والاستنكار، ثم انحنى بحمية على حذاء سيده فخلع كسوته.

وسأله پولوزوف:

ـ هل ماريا نيقولاييڤنا في مقصورتها؟

ـ نعـم يـا سـيدي. وهي ترتـدى الآن ملابس السـهرة اسـتعدادًا للذهاب إلى الكونتيسـة لاسونسـكايا وتناول العشـاء عندها.

ـ آه... هـي!... انتظـر قليـلا. أحضـر الأشـياء الموجـودة فـي العربـة... أحضرهـا جميعهـا بنفسـك.

ثم أضاف:

ـ وأنـت يـا ديمتـرى پاڤلوڤيتـش... اذهـب وابحث لك عـن فندق، وعد بعـد ثلاثـة أرباع السـاعة لتتناول العشـاء معي.

وابتعد پولوزوف متمايلا. واسـتأجر سـانين غرفة صغيرة حيث اغتسـل واسـتراح قليـلا، مسـتعيضا بهـا عن نـزل "صاحب اللطافـة والاتـزان... الأمير ڤـون پولوزوف!".

وجـد "الأميـر" مسـتريحًا فـي كرسـي ذي ذراعيـن، مكسـو بالقطيفـة الثمينـة، قائـم وسـط غرفـة اسـتقبال فاخـرة الريـاش، وكان هـذا "الأميـر" المترهـل قـد ابتـرد وارتـدى جلبابًـا حريريًـا فضفاضًـا، ووضـع علـى رأسـه طربوشًـا أحمـر... وتقـدم سـانين صوبـه، وأطـال النظـر إليـه متأمـلا. ولـم يتحـرك الرجـل، بـل جلـس جامـدًا كالتمثـال. ولـم يرفع بصـره إلـى صاحبه، ولـم ينبـس بكلمـة. وفي الحق إن منظـره كان رائعًا!! وقبل أن يقول سـانين شـيئًا يقطـع بـه ذلـك الصمـت القدسـي، فتـح بـاب الغرفـة المجـاورة على

مصراعيـه، وظهـرت علـى عتبتـه سـيدة جميلـة ترتـدى حلـة بيضـاء مطرزة بالخيـط الأسـود، وتزيـن عنقهـا بعقـد مرصـع بالجواهـر الثمينـة، وتكسـو أصابعهـا بخواتـم محـلاة كذلـك بالأحجـار الكريمـة كانـت هذه المـرأة هي ماريـا نيقولاييڤنـا پولوزوڤـا نفسـها... وقـد تهـدل شـعرها الكسـتنائي علـى كتفيهـا ممشـطًا، ولكنـه غيـر معقـود...

ـ 33 ـ

قالت وهي تبتسم ابتسامة تنم عن ارتباك وسخرية في آن واحد:

ـ آه!... لاتؤاخذني...

وأمسكت في نفس الوقت بخصلة من شعرها ورفعتها إلى أعلى، وصوبت عينيها الشهباوين المؤتلقتين إلى سانين وأردفت:

ـ لم أكن أعلم أنك هنا.

وقال پولوزوف مشيرًا إلى سانين دون أن يقف، بل دون أن يتحرك أو يلتفت:

ـ هذا سانين ديمترى پاڤلوڤيتش، صديق الصبا.

ـ نعم أعرف ذلك. فقد حدثتني عنه... يسعدني أن أراك يا ديمترى پاڤلوڤيتش... ولكنى أردت أن أسألك يا إيپوليت سيدوريتش!... آه!... إن وصيفتي اليوم تسرف في الإهمال والحمق.

ـ أتقصدين تمشيط شعرك وتجديله؟

ـ نعم. والآن أستسمحكم في الانصراف.

وارتسمت تلك الابتسامة المرتبكة الساخرة على ثغرها من جديد.

وأشـارت إلـى سـانين محييـة. ودارت بسـرعة خلـف البـاب بعـد أن تجلـى جيدهـا البديع الرشـيق اللفتات، وكتفاها الخلابتـان، وخصرها النحيل الفارع.

وقـام پولـوزوف عندئـذ، وسـار وهـو يغمـز فـي مشـيته، ومـر بالبـاب الـذي تـوارت زوجتـه خلفـه.

ولم يشـك سـانين لحظة في أن هذه السـيدة كانت تعلم بوجوده في غرفـة اسـتقبال "الأميـر" پولـوزوف، (كما يسـميه الألمان)، وأنهـا إنما أرادت بظهورهـا أمامـه علـى تلـك الحـال أن تريه شـعرها المهـدل قبـل تجديله... والواقـع أن شـعرها كان سـاحر الجمـال... وأحـس سـانين بابتهـاج خفي لما بـدر مـن مـدام پولـوزوف؛ فأغلـب الظن أنهـا لن تتشـدد في إبـرام الصفقة مـا دامـت تتحايـل لتبرز له فتنتها! بيـد أن فؤاده كان يفيـض في حب چيما إلـى حـد أن النسـاء جميعهـن أصبحـن لا يسـاوين في نظـره شـيئًا؛ وهو لم يكـن يلحـظ حتـى وجودهن. ولـم يحدث تبرج تلك السـيدة له مـن أثر في نفسـه إلا اقتناعـه بمـا تحـدث به النـاس عن روعـة جمالها.

ولوحـظ أنـه لـو كان فـي حالـة نفسـية غيـر حالته لمـا اكتفـى بهذا الاقتنـاع ولأختلـف شـعوره ولا شـك. فـإن ماريـا نيقولاييڤنـا پولوزوڤـا واسـم أسـرتها كوليشـكينا شـخصية تلفـت النظـر. ولا يرجـع ذلـك إلـى أن جمالهـا بلـغ مرتبـة الكمـال. لا، فـإن الطابع الشـعبي كان يشـوب في

الواقع قسماتها. لقد كان ذات جبهة ضيقة، وأنف غليظ معقوف إلى أعلى، وبشرة لا تستحق المباهاة بها. ثم إن يديها وقدميها كانت تنقصهما الرشاقة والرقة... ولكن ما أهمية ذلك كله؟!. فإذا لم تكن هذه السيدة تتمتع على حد تعبير پوشكين بالجمال القدسي الذي يستوقف نظر من يراه، فإنها كانت تتحلى بجاذبية الأنوثة العارمة. كان الدم الذي يجرى في عروقها مزيجًا من الدم الروسي والغجري. كان جمالها الأنثوي يستوقف نظر من تقع عينه عليه. ويستهويه.

ولكن سانين كان محصنا بصورة چيما. كانت صورتها بمثابة الدرع ذات الثلاثة الألواح التي تغنى بها الشعراء القدامى.

مرت عشر دقائق ظهرت بعدها ماريا نيقولاييڤنا في صحبة زوجها.

وتقدمت إلى سانين وهي تتبختر على ذلك النحو الذي كان في الأيام القديمة التي ولت مع الأسف يخلب لب الرجال المساكين.

وكادت سيماؤها تبعث على القول: "إن هذه المرأة تحمل وهي تتقدم إلى سانين سعادة الحياة بأسرها" ومدت يدها إلى ضيفها قائلة بالروسية في صوت رقيق، ولكنه مع ذلك متحفظ:

ـ ستنتظرني. أليس كذلك؟ لن أتأخر في الأوبة.

وانحنى سانين باحترام. ولكن ماريا نيقولاييڤنا كانت قد اجتازت الحاجز القائم أمام الباب، ومرقت إلى ممر الفندق، متلفتة من فوق كتفها، ومبتسمة من جديد قبل أن تتوارى، وتجلى وراءها منظر مفاتنها ثانية...

ولم تظهر لدى ابتسامها نونة (نقرة في الخد) واحدة في وجنتيها، بل لم تظهر نونتان، ولكن ظهرت ثلاثة نونات. وكانت عيناها الساحرتان أكثر إشراقا بالبسمات من شفتيها الورديتين الشهيتين المزدانتين بشامتين صغيرتين.

ودخل پولوزوف الغرفة متمايلا، وتساقط على كرسيه الممدود الذراعين والتزم الصمت كما اعتاد أن يلتزمه، ولكن شبه بسمة خفيفة كانت تلوى من وقت لآخر خديه السمينين المغضنين قبل الأوان.

لم يكن يكبر سانين إلا بثلاث سنوات. ولكنه كان يبدو أكبر من سنه بكثير وبلغت جودة الطعام الذي زخرت به مائدة العشاء مبلغًا يرضى أكثر الناس خبرة بالطعام الجيد، ولكن سانين ضاق به حتى خيل إليه أن العشاء لن ينتهي. بيد أن پولوزوف تأنى في الأكل "مستشعرًا لذته، مقدرًا جودته، مؤكدًا لنفسه مدى ما يستمتع به"... كان ينحني على طبقه، ويشمه في كل مرة يتناول منه لقمة، ويغسل حلقه بجرعة من النبيذ قبل ابتلاع ما في فمه، ثم يتلمظ في ابتهاج... غير أنه استرسل في الكلام عندما قدم إليه اللحم المحمص وأي

موضـوع طرقـه؟... لقـد تحـدث عـن غنـم المرينـوس (غنـم مـن إسـبانيا) قائـلا إنـه سيشـترى قطيعًـا كبيـرًا منهـا. ولـم يترك حاشـية من حواشـي هذا الموضـوع لـم يقتلهـا بحثًـا. وكـم جمـح بـه الخيـال اللطيـف وهـو يتحدث عـن مشـروعه المربـح!! وكـم انتقـى العبارات البليغـة للتدليـل على صواب آرائـه!!. وبعـد أن ابتلـع قدحًا كبيرًا من القهوة السـاخنة إلـى درجة الغليان، (وكان أثنـاء شـربها يكـرر قولـه للسـاقي، ودمـوع الانفعـال فـي عينيـه، إنه شـرب قهوتـه أمـس بـاردة... بـاردة كالثلـج)، وقضم طرف سـيجاره بأسـنانه الصفـر المعوجـة، أغفـى علـى عادتـه، وقـد أبهـج ذلـك سـانين الـذي أخـذ يـروح فـي الغرفـة ويغـدو حالمًـا بحبيبتـه چيمـا والأنبـاء السـعيدة التـي سـيحملها إليهـا (كان حـذاؤه يغـوص أثنـاء سـيره فـي البسـاط الكثيـف فلا يسـمع لوقعـه صوت).

ولكـن پولـوزوف صحـا مـن غفوتـه قبـل الميعـاد الـذي اعتـاد أن يصحـو فيـه وقـد لاحـظ هـو نفسـه ذلـك فـإن نومـه لـم يطـل إلا سـاعة ونصـف سـاعة وشـرب كوبا من ماء سـلتزر المعدني المثلـج، وازدرد بضع ملاعـق مـن فاكهـة محفوظـة جـاء بهـا خادمـه مـن روسـيا فـي دن مـن صنـع مدينـة كييـف. وكان يقـول عنهـا إنـه لا يسـتطيع العيـش بدونهـا. ثـم تحـول بعينيـه المنتفختيـن إلـى سـانين وعـرض عليـه أن يلاعبـه الـورق، واختـار لعبـة "المجنـون" وهـي لعبـة قديمـة مضحكـة، فرحـب هـذا الأخيـر بذلـك لأنـه كان يخشـى أن يعـود صاحبـه إلـى الحديـث عـن الحمـلان والتيـوس والخـراف السـمينة. وانتقـل كلاهمـا إلـى غرفـة

الاستقبال. وجاء لهما الخادم بحزمة من ورق اللعب. وبدآ يلعبان بغير رهان بالطبع.

ووجدتهما ماريا نيقولاييڤنا، لدى عودتها من دار الكونتيسه لاسونكاب يمارسان هذه التسلية البريئة، فجلجلت ضحكاتها حين وجدت ورقات اللعب مرصوصة على المائدة. وهب سانين واقفًا، ولكنها صاحت.

ـ واصلا اللعب حتى أبدل ملابسي وأعود إليكما.

وتوارت ثانية وهي تنزع قفازها من يديها.

ولم تتأخر بالفعل في العودة إليهما. وكانت قد استبدلت بثوبها الأنيق حلة فضفاضة من الحرير الأحمر مشدودة إلى خصر السيدة بحزام مجدول.

وتقدمت فجلست في جوار زوجها. وانتظرت أن يتما دور اللعب. ولم يلبث أن صاح سانين في وجهه: "أنت المجنون"... فقالت ماريا لزوجها:

ـ كفاك هذا يا بدين.

وعجب سانين لدى سماعه كلمة "بدين" ونظر إليها في دهشة ظاهرة، فضحكت في جذل، وقابلت نظرته بلفتة جريئة، وغاصت نوناتها الثلاث في خديها. ثم واصلت قولها لزوجها.

ـ كفاك لعبًا، فإني أرى النوم يداعب عينيك. قبل يدي وانصرف، فإني أُريد أن أبادل مسيو سانين حديثًا قصيرًا.

وغمغم الرجل وهو يتزحزح عن كرسيه:

ـ ليست بي رغبة في نعاس. ولكني سأنصرف تلبية لطلبك... وسأقبل يدك.

ومدت يدها إليه مقلوبة إلى أعلى دون أن ترفع نظرتها الباسمة عن سانين.

ونظر پولوزوف إلى سانين أيضًا، ثم انسحب من الغرفة دون أن يحييه. وقالت ماريا نيقولاييڤنا باهتمام:

ـ تعال وحدثني عن كل ما في الأمر.

واستندت بكوعيها العاريين إلى المائدة وأخذت تنقر أصابع يديها بعضها في بعض، ثم أردفت:

ـ أحقا ما قيل عن اعتزامك الزواج؟

وكانت أثناء كلامها تميل برأسها لتتمكن من مطالعة عيني سانين والغوص إلى أغوارهما.

ـ 34 ـ

كان تصرف مـدام پولوزوف مع سـانين جديـرًا أن يربكه بعد أن رفعت تلـك السـيدة الكلفـة بينهـا وبينـه، وما ذلـك لأنه كان قليـل الخبـرة بالناس، فقـد احتـك بألـوان منهـم وأشـكال، بيـد أن الـذي أعانـه علـى الحـرج الذي تعـرض لـه، أملـه فـي أن يكـون تلطـف تلك السـيدة معه فـألا حسـنًا، وقال لنفسـه: "فلأشـبع نـزوات تلـك السـيدة الغنيـة"، وطفق يجيب على أسـئلتها باسـتهتار كاسـتهتارها. وأجاب على سـؤالها السـابق:

ـ نعم، سأتزوج.

ـ بمن؟... بأجنبية؟...

ـ نعم

ـ ولـم يطـل عهـد معرفتـك بهـا؟... أليـس كذلـك؟... أكان التقـاؤك بهـا فـي فرانكفـورت؟

ـ تمام.

ـ ومن تكون؟... إن كان يحق لي أن أسأل.

ـ نعم، يحق لكِ ذلك. هي ابنة بائع حلوى.

ـ ماذا؟!... يا له من أمر شائق!!.

وتمهلت في قولها وهي تردف:

أمـر مدهـش!!. كنـت قد بـدأت أظن أن مثلك من الشـباب لـم يعد له وجود... ابنة بائـع حلوى!!!...

وأجاب سانين وقد أخذته العزة بالنفس:

ـ أرى أن قولـي أدهشـك. ولكـن اعلمـي قبـل كل شـيء أنـى لسـت متزمتًـا متحرجًـا...

وقاطعته ماريا نيقولاييڤنا قائلة:

ـ واعلـم قبـل كل شـيء أن قولـك لـم يدهشـني البتـة. ثـم إنـي لسـت متحرجـة أنـا أيضـا، فأبـى في أصلـه... نعم أبى فـلاح... وأي ضيـر في هذا؟! إلا أن الـذي أدهشـني وأبهجنـي فـي نفـس الوقـت أن أقابل رجلا لا يخشـى الحـب... أنـت تحبها... أليـس كذلك؟

ـ نعم.

ـ أهي جميلة؟... جميلة جدًا جدًا؟

صدم سانين بهذا السؤال، ولكن لم يعد أمامه مجال للتراجع. قال:

ـ أنـتِ تعلميـن يـا ماريـا نيقولاييڤنـا أن العاشـق لا يـرى فـي الوجـود فتـاة أجمـل مـن معشـوقته... بيـد أن خطيبتـي جميلـة حقًـا.

ـ حقا! وما نوع جمالها؟ أهو كلاسيكي؟ روماني؟

ـ نعم. فإن قسمات وجهها غاية في التناسق.

ـ ألديك رسم لها؟

ـ لا. (لـم يكـن التصويـر الفوتوغرافـي قـد عـرف في ذلـك الوقت وكان تصويـر "داجـر" الفضي فـي أول عهده).

ـ وما اسمها؟

ـ اسمها ڇيما.

ـ واسمك أنت؟

ـ ديمترى.

ـ ولقبك؟

ـ پاڤلوڤيتش.

وقالت ماريا وهي لا تزال تبطئ في حديثها:

ـ اسـمع... أنـا أميـل إليـك يـا ديمتـرى پاڤلوڤيتـش. وأعتقـد أنـك رجـل طيـب. هـات يـدك... لنكـن أصدقاء.

وضغطـت كفـه بأصبعهـا البيـض المنتظمـة القويـة. ولـم تكـن يدهـا تصغـر يـده إلا قليـلا، ولكنهـا كانـت أدفـأ منهـا وأليـن وأنعم وأشـد حيوية. ثـم واصلـت حديثها:

ـ أتعرف ماذا خطر لي الآن؟

ـ ماذا خطر لكِ؟

ـ ولكنـك لـن تغضـب علـى إذا صارحتـك بـه. أليـس كذلـك؟ قلـت لـي إنـك خطبـت تلـك الفتـاة. فهـل هـذه الخطبـة ضروريـة؟ محتومـة؟

وقطب سانين:

ـ أنا لا أفهم قصدك يا ماريا نيقولاييڤنا.

وأرسـلت ماريـا ضحكـة هادئـة. وغمغمـت وهـي تلقـى إلـى الخلـف بخصلـة مـن شـعرها تدلـت علـى صدرهـا:

ـ يـا لـه مـن ظريـف! نعـم، مـا أظرفـه!!. فـارس شـريف! وهـل نصدق بعـد ذلـك أن الدنيـا خلـت مـن المثاليين؟

كانـت تتكلـم بلغـة روسـية صميمـة. بلغـة سـكان موسـكو. سـكانها العادييـن، لا السـراة "الأرسـتوقراطيين" وواصلـت قولهـا:

ـ لابـد أنـك نشـأت بيـن أسـرة محافظـة علـى التقاليـد القديمة. أسـرة تخشـى ربهـا. مـن أي بلـد أنت؟

ـ من چبولا جوبرنيا.

ـ نحـن مـن وطـن واحـد إذن... فـإن أبـى... إخالـك تعـرف مـن أبـى، أليـس كذلـك؟

ـ نعم.

ـ لقد ولد أبى في تيولا... فهو تيولوى... حسنًا. لنعرج الآن على الموضوع العملي (نطقت هذه العبارات الأخيرة بلهجة الطبقة المتوسطة متعمدة ذلك).

وسألها سانين:

ـ ماذا تعنين بقولك: "لنعرج على الموضوع العملي"؟... ما قصدك؟...

وضيقت ماريا نيقولاييڤنا حدقتي عينيها قائلة:

ـ وماذا قصدت أنت بمجيئك إلى هنا؟... ألم تقصد أن تبيعني ضيعتك؟ ألست في حاجة إلى المال لتتزوج؟... أليس كل هذا صحيحًا؟

عندما ضيقت ماريا حدقتيها ارتسم في عينيها تعبير رقيق تشوبه شائبة طفيفة من السخرية ولكن جفنيها ما كادا ينفرجان عن عينيها الواسعتين حتى بدت القسوة في أعماقهما المضيئة الباردة. وكان حاجباها السميكان المقوسان دون إسراف الشديدان السواد، هما اللذان أكسبا عينيها جمالهما.

وأجاب سانين

ـ نعم.

ـ أتحتاج إلى مبلغ كبير؟

ـ يكفينـي الآن (مؤقتًـا) بضعـة آلاف مـن الفرنـكات. إن زوجـك يعـرف ضيعتـي معرفـة تامـة. وفـي وسـعك أن تسـأليه عنها... أنـى لن أطلـب ثمنًا عاليًا...

وحركت ماريا رأسها من الشمال إلى اليمين وهي تقول:

ـ اعلم أولا.

وكانـت تضغـط كل كلمـة، وتنطقهـا منفصلة عن سـواها، وتنقـر أكمام سـترة سـانين بأطراف أناملها.

ـ اعلـم أولا أنـى لـم أتعـود استشـارة زوجـي إلا فيمـا يتعلـق بشـراء ملابسـي... فهـو خبيـر بهـذه الأمـور. وخبرنـي ثانيـا عـن سـبب قولـك إنـك لـن تطلـب ثمنًـا عاليًـا؟ إنـي لا أرغـب إطلاقًـا في انتهـاز فرصـة وقوعك في حبائـل الحـب، واسـتعدادك للتضحيـة بمالـك... إنـي لـن أقبل منـك تضحية مـا، مـاذا!! أبـدلا مـن أن أشـجعك وأعاونـك علـى ما تعانيـه من تلـك... تلك التـي يسـمونها خفقـات القلـب... أحـاول أن أسـلخك حيًـا؟ ليـس ذلـك من عادتـي. وإنـي قـد أقسـو فـي معاملـة النـاس عنـد سـنوح الفرصـة... ولكـن علـى طريقـة أخرى.

وحـار سـانين فـي أمرهـا فلـم يعـرف أهـي تجـد فيمـا تقـول أم تهزل. وأخـذ يـردد لنفسـه: "لابـد أن أكـون علـى حـذر منـك يـا سـيدتي العزيزة"

ودخـل خـادم يحمـل "السـيماور" (موقـد روسـي لغلـى الشـاي، ووعاء كبيـرا يحـوي الزبد والفطائر وأنـواع الحلوى، ووضعهما بيـن مدام پولوزوف وسـانين، ثـم توارى علـى الفور.

وقدمـت السـيدة لضيفهـا قدحًـا مـن الشـاي، والتقطـت قطعـة مـن السـكر بأصابعهـا ووضعتهـا فـي القـدح قائلـة:

ـ أرجو أن تتجاوز عن استعمال أصابعي...

مـع أن ملقطيـن للسـكر كانـا موضوعيـن أمامهـا على المائـدة. وأجاب سانين:

ـ بالطبع... هذه الأصابع الجميلة...

ولـم يتـم عبارتـه، وكاد يشـرق بالشـاي وهـو يتنـاول أول جرعـة منـه، فقـد كانـت تشـخص إليـه بلحـاظ نافـذة ثابتـة. وواصـل القـول بعـد تـردد:

ـ أنـا لم أشـر إلـى رضائي بثمن زهيـد لضيعتي إلا لأنـي قدرت ظروفك الحاليـة. فالمفـروض أنـك فـي هـذه الغربـة لا تحتفظيـن بمبلـغ كبيـر مـن المـال فـي حوزتـك، ثم إن بيـع ضيعة على النحـو، وفي مثل هـذه الظروف أمـر غيـر مألـوف... وقـد جعلت ذلك كلـه في تقديـري عندمـا تحدثت عن الثمن...

وأحـس سـانين أنـه وقـع فـي شـباك حجبـه. وكانـت ماريـا نيقولاييڤنـا تجلـس أمامـه غارقـة فـي كرسـيها الوثيـر، مكتوفـة الذراعيـن، محدقـة فـي

وجهه دون أن تتحول بنظرها عنه. وتعثر الرجل في القول، ثم توقف عن الكلام. وكأنما أرادت أن تسعفه في ورطته فقالت:

ـ لا تبال... استمر في حديثك... إني منصتة... أنا أحب الإنصات إليك... استمر.

وأخذ سانين يصف ضيعته ويتحدث عن عدد أفدنتها، وعن موضعها وحدودها وميزاتها الطبيعية، وخير وسائل استثمارها. بل تحدث كذلك عن منزله هناك، وموقعه الطبيعي وما يحيط به من مناظر جميلة... ولم ترخ ماريا نيقولاييڤنا طرفها عنه لحظة واحدة. وكانت تزداد إكبابا عليه وابتهاجًا به. وتحركت شفتاها ولكنها لم تبتسم... ثم عضت شفتها السفلى. وشعر سانين بالحرج والارتباك، وتوقف عن الكلام ثانية.

وبدأت ماريا تقول:

ـ يا يمترى پاڤلوڤيتش!

ثم صمتت مفكرة. وكررت قولها:

ـ يا ديمترى پاڤلوڤيتش! أنصت إلى. أنا لا أشك في أن شرائي لضيعتك صفقة رابحة. وأننا سنتفق على شروط بيعها. ولكن لابد لك أن تتيح لي مندوحة من الوقت للتفكير لا تتجاوز يومين. نعم يومين فهل تظن أنك تحتمل البُعد عن خطيبتك مدة هذين اليومين؟ إني لن

أعوقـك عـن العـودة إليها بعد هـذه المهلة فيما إذا رغبت أنـت في العودة وأقسـم لـك علـى ذلـك... بيـد أنـه إذا كنـت فـي حاجـه الآن إلى خمسـة... أو سـتة آلاف فرنـك. فيسـرني أن أُقرضـك هـذا المبلغ علـى أن نخصمه بعد ذلك مـن الثمن...

ووقف سانين قائلا:

ـ أشـكرك يـا ماريـا نيقولاييڤنـا علـى مـا أبديت مـن مجاملة واسـتعداد ودي لمسـاعدة رجـل غريـب لا تكادين تعرفينـه. وإذا كان لابد مما تطلبين فإنـي أفضـل أن أبقـى هنـا انتظـارا لمـا سيسـتقر رأيـك عليـه... سـأبقى هنا يومين.

ـ أنـا فـي حاجـة قصـوى إلـى هـذه المهلـة يـا ديمتـرى پاڤلوڤيتـش. ولكـن قـل لـي... أسـيصعب عليـك احتمـال تلـك المهلـة؟ أسـيصعب عليك ذلـك جـدًا؟ قـل لـي. باللـه عليـك.

ـ أنـا أحـب خطيبتـي يـا ماريـا نيقولاييڤنـا، وابتعـادي عنهـا ليـس، بالخطـب الهيـن.

وتنهدت ماريا وقالت:

ـ أنـت رجـل مدهـش! ألابـد لـك مـن الانصـراف الآن؟ اجلـس. وأقسـم أنـى لـن أسـتبقيك طويلا.

فقال سانين

ـ الوقت متأخر.

ـ وأنت في حاجة إلى الراحة بعد عناء السفر... وبعد عناء لعب الورق مع زوجي... خبرني... أأنت صديق حميم لزوجي إيپوليت سيدورتش؟

ـ كنا زملاء أثناء الدراسة.

ـ أكان في تلك الأيام على ما هو عليه الآن؟!...

وأجاب سانين متفاديًا الرد:

ـ وكيف هو الآن؟

وضحكت ماريا فجأة... ضحكت حتى احتقن وجهها... ورفعت منديلها إلى شفتيها. ثم غادرت مقعدها، وتقدمت إلى سانين مترنحة كأنما برح بها التعب، ووضعت يدها على كتفه.

وانحنى الرجل، واتجه إلى الباب، وجرت خلفه صائحة:

ـ تعال غدًا... وبكر في الحضور... أتسمعني؟

والتفت بعد أن تجاوز عتبة الباب، فرآها تعود وتسقط على كرسيها، وتضع يديها خلف رأسها. وسقطت أكمام قميصها الواسعة إلى كتفيها. وكان لا مندوحة من الاعتراف بأن هيئة معصميها العاريين، وقسمات وجهها جميعها، رائعة فاتنة الجمال.

ـ 35 ـ

ظـل مصبـاح سـانين مضـاءًا مـدة طويلـة بعـد انتصـاف الليـل. وكان يجلـس إلـى المائـدة منهمـكًا فـي كتابـة رسـالة مطولـة إلـى چيمـا، حدثهـا فـي الرسـالة عـن تفاصيـل مـا حـدث، ووصـف لهـا پولـوزوف وزوجتـه، ولكنـه لـم يسـهب إلا فـي وصـف شـعوره هـو، وختـم الرسـالة بقولـه إنـه سـيلقاها فـي بحـر ثلاثـة أيـام (وضـع علامـات تعجـب بعـد عبارتـه الأخيـرة هـذه). وحمـل رسـالته فـي صبـاح اليـوم التالـي إلـى مكتـب البريـد. ومـن ثـم قصـد إلـى حديقـة "كورهـاس" العامـة بقصـد الترويـح عـن نفسـه. وكانـت جوقتهـا الموسـيقية قـد بـدأت فـي عـزف ألحانهـا. ووقـف أمـام الجوقـة يسـتمع الـى لحـن مـن مقطوعـة "روبيـر الشـيطان". ولـم يكـن عـدد رواد الحديقـة قـد تكاثـر بعـد. ثـم ابتعـد عـن موضـع تجمـع النـاس بعـد تنـاول قـدح مـن القهـوة، وانتحـى ناحيـة منزويـة حيـث جلـس علـى أحـد مقاعـد الحديقـة، واسترسـل فـي التفكيـر.

وصدمت كتفه ذراع مظلة على غرة، ولم تكن الصدمة خفيفة بحال.

وجفل ورفع بصره فإذا ماريا نيقولاييڤنا واقفة أمامه، مرتدية ثوبًا أخضر

ـ أشـهب، وقبعـة حريريـة بيضاء، وقفـازًا سـويديًا، وكانت تتألـق يانعة منفـردة الحسـن كفلـق الصبـاح، ولكـن الفتـور الـذي يعقـب النـوم العميق كان باديـا فـي حركاتهـا ونظراتهـا... قالـت لـه:

ـ أنعم صباحا... أرسلت منذ الصباح الباكر في طلبك فقيل لي إنك غادرت فندقك. وأنا لم أنته إلا الآن من شرب الكوبة الثانية من المياه المعدنية التي يرغمونني على شربها دون أن أعرف لذلك سببًا... فهل هناك من هو أصح منى بدنا؟ ولابد لي الآن من المشي ساعة كاملة لأهضم ما شربت... فهل تود مرافقتي؟ وسنتناول القهوة معًا بعد الانتهاء من تجولنا.

وأجاب سانين وهو يغادر مقعده:

ـ سبق لي أن تناولت قهوة الصباح... ولكن يسعدني أن أتمشى معك.

ـ هات ذراعك لتأبطها... لا تخش شيئًا، فإن خطيبتك ليست هنا... ولا يمكن أن تراك.

وابتسم سانين ابتسامة مفتعلة، وكان يشعر بالضيق كلما ذكرت ماريا اسم جيما، ولكنه أسرع إلى الانحناء في طواعية. ومالت ماريا على ذراعه في رفق وبطء، وتأبطها في حرص، وبدت كأنها تتعلق بها.

وقالت وهي تضع مظلتها على كتفها:

ـ تعال من هذه الناحية... فأنا أعرف هذه الحديقة كما أعرف داري، وسأريك نواحيها الجميلة جميعها... ولكن، استمع إلى (كانت مغرمة بتكرار هاتين الكلمتين) إننا لن نطرق موضوع ضيعتك الآن، فسيتسع لنا الوقت للتحدث عنها بعد الإفطار، وكل ما أورده أن

تحدثنـي عـن نفسـك، حتى أعـرف أي رجل سـأتعامل معه. وسـأحدثك بعد ذلـك عن نفسـي... فيما إذا شـئت... هـل اتفقنا؟

ـ ولكن، فيم هذا الاهتمام بـ....

ـ كفى، كفى! إنك تخطئ في فهم قصدي... فأنا لا أحاول مغازلتك...

وهزت ماريا نيقولاييڤنا كتفيها وهي تردف:

ـ لكأنما تحـاول مثلـي مغازلـة رجـل عقـد خطبتـه علـى فتـاة فـي جمال التمثـال الأثـري! المسـألة هـي أنك تملك بضاعـة تعرضها للبيع وأنا المشـترية. ومـن حقـي أن أعـرف كل شـيء يتعلـق بتلـك البضاعـة... فتعـال الآن وحدثني عنهـا... واعلـم أنـى لا أكتفـى بمعرفـة البضاعـة نفسـها، لابـد أن أعـرف حقيقة بائعهـا. لقـد كانـت هـذه خطة أبـى فـي معاملاتـه... فلنتحـدث الآن... ولك أن تتجـاوز عـن سـيرة طفولتك، وتبـدأ الحديث عن فتـرة حياتك التي تلت سـفرك إلـى الخـارج. فـأي البـلاد زرت منـذ ذلـك الوقت إلـى اليـوم! ولكـن، تمهل في سـيرك، فمـا مـن داع إلى ذلك الإسـراع.

ـ أتيت إلى هنا من إيطاليا حيث قضيت عدة أشهر.

ـ يبـدو أنـك مُغـرم بـكل مـا هـو إيطالـي، ومـن العجيـب أنك لـم تجد "موضوعًـا" للحـب هنـاك!!... أتهوى الفنـون الجميلة؟... أيهـا؟... التصوير؟... أم لعلـك تفضل الموسـيقى؟

ـ أحب الفن... بل أحب الجمال في شتى صوره.

ـ والموسيقى! أتحبها؟...

ـ أحب الموسيقى كذلك.

ـ ولكنى لا أحبها قط. بيد أنى أحب الأغاني الروسية... أغاني الريف الروسي في زمن الربيع. أتعرفها؟ الغناء والرقص معا... والنساء في جلابيبهن الحمر، مزينات الرؤوس بعقود الخرز... والحشائش الخضر وهي في ريعانها... ورائحة دخان الأفران... هذا ما أحبه... ولكنى، ما لى أتحدث عن نفسي؟!. تحدث أنت، لا تدع الكلام... حدثني عن نفسك.

وواصلت ماريا نيقولاييڤنا السير وهي ترمق سانين بنظرها كل حين.

وكانت طويلة إلى حد أن وجهها كان يدانى وجهه طولا.

وطفق يحدثها عن حياته. وبدأ الحديث محجمًا متبرمًا متبلدًا، ثم حما وطيس الكلام، فتدفق إلى أن بلغ حد الثرثرة. وكانت ماريا نيقولاييڤنا تجيد فن الإنصات... وكانت كذلك صريحة على نحو يحمل غيرها على الصراحة دون وعى. وغنيت بتلك الموهبة التي قال عنها الكاردينال ريتس: "القدرة المخيفة على سرعة الألفة". وحكى لها سانين قصة حياته، ووصف لها رحلاته، بل حدثها حتى

عـن صبـاه، ومـدة إقامته فـي بطرسـبورج... ولـو أن ماريـا نيقولاييڤنا كانت مـن سـيدات الطبقـة الراقيـة المهذبة لما جرؤ سـانين علـى محادثتها بمثل هـذه الحريـة. ولكنهـا قالـت عـن نفسـها إنهـا إنسـانة بسـيطة لا تعيـر أيـة أهميـة للمراسـيم والتقاليـد... هكذا عرفت سـانين بنفسـها.

بيـد أن هـذه "الإنسـانة البسـيطة" كانـت تسـير إلـى جانبـه، خفيفـة الخطـوة، مائلـة على ذراعه، شـاخصة البصر إليه... لم تكن إنسـانة بسـيطة، ولكـن شـابة غضـة الإهاب مـن ذلك الصنف الـذي يطفح بالجاذبيـة الرقيقة القاهـرة، التـي تخبـل عقلنـا، وتقضـى علينـا نحـن الضعفـاء الفانيـن... تلـك الجاذبيـة المقصـورة علـى الجنس السـلافي، أو علـى غير الأصيل مـن أبنائه الذيـن أمتـزج دمهم بدمـاء أجنـاس أخرى.

طـال تجولهمـا وتحادثهمـا أكثـر مـن سـاعة، ولـم يتوقفـا أثنـاء ذلـك لحظـة، بـل مضيـا يقطعـان طـرق الحديقـة المتداخلـة التـي لا تنتهـي، ويصعـدان فـي ربواتهـا، ويسـتمتعان بمناظرهـا الخلابـة، ثـم ينحـدران إلى الأرض المنبسـطة، ويغوصـان فـي ظـلال الأشـجار الكثيفـة. سـارا علـى هذا المنـوال ذراعـا فـي ذراع دون انقطـاع... ولم يسـتطع سـانين مقاومة نوبات الغيـظ التـي كانـت تنتابـه فهو لـم يقض مثـل هـذا الوقت الطويـل متجولا مـع چيمـا بيـن أحـواض الزهر وتحت ظـلال الشـجرة... وهذه السـيدة تأتى فجـأة، وتسـتولى عليـه هكـذا... وأخـذ يـردد عليهـا السـؤال التالي.

ألم تتعبي؟

وكانت تجيبه في كل مرة:

ـ أنا لا أتعب أبدًا.

وكثيـرا مـا مـرا بأنـاس يتريضـون مثلهمـا. وكانـت أكثريـة هـؤلاء تحيي ماريـا نيقولاييڤنـا، وإن دلـت بعـض تلـك التحيـات علـى مجـرد المجاملـة، فقـد دل بعضهـا الآخـر علـى الخضـوع والزلفى ومـن بين مـن قابلاهم رجل أسـود الشـعر، حسـن الشـكل، يرتـدى سـترة على أحدث طـراز، نادتـه ماريا مـن بعيـد، ثـم قالت لـه بلهجة باريسـية سـليمة:

ـ اعلـم "كونـت" أنـه لا يجـوز لـك الحضـور لزيارتـي اليـوم وغدًا. ورفـع الكونـت قبعتـه دون أن ينبس بكلمـة، وانحنى انحنـاءة طويلة.

وسـأل سـانين علـى عـادة أغلـب الروس، عـادة توجيـه الأسـئلة فيما لا يعنيهم :

ـ من هذا؟

ـ هـذا؟... هـو أحـد الفرنسـيين... والبلـدة تزخـر بهـم... وقـد اعتـاد أن يزورنـي... أيضـا. ولكـن ميعـاد تنـاول القهـوة قـد حـان. لنعـد إلـى المنـزل، فأغلـب الظـن أن رياضتنـا فتحـت شـهيتك لـلأكل. ولابد أن "رجلـي الطيب" قـد بـدأ يفتـح عينيـه ويتشـمم اخبارنا.

وأخـذ سـانين يردد هـذه الكلمات: "رجلي الطيب!" "يتشـمم أخبارنا!"، ويسـائل نفسـه: "أتجيـد الفرنسـية إلـى هذا الحد، وتسـتعمل مـع ذلك تلك الكلمـات المبتذلـة؟!! يا لها من امـرأة عجيبة!!.

***

لـم تكـن ماريـا نيقولاييڤنا مخطئة فـي ظنها. فقد وجـدت عند عودتها إلـى الفنـدق، "رجلهـا الطيـب"، "البدين" جالسًـا إلى مائدة أعـدت للإفطار، وقـد وضع على رأسـه طربوشـه الأحمر القانـي... وسـألها عابس الوجه:

ـ خلت أنك لن تعودي أبدًا... وقد أوشكت أن أفطر بمفردي.

وأجابت ماريا نيقولاييڤنا في مرح ظاهر:

ـ أغضبـت؟... لا عليـك، فـإن ثـورة الغضـب تفيـدك على أية حـال، إنك تـكاد تأسـن لطـول ركـودك. انظر، لقـد جئت لـك بزائر. دق الجـرس للخادم وكلفـه بـأن يحضـر لنـا أجـود قهـوة فـي الوجـود، وليحضـر كذلـك أفخـر ما أنتجتـه درسـدن مـن أكـواب الصيني، ومفرشًـا في بيـاض الثلـج الناصع...

وألقت بقبعتها بعيدًا، وصفقت بيديها...

وحدجهـا زوجهـا بنظـرات نفـذت مـن تحـت حاجبيـه، وقـال بصـوت فاتر:

ـ ما سر نشاطك هذا يا ماريا نيقولاييڤنا؟...

ـ ليـس هـذا مـن شـانك يـا إيپوليت سـيدوريتش... عليك أنـت أن تدق الجـرس. وأنـت يـا ديمتـرى پاڤلوڤيتـش تعـال وأفطـر مـن جديـد... آه، كـم أحـب أن آمـر وأنهـى!! فمـا مـن متعـة فـي الوجـود تعـدل متعـة إصـدار الأوامر.

وهمهم زوجها:

ـ بشرط أن تجدى من يطيعك.

ـ بالطبع. وهذا هو سـر الابتهاج الذي أشـعر به. لا سـيما في وجودك... أليـس كذلك؟... أجب يا بديـن... ولكن ها هي ذي القهوة.

ودخـل الخـادم يحمـل صينيـة كبيـرة تحـوي آنيـة القهـوة، كمـا تحوي إعلانًـا مطبوعًـا عـن مسـرح ڤيسـبادن. وانقضـت ماريـا نيقولاييڤنـا علـى الإعـلان صائحـة:

ـ درامـا!... مأسـاة ألمانيـة!!... إنهـا خير مـن الملهاة الألمانيـة على أية حال.

التفتت إلى الخادم واستطردت:

ـ اطلـب إليهـم أن يحجـزوا لـى "اللـوج" الأمامـي. ولكـن لا، ليحجـزوا لـي المقصـورة الرئيسـية فهـي أفضـل. أسـمعت؟... لابـد لي مـن المقصورة الرئيسية.

وتجرأ الخادم فسألها:

ـ وإذا كان صاحب السعادة مدير "الستاد" سبق أن حجزها لنفسه؟

ـ أنفح صاحب السعادة عشرة "تالارات" (قيمتها جميعها جنيه ونصف جنيه)، على أن تحتجز المقصورة... لابد لي من المقصورة الرئيسية. أسمعت؟

وأحنى الخادم رأسه في خضوع وطاعة.

ـ أتحضر معي إلى المسرح يا ديمترى پاڤلوڤيتش؟ إن الممثلين الألمان يثيرون المشاعر... أتحضر؟... حقيقة؟... ما أظرفك... وأنت يا بدين! ألا تحضر أنت أيضا؟...

وأجاب پولوزوف وهو يضع فمه في كوب القهوة:

ـ كما ترين.

ـ الأفضل أن تبقى هنا، فأنت معتاد أن تنام أثناء التمثيل. ثم إنك لا تحسن فهم الألمانية على أية حال. وسأخبرك بما تصنع... اكتب إلى مدير أعمالي عن الطاحونة الهوائية... أنت تعرف المسألة... عن طحن حبوب الفلاحين... قل له إني لن أسمح لهم بهذا... وسيكون هذا العمل خير تسلية لك طوال المساء...

وغمغم پولوزوف:

ـ حسنًا.

ـ مرحى! يا لك من حبيب ألمعي!... وما دمنا قد تحدثنا الآن يا سادة عن وكيل الأعمال، فلنعرج في حديثنا على الأعمال نفسها... لنتحدث، بعد أن يريحنا الخادم من الأواني الفارغة، عن صفقة البيع. وعليك يا ديمترى پاڤلوڤيتش أن تفضي إلينا بكل ما لديك من معلومات عن ضيعتك، وتذكر لنا الثمن الذي تطلبه، والمبلغ العاجل الذي تريد الحصول عليه مقدمًا. عليك أن تخبرنا بكل ما عندك. (وقال سانين لنفسه: "وأخيرًا!!. شكرا لله"). لقد ذكرت لي طرفًا من هذا الموضوع وأنا لم أنس وصفك البديع لحديقة منزلك الريفي... ولكن "البدين" لم يسمع ما قلت. فهل تعيد قولك على مسامعه، فلعله يمدنا برأي صائب؟

وإن فكرة إمكان مساعدتك على إتمام زواجك تسرني كل السرور وقد وعدتك أن أستمع لكل ما تود قوله بعد الإفطار، وأنا لا أخل بوعدي أبدًا. أليس كذلك يا إيپوليت سيدوريتش؟

ومر پولوزوف بيده على جبينه وقال:

ـ الذي لا شك فيه هو أنك لم تخدعي أحدًا.

ـ نعم. ولن أخدع أحدًا في المستقبل كذلك. تعال يا ديمترى پاڤلوڤيتش واشرح موضوعك... على حد تعبير أعضاء المجلس التشريعي.

- 36 -

وأخـذ سـانين يشـرح موضوعـه، أي أخـذ يصـف ضيعتـه للمـرة الثانية، ولكنـه لـم يفـض فـي وصـف مناظرهـا الطبيعيـة الجميلـة. وكان عنـد ذكـر الأرقـام والإحصـاآت يتجه إلـى پولوزوف مستشـهدًا به، واكتفـى هذا الأخير بـأن يصـوت كالخنزيـر ويهز رأسـه دون أن يـدل صوته وإشـارته على قصده الـذي لـم يكـن يعلمـه إلا بارئه، بيد أن ماريـا نيقولاييڤنا لـم تكن في حاجة لـرأى زوجهـا ومعونتـه، فقد كانـت ذات درايـة بالأعمال التجاريـة والإدارية إلـى حـد يثيـر الدهشـة... كانت تلـم بجميع مداخلهـا ومخارجهـا، فلا تترك موضعًـا فيهـا لا تتغلغـل إلـى صميمـه، ولا تغفل عن سـؤال يكشـف أغواره، ولا تقـول كلمـة لا تصيـب بهـا هدفًـا، كانـت تضـع النقـط فـوق الحـروف وتتخطـى الأسـقاط... ولـم يتوقع سـانين منها مثـل هذا التدقيق في سـؤاله، ولـم يعـد نفسـه له، واسـتمر اسـتجوابها لـه على هـذا النحو سـاعة ونصف سـاعة شـعر خلالهـا كأنـه مجـرم يجلـس في مـكان ضيـق أمام قـاض صادق قـاس، ولكنـه كان يغمغـم فـي مـرارة: "هـدا مـن حقهـا علـى أيـة حـال". ولـم تكـن ماريـا نيقولاييڤنـا تكـف عن الضحـك، وبـدا عليها كأنهـا لا تحمل المسـالة علـى محمـل الجـد. ولكـن هـذا لـم يخفـف مـن ورطـة سـانين وعندمـا اتضـح مـن "الاسـتجواب" عجـز سـانين عن تحديـد معنـى عبارتيه: "إعـادة تقسـيم الأرض" و"الفلاحـة الحديثـة" تسـاقط العـرق مـن ذقنه.

قالت ماريا نيقولاييڤنا في النهاية بحزم:

ـ حسنًا... إني أعرف ضيعتك الآن كل المعرفة، بل أعرفها كما تعرفها أنت، فما الثمن الذي تطلبه لكل رأس. (من المعلوم أن الأراضي الزراعية في روسيا كانت تباع في تلك الأيام على أساس نسبة "الرؤوس" أي نسبة عدد الفلاحين).

وأجاب سانين بصعوبة.

ـ نعم... أظن... يجدر بي أن أطلب... ألا أطلب أقل من خمسمائة روبل عن كل رأس...

وتذكر اشمئزاز پانتاليونى من رق الفلاحين، (آه يا پانتاليونى! يا پانتاليونى! أين أنت؟... هذا أوان صيحتك المدوية: "بربرية". باربيرى!... باربيرى!!).

ورفعت ماريا نيقولاييڤنا عينيها إلى السقف متخذة هيئة التفكير، ثم أرخت بصرها وقالت بعد فترة صمت:

ـ لم لا؟ يبدو لي أن ثمنك مقبول... ولكنى طلبت منك مهلة يومين للبت في الأمر، فعليك أن تنتظر إلى الغد لتسمع رأيي النهائي.

وأكبر الظن أننا سنتفق على شروط البيع جميعها، وستخبرني في هذه الحالة عن المبلغ الآجل الذي تريده.

ولاحظت أن سانين يحاول أن يقول شيئًا فصاحت:

ـ كفـى الآن حديثًـا عـن هـذا الموضـوع... "باسـتا كـوزى"، فقد ناقشـنا مسـألة الصفقـة البخـس مناقشـة مسـتفيضة، ولنرجـئ التتمة إلـى الغد.

ونظرت في ساعة دقيقة معلقة بنطاقها وقالت:

ـ سـأمهلك إلى السـاعة الثالثة، فاذهب في هذه الأثناء إلى "الكازينو" وتسـل بلعبة "الروليت" (نوع من الميسـر).

ـ أنا لا أقامر قط.

ـ أحقًـا مـا تقـول؟... يـا لـك مـن رجـل كامـل! بـل إنـك الكمـال بذاتـه، وأنـا كذلـك لا أقامـر، فمـن الحمـق أن يبعثـر الإنسـان مالـه فـي الميسـر. ولكـن اذهـب إلـى الكازينـو علـى أية حال، وأسـتمتع هنـاك برؤيـة الوجوه الجديـدة، وأعلـم أنـك سـترى أشـكالا غريبـة... فهنـاك سـيدة ذات شـارب كشـارب الرجـال تضـع تاجًـا علـى رأسـها... إنهـا أعجوبـة حقًـا!!. وهنـاك كذلـك أميـر مـن أمـراء الألمـان سـيثير عجبـك هـو أيضًـا... فـإن لـه سـيماء الملـوك، وأنفـا أقنـى كأنـوف الرومـان، وهـو مع ذلك يرسـم علامـة الصليب تحـت صـدارة كلمـا قامـر بريال واحـد!!... وتسـتطيع أيضًا أن تقـرأ الصحف والمجـلات، وأن تتمشـى... وصفـوة القـول إنك تسـتطيع تسـلية نفسـك بما شـئت مـن مسـليات حتـى السـاعة الثالثة. ولكن لابـد من رجوعـك إلينا في تلـك السـاعة... دون تـردد... لابـد مـن تنـاول الغـداء فـي الوقت المناسـب، فهؤلاء الألمان السـخفاء يرفعون سـتار المسـرح في تمام السـاعة السـابعة.

ومدت إليه يدها قائلة:

ـ ستغادرنا بلا حفيظة... أليس كذلك؟

ـ مهلا يا ماريا نيقولاييڤنا... أهناك ما يدعو إلى الحقد عليك؟

ـ نعم، فقد أرهقتك بأسئلتي، وسأكون أشد وأقسى غدًا.

وضاقت عيناها من جديد، وغمرت نوناتها خديها المحتقنتين، وصاحت:

ـ إلى اللقاء.

وانحنى سانين وخرج. ولاحقته في ممر الفندق ضحكات مرحة، ورأى في مرآة عكست له ما يجرى في الغرفة التي كان فيها. رأى ماريا نيقولاييڤنا تدفع طربوش زوجها إلى الأمام، كما رأى الزوج يجدف بيديه يائسًا بعد أن غطى الطربوش ناظريه.

- 37 -

وأيـة زفـرة أطلقهـا سـانين وهـو يتنفـس الصعـداء بعـد أن خـلا إلـى نفسـه فـي غرفتـه!!. لقـد صدقـت ماريـا نيقولاييڤنـا عندمـا قالـت لـه إنـه محتـاج إلـى الراحـة.. كان يود أن يسـتريح من أولئك المعـارف الجدد، ومن مقابلاتهـم ومحادثاتهـم... وأن ينفـض غبـار تلـك الألفـة المفروضـة عليـه... ألفـة سـيدة غريبـة عنـه تحاول التسـرب إلـى قلبه وفكـره... ومتـى يقع كل هـذا؟ يقـع فـي اليـوم التالـي لعامـه بحـب چيما لـه. وعقـد خطبتـه عليها. إنهـا لعنـة وقعـت عليـه! وأخـذ يناجـي حبيبتـه العفيفـة الطاهـرة ملتمسًـا مغفرتهـا فـي إصـرار وإلحـاح رغـم أنـه لـم يرتكـب أمـرًا "محـددا" يؤاخـذ عليـه. وقبـل الصليـب الذي أعطته لـه آلاف المرات. ولولا أملـه في الوصول إلـى حـل سـريع موفـق للموضـوع الـذي جـاء بـه إلـى فيسـبان، لعـاد راكبًا متـن الريـح إلـى فرانكفـورت... إلـى بيتها الحبيـب الذي أصبـح بمثابة بيته، ولخـر راكعًـا إلـى قدميهـا الحبيبتيـن... ولكـن لابـد ممـا ليس منه بـد... لابد مـن شـرب الـكأس حتـى الثمالـة... لا مفـر مـن أن يرتـدى ملابسـه، ويتناول الغـداء مـع تلـك السـيدة، ثـم يذهـب معها إلـى المسـرح. آه لو أنهـا تدعه علـى الأقـل، يسـافر صبـاح اليـوم التالي!

وكان هنـاك شـيء آخـر يقلق بالـه، بل يثيـر غضبه: كانت هـذه المرأة الغريبـة، رغـم تفكيـره فـي چيمـا دون انقطـاع، ورغـم مشـاعر الغبطـة

والمحبـة التـي صحبـت ذلـك التفكيـر، وأخيلة المسـتقبل السـعيد المتفتح أمامـه. كانـت مـدام پولـوزوف، رغـم هذا كلـه، تلاحقـه بلا هـوادة، وتفرض نفسـها عليـه، متبرجـة أمـام عينيـه. دون أن يسـتطيع زحزحـة صورتهـا التـي لا تفتـأ تتجلـى لـه، أو الهـروب مـن أصـداء صوتهـا، ونسـيان أحاديثها وحكاياتهـا، والتخلـص مـن التعبيـر الخفيف النفـاذ الغريب الشـبيه بأنفاس الزئبـق اليانـع... ذلـك العبيـر الـذي لـم يفتـأ يفـوح مـن ثوبها.

لـم يخـف عليـه أن هـذه المـرأة كانـت تلهـو بـه. كانـت تجـرب فيـه حيلـة بعـد حيلـة. ولكـن، لمـاذا؟!. أيكـون ذلـك مجـرد نـزوة امـرأة مدللـة أفسـدها غناهـا؟ امـرأة يمكن أن توصـف بأنها محرومة. لم تعرف السـعادة الحقيقيـة؟ وهـذا الـزوج!! يـا له من مخلـوق عجيـب!! ما علاقتـه الحقيقية بهـا؟ ولكـن لمـاذا تقتحـم هـذه الأسـئلة جميعهـا ذهـن سـانين؟ مـا صلـة مسـيو پولـوزوف وزوجتـه بـه؟ لمـاذا لا يطرد مـن مخيلته هـذه الصور التي تلاحقـه لاسـيما وقلبـه يتجه بكليتـه إلى غادة مشـرقة نقية كصبـاح الربيع؟ كيـف جـرؤت هـذه الصـور علـى التعلـق بأذيـال الصـورة الأخـرى الطاهـرة القدسـية؟! ولكنهـا تعلقـت بهـا فعـلا. تعلقـت بهـا مسـتخفة هازئة.

أتكـون هاتـان العينـان الشـهباوان المتلصصتان، وهذه النونـات الفاتنة وخصائـل الشـعر المتدليـة كالثعابين. أتكـون هذه المفاتن قـد تمكنت من قلـب سـانين إلـى حد أنـه لا يقوى علـى دفعها بعيـدًا عنه؟؟

هـراء! هـراء!!. سـيتبدد هـذا كلـه غـدًا دون أن يتـرك وراءه إثـرا. ولكن أسـيكون الخـلاص غـدًا فعلا؟ أستسـمع لـه بالرحيل؟

أعـاد سـانين علـى نفسـه هذه الأسـئلة مـرة بعد مـرة. وكانت السـاعة قـد قاربـت الثالثـة، فارتـدى سـترة "الفـروك"، وخـرج ليتمشـى فـي منتـزه المدينـة قليـلا، ثـم يتوجـه إلـى نزل پولـوزوف.

***

وجد في غرفة استقبال آل پولوزوف سكرتير إحدى المفوضيات.

وكان طويل القامة، ناعم الشعر، ألماني القسمات، يفرق شعر رأسه مـن خلـف (وكان ذلـك مـن مسـتحدثات تلـك الأيـام). ولكـن مـن يكـون الرجـل الآخـر إلـى جـواره؟ لـم يكـن إلا ڤـون دونهـوف، الضابط الـذي بارز سـانين منـذ بضعـة أيام.

لـم يكن سـانين يتوقع ذلك اللقاء بالتأكيد، وشـعر بالحـرج لأول وهلة، ولكنـه انحنـى لـه رغم ذلك. وسـألته ماريا نيقولاييڤنا وقـد لاحظت حرجه:

ـ ألك به سابق معرفة؟

وأجاب دونهوف:

ـ كان لي هذا الشرف.

ثم مال أذن ماريا نيقولاييڤنا، وهمس باسمًا:

ـ هذا هو من حدثتك عنه... مواطنك... الروسي.

وأجابت هي الأخرى همسا:

ـ لا! أحقا ما تقول؟!.

ثـم حركـت إصبعها متوعـدة في ابتسـام. وقامت على الأثـر تودعه، وتـودع سـكرتير السـفارة الطويـل الـذي لـم يكـف عـن النظر إليهـا وهو يفغـر فـاه، ويعبـر بـكل وسـيلة عـن تأثيـر جمالهـا البليـغ فـي نفسـه... وأذعـن دونهـوف علـى الفـور لمشـيئة ماريـا نيقولاييڤنـا، ورد تحيتهـا وانصـرف فـي هـدوء كمـا يفعـل صديق الأسـرة الـذي يلبـى رغباتها دون مـا حاجـة إلـى تنبيهـه لذلك. أما سـكرتير السـفارة فتلكأ في عنـاد، ولكن المضيفـة تخلصـت منـه مقتـرة فـي مجاملتهـا لـه، وقالت وهـي تودعه:

ـ اذهـب إلـى صاحبـة السـمو، فـلا داعـي لإنفـاق وقتـك فـي صحبـة امـرأة مـن صميـم الشـعب مثلى. (وكانـت أميرة موناكـو التي تشـبه فتيات الهـوى تقيـم بڤيسـبادن فـي تلـك الأيام).

وأجاب السكرتير التعس في إصرار:

ـ يا سيدتي العزيزة. إن أميرات العالم جميعهن

ولكـن نظـرة ماريـا القاسـية اضطرته إلـى مغـادرة الغرفة متقهقـرًا إلى الوراء.

كانـت ماريـا "فـي خير زينـة تلائمها" (على حـد تعبير جداتنـا). كانت ترتـدى ثوبًـا حريريًـا لامعًـا، قرنفلـي اللـون، ذا أكمام واسـعة، وتزيـن أذنيها بقرطيـن فـي كل منهما ماسـة كبيـرة. غير أن بريق عينيهـا كان ينافس بريق هاتيـن الماسـتين... كانـت تفيـض بهجة وحيويـة... كانت في خيـر حالاتها.

جلسـت وسـانين جنبـا إلـى جنـب، وطفقـت تحدثـه عن باريـس، عن المدينـة السـاحرة التي تنوى الرحيـل إليها خلال بضعة أيـام... وعن الألمان وضيقهـا بهـم، أولئـك القـوم الذيـن يتورطون في السـخف حيـن يتظاهرون باللباقـة... إن لباقتهم مزعجـة... منفرة.

وسكتت برهة، ثم فاجأت سانين بهذا السؤال الصريح:

ـ أحقًـا مـا يقـال مـن أنك بـارزت الضابـط الـذي كان هنا منـذ لحظات دفاعًـا عـن كرامة إحدى السـيدات؟

ورد على سؤالها بسؤال وقد أخذته الدهشة:

ـ من أين لك علم بهذا؟

ـ الدنيـا تمـوج بالإشـاعات يـا ديمتـرى پاڤلوڤيتـش. وقـد علمـت فيمـا علمـت أنـك كنـت علـى صـواب فيمـا أقدمـت عليـه كنـت علـى صـواب لا ينالـه الخطـأ مـن أي جانـب... وتصرفت تصـرف الفارس الشـريف... خبرني:

أكانت خطيبتك هي السيدة التي حاولت الدفاع عن كرامتها؟...

وقطبت سانين جبينه... فأسرعت ماريا نيقولاييڤنا إلى القول:

ـ حسنًا... لن أصر على السؤال. أنت لا تحب الكلام عنها... اغفر لي تطفلي... لن أعود لمثل ذلك مرة أخرى. لا تغضب...

وأقبل پولوزوف في هذه اللحظة من الغرفة الأخرى ممسكًا بإحدى الصحف، فسألته زوجته:

ـ ماذا أتى بك؟... أأعد الطعام؟...

ـ سيقدم لنا الطعام بعد دقيقة واحدة. ولكن احذري ماذا قرأت في صحيفة "النحلة الشمالية"... لقد مات الأمير جروموبوى.

ورفعت ماريا نيقولاييڤنا بصرها إليه وقالت:

ـ حقا؟!... قدس الله روحه!...

وحولت بصرها إلى سانين:

ـ كان في عيد ميلادي... في شهر فبراير من كل عام... يزين كل ركن في غرفتي بزهر الكاميليا. ولكن ذلك لم يكن يكفي ليحملني على البقاء في بطرسبورج في أشهر الشتاء الجليدية...

ثم عادت فوجهت الكلام إلى زوجها.

ـ كانت سنه تتجاوز السبعين عامًا... أليس كذلك؟

ـ نعـم... وفـي الصحيفـة وصـف مُفصـل لتشـيع الجنـازة. لـم يتخلـف عنهـا أحـد مـن رجـال البـلاط... ونظـم الأميـر كوڤريسـكين قصيـدة بهـذه المناسـبة.

ـ ما ألطف هذا منه!

ـ أأنشدها لكما؟ لقد نعته الأمير بالسياسى القدير!

ـ لا، لا... لا نريـد سـماعها. هـو!! السياسـى القديـر؟!. إنـه لـم يكـن إلا عشـيق تاتيانـا يورييفنـا. هيـا بنـا إلـى مائـدة الطعـام، وليدفـن الموتـى الموتـى... يـا ديمتـرى پاڤلوڤيتـش!! هـات ذراعـك.

***

كان الغداء فاخرًا كغذاء أمس، وقد أزجاه الحضور بالأحاديث الخفيفة اللطيفة. وكانت ماريا نيقولاييڤنا تجيد الحديث، وهذه الميزة نادرة بين النساء، لاسيما نساء روسيا. وهي لم تكن تتكلف انتقاء ألفاظها وعباراتها، ولم تتخذ إلا بنات جنسها الروسيات هدفًا لمفاكهتها. وقد أغرق سانين في الضحك أكثر من مرة لبعض نكاتها اللطيفة اللاذعة. ولم تكن ماريا نيقولاييڤنا تكره شيئًا ككراهيتها للنفاق. والكلام المائع والكذب... ولكنها كانت تجد هذا كله في كل مكان. وكثيرًا ما دار حديثها عن الوسط غير الراقي الذي عاشت في ظله، فكانت تباهى به، وتفخر بالقول الذين نشأوها، وتحكى مختلف النوادر عن أهلها، وتصف مراتع صباها، وتدعو نفسها

الفلاحة "الجلف". ولاحظ سانين أنها خبرت من أحداث الحياة مالم تخبره أكثرية من في مثل سنها من السيدات. وكان پولوزوف يحشو جوفه متأنيًا متلمظًا، ويعب في الخمر مختبرًا متلذذًا، ولا يرفع ناظره عن مأكله ومشربه إلا عرضا ليصوب بعينيه الذابلتين الساهمتين في مظهرهما، الواعيتين في مخبرهما، نظرة إلى سانين وأخرى إلى زوجته. ودارت ماريا نيقولاييڤنا إليه وصاحت:

ـ يا لك من محبوب فطن!!. لقد وفقت كل التوفيق في شراء حاجياتي من فرانكفورت، وفي الحق إنك تستحق على ذلك قبله أطبعها فوق جبينك، ولكنك لا ترضى بمكافأة من هذا النوع!

وأجاب پولوزوف وهو يقطع "جوزة أناناس" بسكين من الفضة الخالصة.

ـ أحقًا ما تقولين؟

ولحظته ماريا نيقولاييڤنا بنظرها وهي تنقر المائدة بأناملها وسألته سؤالا مغرى:

ـ ألا يزال رهاننا قائمًا؟

ـ بالتأكيد!

ـ حسنًا! أنا التي ستفوز.

ورفع پولوزوف ذقنه:

ـ مهلا يا ماريا نيقولاييڤنا، فلا أحسب إلا أنك ستخسرين رغم كل ثقتك بنفسك.

وسأل سانين:

ـ ما موضوع الرهان؟ أأستطيع أن أسأل؟

ـ أجابت ماريا نيقولاييڤنا ضاحكة:

ـ ستعرف ذلك فيما بعد، أما الآن فلا.

ودقت الساعة سبع دقات. ودخل الخادم يعلن أن العربة تنتظر على باب الفندق. ورافق پولوزوف زوجته إلى باب الغرفة ثم عاد فارتمى في كرسيه؛ ووصل اليه صوت زوجته من الممر:

ـ إياك أن تنسى كتابة الخطاب الى وكيل أعمالي

ـ لا تقلقي، فأنا رجل لا يخلف وعده.

ـ 38 ـ

كان بناء مسرح ڤيسبان عام ١٨٤٠ متضعا رثّ الجدران. كذلك كانت جلبة رواده وقلة وعيهم تدل على أنهم من أواسط الناس. فهو بذلك لم يكن يسمو على مستوى المسارح الألمانية في ذلك العهد. وخَير مثل نضربه له اليوم هو مسرح جماعة "كارلسروه" التي يرأسها الأستاذ الشهير "هرديڤريينت". وكانت للمقصورة التي استأجرتها "صاحبة العصمة" مدام ڤون پولوزوف غرفة داخلية تحتوي على مقعد مستطيل. (ويعلم الله وحده كيف استطاع الخادم أن يستأجر تلك المقصورة، فمن غير المعقول أنه استطاع رشوة مدير الستاد كما طلبت إليه ماريا أن يفعل... أكان يستطيع ذلك؟؟.). وأرخى سانين ستار المقصورة فعزلها عن باحة المسرح تلبية لطلب ماريا نيقولاييڤنا التي وقفت بالباب حتى أتم ما كلفته به. ثم دخلت وهي تقول:

ـ لا أريد أن يراني أحد حتى لا يتقاطر الناس على المقصورة.

وأجلس سانين عن يمينها طالبة إليه أن يستدبر المسرح حتى تبدو المقصورة للناس خالية.

وعزفت جوقة الموسيقى افتتاحية "عرس فيجارو"... "لي نوتزى دى فيجارو". وارتفع الستار. وابتدأت التمثيلية.

كانـت التمثيلـة شـبيهة بـآلاف التمثيليـات الألمانيـة التي يعـرض فيها المؤلـف، الـذي تفـوق شـهرته حقيقـة موهبتـه، فكـرة عميقـة أو موضوعًـا حيويًـا فـي أسـلوب واضـح، ولكنـه مجـرد مـن الفـن والحيويـة، وفـي دأب تفصيلـي سـقيم يصـل فـي سـخفه إلـى مسـتوى فكـر الشـعوب البدائيـة... واحتملـت ماريـا نيقولاييڤنـا ذلـك حتى منتصف الفصـل الأول. ولكن صبرها نفـد عندمـا رأت العاشـق فـي التمثيليـة (وكان يرتدى سـترة رمادية منتفخة الأكمـام، وصـدارًا مخططًـا ذا طوق مـن القطيفة وأزرار من الصدف، ويشـد إلـى وسـطه سـروالا مزينًـا بالأشـرطة الجلديـة، ويكسـو يديـه بقفـاز أبيض) نفـذ صبرهـا عندمـا رأت العاشـق يضـرب صدره بقبضـة يده إذ علـم بخيانة حبيبتـه، ويرفـع سـاعديه راسـما بهمـا زاويتيـن حادتين فـي الفضـاء، وينبح كالكلـب المسـعور... وصرخـت في اشـمئزاز:

ـ إن أتفـه ممثـل فرنسـي فـي أصغـر قرية من قـرى فرنسـا يفضل خير ممثلـي المانيـا. فهـو يقـوم بتمثيـل دوره على نحو طبيعي مستسـاغ.

ثم أردفت وهي تنظر إلى سانين، وتمسح ظهر مقعدها بيدها:

ـ تعالى نتحدث.

وأذعن سانين، فرمقته بنظرة ساحرة:

ـ أنت لين كالعجين، وستسعد أيام زوجتك... أما هذا المهرج...

وأشارت إلى ممثل يقوم بدور مدرس خصوصي.

ـ هـذا المهـرج أيقـظ فـي مُخيلتي ذكريـات الصبا. فقد علقـت مرة بحب مـدرس، وكان هـذا هـو حبي الأول... ولكـن لا... كان حبي الثاني. فقد عشـقت أول مـا عشـقت قسًـا بسـيطًا فـي ديـر " دونسـكوى"، ولـم تكن سـني حينذاك تتجـاوز الثانيـة عشـرة. ولـم تتح لـي رؤيته إلا أيـام الآحاد.

كان يتدثـر بجلبـاب مـن القطيفـة، ويتطيـب بمـاء "اللاونـدة"، ويسـير فـي الطرقات ممسـكًا بمجمرة الكنيسـة، قائلا للسـيدات بالفرنسـية عفوًا... عفـوًا... "پـاردون... پـاردون!" اسـمح لـي... "إكسـكوزيه!" ولكنـه لـم يرفـع عينيـه إليهـن قـط... ورمـش جفنيـه!... آه علـى رمـش جفنيـه!!. كان طولـه هكذا...

وإشارات بسبابتها إلى نصف طول بُنْصُرها...

ـ أمـا مدرسـي فقـد كان يدعى مسـيو جاسـتون. كم كان واسـع الثقافة وقاسـيًا فـي معاملتـه! كان سويسـريا وأنـت أدرى بأولئـك السويسـريين صـارم الوجـه، ذا شـاربين فـي لون القار، وسـيماء تبـدو من جانبها كسـيماء الإغريـق القدامـى، وشـفتين كأنهمـا الحديـد المصهـور... كنـت أرتجف منه خوفًـا، بـل إنـه كان الإنسـان الوحيـد الذي شـعرت بالخوف منه فـي حياتي. وقـد بـدأ مهمتـه فـي منزلنـا بتعليـم أخـي. أخـي الـذي مـات. مـات غرقًـا. وكانـت إحـدى الغجريـات قـد تنبـأت لـه بمـوت مفاجئ فـي حـادث أليم! ولكـن هـذا هـراء، فأنـا لا أصـدق التنجيـم. أتتصـور إيپوليـت سـيدوريتش مطعونًـا بخنجـر؟! أنـا لا أتصـور الأشـياء الغريبة.

وغمغم سانين:

ـ من لا يموت بالخنجر يموت بغيره.

ـ هراء في هراء... أأنت متطير؟ أتعتقد في الخرافات؟ أنا لا أعتقد في شيء من هذا. ولكن، ليكن ما يكون... كان مسيو جاستون يقطن في دارنا. وكانت غرفته تعلو غرفتي. وكم استيقظت أثناء الليل لأسمع خطواته وهو يدب في سكون الليل رائحًا غاديًا فوقى. وكان قلبي يخور حينذاك هيبة وجزعا... أو يجيش بمشاعر غامضة... أما أبى فكان ضحل الثقافة، بيد أنه عنى كل العناية بتعليمنا... أتتصور أنى أعرف حتى اللاتينية؟

ـ أنت؟! تعرفين اللاتينية!!

ـ نعم... أنا... مسيو جاستون علمني إياها. وقد قرأت معه قصة أينايد مكتوبة بتلك اللغة. وإذا كانت القصة سخيفة فهيَّ لا تخلو من مواضع جيدة... أتذكر الفصل الذي تقابل فيه "ديدو"و"أنياس" في الغابة.

وقال سانين بسرعة:

ـ نعم، نعم... أذكر ذلك.

وكان قد نسى اللاتينية وما يتعلق بها. ولم يبق في ذهنه غير فكرة غامضة عن القصة المذكورة، وحدجته ماريا نيقولاييڤنا بنظرة من نظراتها الجانبية الصائبة وقالت:

ـ ولكـن لا تظننـي امـرأة متعلمـة، فاللـه يعلـم أنـى بعيـدة عـن ذلـك، وأنـى مجـردة مـن كل كفايـة... فأنـا لا أكاد أقيـم خطـى، ولا أحسـن القراءة بصـوت عـال، والعـزف علـى البيانو، والرسـم والحياكـة... أنا لا أجيد شـيئًا... فلسـت إلا كمـا تراني!...

وبسطت يديها واستطردت:

ـ أنـا لا أحدثـك عـن هذا كلـه إلا لأعوضك أولا عن الاسـتماع إلى أولئك المغفليـن (وأشـارت إلـى المسـرح حيـث كانـت الممثلة الأولـى تصرخ كما صـرخ الممثـل الأول مـن قبل، وتضـرب صدرها بقبضـة يدها مثله)

ولأفي ثانيا بديني فأحدثك عن نفسي كما حدثتني أمس عن نفسك.

فقال سانين:

ـ أنا لم ألب إلا رغبتك حين حدثتك عن نفسي.

ودارت إليه ماريا نيقولاييڤنا فجأة:

ـ وأنـت! أليسـت لـك رغبـة فـي معرفـة أيـة امـرأة أنـا؟ ولكـن أمرك لا يدهشـني بالطبع...

ثم اتكأت على حشية مقعدها، وواصلت قولها:

ـ إن الرجـل إذا هـم بالـزواج بعـد اكتوائـه بلوعـة الحـب، والاقتتال في سـبيل حبيبتـه، لا يتسـع له مجـال الاهتمـام بامرأة غيـر خطيبته.

وصمتت ماريا نيقولاييڤنا برهة أخذت تقرض خلالها يد مروحتها بأنيابها العريضة المبيضة ابيضاض اللبن.

وامتلأ أنف سانين ثانية بذلك العبير الذي عام عليه في هذه الأيام الأخيرة، وكاد يكتم أنفاسه. وكان الحديث الذي دار بينه وبين ماريا خافتا كأنه الهمس، وقد أثار ذلك مشاعره، وأقلقه كل الإقلاق.

فمتى ينتهي هذا كله؟ أما له من آخر؟!. إن ضعاف الإرادة لا يحسمون الأمور بأنفسهم، ولكنهم يدعون ذلك للأيام.

وعطس أحد الممثلين على المسرح وكان المؤلف قد ضمن تمثيليته ذلك بقصد إضحاك النظارة، ولم تشتمل التمثيلية في الواقع على أي عنصر آخر من عناصر التفكهة والإمتاع وقدر النظارة حتى هذا الجميل للمؤلف، وأوفوا العطسة حقها من الضحك.

وزاد هذا الضحك سانين اضطرابًا وضيقًا...

وكم من أوقات مرت به لم يدرك خلالها أهو راض أم غاضب؟!

مؤتنس أم متضايق؟!. آه لو رأت چيما الحالة التي هو عليها؟!!.

***

قالت ماريا نيقولاييڤنا على حين فجأة:

ـ أليس عجيبًا أنك تجد إنسانًا يقول لك هادئا كل الهدوء: "أنا اعتزم الزواج!" ولكنك لا تجد إنسانا يقول لك في هدوء "أنا

أعتـزم أن ألقـى بنفسـي في اليـم!!" وما الفـرق بين الحالتيـن؟ أليس هذا مضحكًا؟!.

فأجاب وقد دهمه التبرُم:

ـ هنـاك فـرق ضخم بيـن الحالتين يا ماريـا نيقولاييڤنا. فكـم من الناس مـن لا يخشـون أن يلقـوا بأنفسـهم فـي اليـم... لأنهم يحسـنون السـباحة... أمـا وقـد طرقت بنفسـك موضوع الـزواج... المزعـج... الغريـب...

وعض شفته بأسنانه متوقفًا عن الكلام...

ودقت ماريا نيقولاييڤنا كفها بمروحتها قائلة.

ـ أتـم مـا بـدأت قولـه يـا ديمتـرى پاڤلوڤيتـش... أفصـح عمـا أردت أن تقـول. أنـا أعـرف مـا تقصـد... إنـك تـود أن تقـول: "مـا دمـت قـد طرقـت هـذا الموضـوع يـا سـيدتي العزيـزة، فهـل ثمـة زيجـة أغـرب مـن زواجـك بپولـوزوف؟!. ويجـب ألا يغـرب عـن بالـك أنـى عرفـت زوجك منـذ أن كان صبيـا." هـذا مـا كنـت علـى وشـك أن تقولـه... أنـت يا مـن يجيد السـباحة.

وبدأ سانين يقول:

ـ مغفرة...

أليست هذه هي الحقيقة؟... أليست هذه هي الحقيقة؟...

كررت ماريا نيقولاييڤنا هذا السؤال، ثم أردفت:

ـ تعال وواجهني بنظرك. وقل لي إن ما ذكرته لك غير صحيح. وجالت نظرات سانين في حيرة ثم غمغم:

ـ حسنًا. إن ما قلته حق. ما دمت تلحين في السؤال.

وهزت ماريا نيقولاييڤنا رأسها.

ـ هذا جميل.. وهل سألت نفسك، أنت يا من يحسن السباحة، عن السبب الذي دعا سيدة مثلى، ليست بالفقيرة ولا بالعاجزة، إلى الإقدام على هذا؟ لعل الأمر يهمك، ولكن لا بأس، فسأشرح لك السبب على أيه حال، ولن أفعل ذلك الآن، بل سأرجئه إلى ما بعد الاستراحة، فإني أخشى أن يقتحم علينا الغرفة فضولي.

ولم تكد ماريا نيقولاييڤنا تنهى عبارتها حتى أطل من باب المقصورة الذي فتح نصف فتحة، وجه أحمر تلتمع فيه قطرات العرق... أنفه مدلى، وأذناه مفرطحتان، وشعر رأسه ينسدل على جانبيه في شكل إطار، وعيناه البليدتان الفضوليتان تتطلعان من وراء عوينات ذهبية مشبكة بأنفه... أطل صاحب الوجه الأدرد رغم صغر سنه ووقع بصره على ماريا نيقولاييڤنا فعبس وأخذ يكرر انحناءه، ودخل بنصف جسمه من فتحة الباب فظهرت عنقه الليفية التي تحمل رأسه. ولوحت ماريا نيقولاييڤنا بمنديلها مشيرة له بالانصراف وهي تقول بالألمانية:

ـ أنا لست موجودة. (اصطلاح غربي) "إبخ بن نيخت تسوهاوس".

وارتسـمت الدهشـة علـى وجهـه، وانفـرج فمـه عن ضحكـة مصطنعة، وقـال فـي صـوت لاهـث، محاكيـا الموسـيقار "ليسـت"، وقـد ارتمـى مـرة تحـت قدميـه متملقًا:

ـ حسن جدًا... حسن جدًا...

ثم اختفى.

وسأل سانين:

ـ من يكون هذا المخلوق العجيب؟!.

ـ هـذا... أحـد نقـاد ڤيسـبادن. ناقـد أدبـي. حقيـر. أو اختـر لـه أي وصـف تشـاء. إنـه يقـوم بالدعايـة لمقـاول محلـى آجـره، ولذلـك تـراه يمتدح كل شـيء فـي إسـراف وحماسـة رغـم امتـلاء صـدره بالحقـد المكظـوم. لكـم أخشـاه! فهو ثرثـار نمـام شـديد الخطـورة، ولـن يتوانـى عـن التنقـل فـي كل مـكان ليخبر كل مـن يصادفـه أنـى هنـا معك فـي هـذه المقصـورة. ولكن مـاذا يهمني مـع ذلك.

وعزفـت "الأوركسـترا" موسـيقى "الڤالـس"، ثـم ارتفـع السـتار، وبـدأ الفصـل الثانـي مـن التمثيليـة متكلفًـا شـديد الصخـب.

واسـتأنفت ماريـا نيقولاييڤنـا حديثهـا بعـد أن عـادت إلى الاتـكاء على مسندها:

ـ مـا دمـت لا تجد مناصـا من البقاء هنا إلى جانبي بدلا من الاسـتمتاع بقـرب خطيبتـك لا تطلـق هـذه النظـرات القاسـية، أنـا أُقـدر حالتـك، وقـد

وعدتـك ألا أقيـد حريتـك بحال، وألا أحـول بينك وبين التصرف كيفما تشـاء ولكـن اسـتمع الآن إلـى حكايتـي. أتـود أن تعـرف أي شـيء أفضلـه عـن كل ما عـداه؟؟

فقال سانين مخمنًا:

ـ الحرية!

وضعـت ماريـا نيقولاييڤنـا يدها، وقال بصوت تشيع فيه نبـرات الجلد والإخلاص الحقيقي:

ـ الحريـة قبـل كل شـيء، وفوق كل شـيء. نعم يا ديمتـرى پاڤلوڤيتش هذا والإخـلاص الحقيقي:

ـ الحريـة قبـل كل شـيء، وفـوق كل شـيء. نعم يا ديمتـرى باڤلوڤيتش هـذا مـا أقدسـه... ولا تظننـي أقول ذلك على سـبيل المباهـاة، فليس فيه ما يتباهـى بـه. وإنمـا هكـذا أنـا خُلقت، وهكـذا أنا اليوم، وسـأظل هكـذا إلى يـوم مماتـي. وأحسـب أنى شـاهدت من مآسـي الـرق أيام طفولتي الشـيء الكثيـر، وعانيـت مـن ذلـك العنـاء الكثيـر... و...و... وكان مسـيو جاسـتون مدرسـي، هـو الـذي فتح عينـي على قبح هـذه المظالم، ولعلـك تعرف الآن سـبب اختيـاري إيپوليـت سـيدوريتش زوجًـا، فقـد حفـظ لـى هـذا الـزواج حريتـي. وهأنـذا اليـوم حـرة طليقة... حرة كالهـواء... حرة كالريـح، حرة إلى أقصـى مـدى الحريـة. وكنـت أعـرف ذلك قبـل التزوج بـه، كنت أعـرف أنى سـأظل بعـد هذا الزواج سـيدة نفسـي.

وصمتت ماريا نيقولاييڤنا برهة، ووضعت مروحتها جانبًا.

ـ وهنـاك أمـر آخـر لا بـأس مـن أن أفضـى اليـك بـه أنـا لا أجـد مانعًـا من أن يفكـر الإنسـان فـي كل مـا يُعـرض لـه، فالتفكير فـي ذلك مُسـل مُبهج، وهـو الذي خلـق عقلنـا مـن أجلـه. ولكنى لا أسـمح لنفسـي قـط بالتفكير فـي العواقـب... أنا لا أفكـر قـط فـي عواقـب تصرفاتـي، ولا أسـتغرق فـي الحسـرة أو الأسـف علـى ما وقـع... أنـا لا أفكـر فـي ذلك كله بحـال من الأحوال. فلا شـيء في الحياة يسـتحق اشـتغال البـال... إن مبدئـي فـي الحيـاة أن أتحاشـى كل "مـا لـه تبعـات ونتائـج." (قالـت هـذه العبـارة بالفرنسـية) اعذرنـي فأنـا لا أجـد في الروسـية تعبيـرًا يؤدى هـذا المعنـى. ولكـن. أية تبعـات ونتائج؟ وهل فـي الوجود تبعات تشـغل البال؟!. إن الأمـور تتسـاوى فـي النهايـة. وهـل مـن أحـد يسـتطيع أن يحاسـبني هنـا، فـي هـذه الدنيـا، علـى أفعالـي؟ لا، أما هناك، (وأشـارت إلـى أعلى) فليكن مـا يكون... أتسـمعني؛... أم لعـل حديثي ضايقك؟...

وكان سانين يجلس خافض الرأس؛ فرفع بصره إليها عندئذ وقال:

ـ لـم يضايقنـي حديثـك مطلقـا يـا ماريـا نيقولاييڤنـا فأنـت تريـن أنـى أنصـت إليـك فـي تشـوق وفضـول، ولكنـى أقـر مـع ذلك بـأن إفضـاءك إلى بـكل هـذا يثيـر عجبي...

وتحركت ماريا نيقولابيڤنا في مقعدها:

ـ اسـأل نفسـك عـن سـبب مسـلكي هـذا... أأنـت بطـيء الإدراك إلـى هـذا الحـدد حقًـا؟! أم تدعـى ذلـك تواضعًـا؟...

ورفع سانين رأسه إلى أعلى من ذي قبل، وواصلت ماريا نيقولاييڤنا قولها في صوت هادئ رغم أن وجهها لم يبد عليه مثل هدوئه.

ـ لقد قلت لك ما قلت لأني أميل إليك... لا يدهشك هذا، ثم اعلم أنى لا أُحرج... لقد أردت ألا تحتفظ عنى بذكرى سيئة ولو أنه لا يهمني عكس ذلك: أي أن تحتفظ عنى بذكرى خاطئة وهذا ما دعاني إلى المجيء بك إلى هنا والاختلاء بك والتحدث إليك في صراحة محاولة إغواءك. نعم لقد تحدثت إليك في صراحة تامة، ولم أكذب عليك في شئ... ولكن لا تفوتك يا ديمترى پاڤلوڤيتش أنى أضع نصب عينى تلك العلاقة التي تربطك بامرأة أخرى... فلا تسئ الظن في قصدى... فأنا بريئة من كل غاية... وتستطيع الآن بالطبع أن تقول بدور: "كل هذا لن يعقب أية نتائج وتبعات...".

وضحكت، ولكن سرعان ما اختنقت ضحكتها في حلقها، وجلست جامدة كأنما أدهشتها كلماتها. وبدت في عينيها الجريئتين الجذلتين عادة، ظلال قد يكون سببها الخفر أو الشجن... وقال سانين لنفسه: "يا لها من حية رقطاء... ولكن، ما أجملها من حية!!".

وفاجأته ماريا نيقولاييڤنا بقولها:

ـ ناولني المنظار المكبر حتى أستطيع رؤية الممثلين... أيمكن أن تكون الممثلة الأولى قبيحة إلى هذا الحد؟... لكأنما الحكومة

اختارتها لهذه المهمة بقصد حماية الشبان من الفساد. فإن أحدا منهم لا يمكن أن يتعلق بمثل هذه المرأة.

وناولها سانين المنظار، فظلت ممسكة بيده برهة قصيرة، ثم همست في أذنه وهي تبتسم:

ـ دعك من هذا الجد... اسمع: إن أحدا لا يستطيع تقييد حريتي وأنا بدوري لا أحاول تقييد حرية أحد. أنا أعشق الحرية، وأرفض تحمل أية تبعات... وأقر لغيرى بالحق الذي أحتفظ به لنفسي... أفهمت؟

تزحزح الآن قليلا... ولنستمع إلى التمثيلية.

وأجالت ماريا نيقولاييڤنا منظارها في أرجاء المسرح، ودار سانين بنظره أينما دارت؛ كان يجلس على مقربة منها في تلك المقصورة الخافتة النور، ويستنشق رغما منه عبير جسدها الدافئ الثائر، ويستعيد ذاكرته رغما منه كذلك كل ما صارحته به في ذلك المساء. لا سيما عباراتها الأخيرة...

- 39 -

استمر عرض التمثيلية ساعة أو أكثر من ساعة، ولكن ماريا نيقولاييڤنا وسانين لم يكادا يتتبعان التمثيل حتى انقطعا عنه ثانية، وعادا إلى الحديث من جديد واستغرقا فيه. ولم يتحول قول ماريا عن مجراه السابق، ولكن سانين أخذ يحاورها هذه المرة، ولم يظل على صمته السابق. فقد كان يشعر في أعماقه بالسخط على نفسه وعلى ماريا نيقولاييڤنا

وحاول أن يبرهن لها فساد نظرياتها كما لو أن مثل هذه المرأة تهتم بالنظريات حقا!... اشتبك معها في مناقشة حادة، فأثلج ذلك صدرها، لأن انزلاقه إلى المناقشة كان يعنى تحطم سلبيته ومقاومته، بل انحداره إلى هاوية الاستسلام... لقد ابتلع الطعم وأصبح أليفًا مطواعًا... وكانت تضحك وهي تجادله، وتسلم تارة بما يقول، وتفكر تارة قبل أن تُبدى رأيها، ثم تعارضه في لجاجة وعناد... وكان وجهاهما أثناء الحوار يزدادان اقترابًا، ولم تعد عيناه تتحاشيان عينيها... وحام نظرها حول وجهه، ورف حول قسماته، وكان يجيب على ذلك بالابتسام تأدبا... ولكنه كان يبتسم على أية حال...

تحدث عن الشرف، وعلاقة الحب المتبادلة، والواجب، وقدسية الزواج، وغير ذلك من المعنويات الجميلة المجرد، ووافق تحدثه

عـن هـذه التجريـدات، الخطـة التـي رسـمتها لاسـتدراجه... وكل خبيـر فـي هـذه الأمـور يعلـم أن طـرق مثـل هـذه الموضوعـات المجـردة يفتـح الطريـق إلـى النهايـة الموفقـة...

ومـن يعرفـون ماريـا نيقولاييڤنـا حـق المعرفـة كانـوا يقولـون إنهـا إذا اسـتولى علـى طبيعتهـا القويـة العنيفة شـيء من الرقـة والاحتشـام والخفر العذري

ـ وأنـى لشـيء من هذا أن يسـتولى عليها فأن الأمـور تكون قد تحولت بهـا، في هذه الحالة، إلـى موطن الخطر.

ويبـدو أن الأمـور قـد تحولـت بسـانين إلـى تلـك الوجهـة. وكان جديرًا أن يـزدرى نفسـه كل الازدراء لـو أتيحـت لـه مندوحـة من الوقـت لمراجعة نفسـه، وتركيـز فكـرة فيمـا آل إليـه، ولكـن الوقـت لـم يتسـع له أي اتسـاع للتفكيـر واحتقار نفسـه.

أمـا هـي فقـد اسـتغلت الوقت خيـر اسـتغلال. وهي لم تبـذل كل هذا العنـاء إلا لأنـه فتـى مقبـول شـكلا. لقد جنى عليه شـكله، فمن ذا يسـتطيع أن يفـرق بيـن مـا هـو في مصلحة الإنسـان ومـا هو ضـد مصلحته؟!.

***

انتهـت التمثيليـة، وطلبـت ماريـا نيقولاييڤنـا إلـى سـانين أن يضـع شـالها علـى كتفيهـا، ووقـف بلا حـراك وهو يلف هاتيـن الكتفيـن الرائعتين "الملكيتيـن حقـا" بطيـات الشـال الناعمـة. وتأبطـت ذراعـه، وخرجـت

معه إلى الممر. ولكنها كادت تصرخ حينذاك... فقد وجدت دونهوف يقف كالشبح أمام المقصورة... ويطل وجه "ناقد ڤيسبان" الأدبي من ورائه. وكان ذلك الوجه الغريب يطفح سرورًا وتشفيًا.

قال ذلك الضابط بصوت يدل على غيظ مكظوم:

ـ اسمحي لي يا سيدتي أن أبحث عن عربتك وأجئ بها إليك.

فأجابت ماريا نيقولاييڤنا:

ـ لا... شكرًا...

ثم أضافت بلهجة خافتة آمرة:

ـ الزم مكانك، فإن خادمي سيتولىَ هذه المهمة.

وسحبت سانين من ذراعه، وسارت به مسرعة.

وزعق دونهوف فجأة، ملتفتا إلى الناقد الأدبي، إذ لم يجد أحدًا غيره ينفث فيه غضبه.

ـ نح وجهك عنى... لماذا تسدك بي؟... اذهب إلى الشيطان.

وغمغم الناقد وهو يتوارى:

ـ حسن جدًا... حسن جدًا...

وجاء خادم ماريا بالعربة في غمضة عين، وكان ينتظر في الرواق للقيام بهذه المهمة... وصعدت ماريا إلى العربة مسرعة، وقفز سانين وراءها، وما كادت تغلق بابها حتى انفجرت ضاحكة. فسألها رفيقها:

ـ ماذا يضحكك؟...

ـ آه... أرجو المعذرة. لقد خطر لي خاطر: ماذا لو طلب دونهوف مبارزتك مرة أخرى... في سبيلي؟ ألا يكون ذلك عجبا؟...

ـ وسألها سانين:

ـ أعلاقتك به وثيقة

ـ هذا الغلام؟!... إنه يؤدى ما أكلفه به من خدمات... لا تقلق.

ـ لا شيء البتة يقلقني.

وتنهدت ماريا نيقولاييڤنا:

ـ أنا أعلم ذلك لا يقلقك. ولكن اسمع... أنت ظريف إلى حد يجعلني على ثقة من أنك لن ترفض لي طلبًا أخيرًا... ولا تنس أنى راحلة إلى باريس بعد ثلاثة أيام، وأنك عائد إلى فرانكفورت... ولا يعلم أحد متى نلتقي ثانية...

ـ ماذا تطلبين؟...

ـ أتركب الخيل؟

ـ نعم.

ـ حسنًا... سأرافقك غدا في جولة على ظهور الخيل خارج المدينة، وسأختار لذلك جوادين أصيلين. وسنبرم الصفقة على أثر

عودتنا إلى الدار... وبذلك ينتهي الأمر... لا يدهشك طلبي هذا. ولا تحسب أنه نزوة عارضة. أو أنى مجنونة ولو أنه يبدو أنى كذلك وكل ما أرجو منك أن أسمعك تقول: أنا موافق.

ودارت ماريا نيقولاييڤنا بوجهها إليه، وكان الظلام مرنقا في العربة فلم يظهر وجهها بوضوح، ولكن ذلك زاد بريق عينيها لمعانًا.

وأجاب سانين وهو يطلق زفرة مكبوتة:

ـ حسنًا... أنا موافق.

فقالت تشاكسه:

ـ يا الله!!. أنا أعرف سر هذه الزفرة الحارة... فهيَّ تعنى أن الخروج من الدار أشق من دخولها... ولكن لا، لا... فأنت طيب كريم حبيب... وسأفي بالوعد الذي قطعته لك. ها هي ذي يدي أمدها إليك بلا قفاز... يدي اليمنى... يد الجد والعمل... فضع يدك فيها وثق بها. وفي الحق إني لا أعرف أية امرأة أنا. ولكن الذي لا أشك فيه أنى شريفة في معاملتي، ويمكن الوثوق بي.

ورفع سانين يدها إلى شفتيه فقبلها قبل أن يفطن إلى حقيقة ما يصنع. وسحبت هي يدها برفق، واستولى عليها الصمت فجأة، ولم تنبس بكلمة حتى توقفت العربة عن السير.

وقامت لتغادر العربة... ولكن ما هذا الذي حدث؟ أهو من تصوير خيال سانين، أم أن ماريا نيقولاييڤنا طبعت بالفعل على خده قبلة ملتهبة خاطفه؟!...

وهمست وهي تصعد في درج الفندق:

وكان رواق الفندق مضاء بشمعدان ذي أربعة أذرع حملة البواب ليستقبل به سيدته الكريمة. وبدت عيني ماريا مسبلتين وهي تردد:

ـ إلى الغد:

ووجد سانين لدى عودته إلى الفندق خطابا من چيما على المائدة. وشعر أول ما شعر بالخوف يدب إلى قلبه، ولكنه اصطنع الابتهاج بعد برهة ليضلل نفسه عن خوفه. ولم تزد رسالة چيما على بضعة أسطر أبدت فيها سرورها للتوفيق الذي أصابه وهو يعد في بداية مهمته، ونصحته أن يعتصم بالصبر. ثم ختمت الرسالة بقولها إن جميع من بالدار ينتظرون عودته في اغتباط ولهفة.

بدت الرسالة لسانين فاترة، ولكنه تناول قلمًا وورقة بيضاء بقصد الرد على خطيبته ولكنه سرعان ما ألقى بهما جانبًا وهو يقول لنفسه: "وماذا عسى أن أكتب الآن؟... لأنتظر إلى الغد حتى أعود إلى طبيعتي... فهذا أنسب."

أسرع إلى فراشة وتعجل النوم... ذلك لأنه خشي أن يستعيد ذكريات چيما إذا ظل مستيقظًا، وكان يخجله أن يفكر ساعتئذ في تلك الفتاة الطاهرة، فقد بدأ ضميره يتحرك بين حناياه. بيد أنه هون الأمر على نفسه بزعمه أن الستار سينسدل غدًا على مغامرته، وأنه سيودع تلك المرأة الشاذة وداعًا لا لقاء بعده، وسينسى هذا الهراء كله إلى الأبد!...

ومن عادة ضعفاء العزيمة أن يرددوا لأنفسهم العبارات الطنانة الوقع تعللا بها، مثل عبارة: "ثم إن هذا كله... لن يسفر عن أية نتيجة أو تبعة!...".

ـ 40 ـ

تلك كانت خواطر سانين عندما أوى إلى فراشه... أما خواطره في اليوم التالي عندما دقت ماريا نيقولاييڤنا باب غرفته بمقبض سوطها المرجاني في تعجل، وظهرت على عتبة الباب حاملة ذيل ثوبها الازرق الداكن الخاص بركوب الخيل، ساترة نصف رأسها بقبعة صغيرة ينساب الشعر المتهدل من حولها، متدثرة بشال يتدلى وراء كتفيها، ومبتسمة ابتسامة تشامخ وتحد انتقلت من ثغرها إلى عينيها، ثم انتشرت في وجهها كله... أما خواطره هذه فقد كتمها التاريخ في أعماقه فلم يدر أحد عنها شيئًا.

وجلجل صوتها المرح:

ـ أأنت مستعد؟...

وشد سانين ازرار معطفه، ووضع قبعته على رأسه في صمت. ورمته ماريا نيقولاييڤنا بنظرة نافذة مشرقة، ونزلت في الدرج وثبًا، ووثب سانين مثلها.

وكانت ثلاثة جياد في انتظارهما على قارعة الطريق، أولاها فرس أعدت لركوب ماريا نيقولاييڤنا... ذهبية اللون، ممتلئة الجسم، ذات عينين سوداوين، وساقي ظبي، ولسان يختلج في كمامة متراخية. كانت نحيلة، ولكنها تميزت بجمال ملحوظ،

وحماسـة متقـدة... وثانيهـا جـواد أعـد لسـانين... شـديد المـراس، عريـض اللبـان، فاحـم اللـون غليـظ الأطـراف. وثالثهـا جـواد أعـد للسـائس. وقفـرت ماريـا نيقولاييڤنـا بخفـة إلـى السـرج، فأقعـت الفـرس، ووثبـت إلـى الأمـام، ولـوت ذيلهـا، ثـم تراجعـت بكفلهـا، ولكـن ماريـا نيقولاييڤنـا التـي كانـت تجيـد ركـوب الخيـل، اسـتطاعت أن تحتفـظ بتوازنهـا، وتظـل فـوق سـرجها. وكان عليهـا أن تحيـي پولـوزوف الـذي وقـف فـي طنـف الفنـدق لتوديعهـا، مرتديًـا جلبابًـا غيـر مـزرر، وواضعًـا علـى رأسـه طربوشـه المعهـود. وكان يلـوح لهـا بمنديلـه دون أن يبتسـم، بـل لقـد كان يغلـب عليـه التقطيـب.

وركـب سـانين حصانـه أيضـا. وحيـت ماريـا نيقولاييڤنـا زوجهـا برفـع سـوطها ثـم هـوت بالسـوط على رقبة فرسـها التـي أقعت، ثـم اندفعت إلى الأمـام وركضـت وهـي تنتفـض، وتعـض اللجـام، وترفـس وتصهـل. وتخلـف سـانين وهـو يرقـب ماريـا نيقولاييڤنا. وكان قوامها الرشـيق الليـن الذي أبرز المشـد غيـر المحبـوك اعتدالـه، يتمايـل فـي يسـر ورشـاقة وثقـة. ونـادت سـانين بلفتـة منهـا، فلكـز جـواده ولحـق بها. فقالـت له:

ـ أليـس هـذا جميلا؟ أود أن أقـول لـك قبـل أن نفتـرق إنـك خـلاب، وإنـك لـن تنـدم علـى هـذه النزهـة أبـدًا

وأومـأت برأسـها مـرارًا كأنما تريد بذلـك تثبيت المعنى الـذي تقصده، وإشعار سـانين بأهميته.

وأدهـش سـانين أن يراهـا مبتهجـة إلـى هـذا الحـد! فقـد ارتسـم على وجههـا تعبيـر روحانـي شـبيه بمـا يرتسـم أحيانًـا علـى وجوه الأطفـال حين يبلغ سـرورهم أشـده.

سـارت بهـم الخيـل بطيئـة حتـى مشـارف المدينـة، ومـا كادت تتمكن مـن الطريـق الخالـي حتـى تحـول ركضهـا إلـى خبـب. وكان الجـو رائعًـا، واليـوم يـوم صيـف نموذجـي، والريـح تنسـاب علـى وجـود الركـب، وتصفر فـي آذانهـم صفيـرا محببـا. وشـعرت ماريـا نيقولاييڤنـا وسـانين بالسـعادة، وغمرهمـا إحسـاس بعنفـوان صباهما، وموفـور صحتهما ن وخفـة حركتهما، وزاد نشـاطهما هذا الإحسـاس عمقًا. وشـدت ماريا نيقولاييڤنا لجام فرسـها، وخففـت سـرعة ركضهـا. وحـذا سـانين حذوها.

وصاحت ماريا وهي تطلق زفيرًا عميقًا مثلجًا للصدر:

ـ آه! هـذا هـو الشـيء الوحيـد الجديـر بـأن يعيش الإنسـان مـن أجله. وهـو أن يحقـق الإنسـان مـا يريـد. بعـد أن كان ذلـك يبـدو مسـتحيلا. لقـد امتـلأت كأسـى. امتـلأت نفسـي حتـى كادت تفيض.

ومرت بيدها حول عنقها واستطردت.

ـ كـم يشـعر الإنسـان بالرقـة والدماثـة!!. انظـر كـم أنـا رقيقـة الحـس الآن!!. أحـس كأنـي سـأحتضن العالـم بأسـرة. ولكـن لا. ليـس العالـم فانا لا أسـتطيع أن احتضـن هـذا.

وأشارت بمقبض سوطها إلى متسول يدلف إلى جانب الطريق:

ـ بيد أني لا أجد مانعًا من إسعاده...

وصاحت بالألمانية:

ـ اسمع يا هذا... خذ...

وألقت تحت أقدامه بكيس صغير محشو بالنقود. وارتطم الكيس الثقيل الوزن بالأرض محدثًا صوتًا (لم يعرف أناس ذلك العصر "محافظ النقود"). وتوقف جواب الآفاق عن سيره، ونظر إلى الكيس الملقى أمامه دهشًا. ولكن ماريا نيقولاييڤنا أغرقت الصمت المخيم بالضحك المجلجل، وأطلقت لفرسها العنان.

وركض سانين وراءها بجواده، وقال عندما لحق بها:

ـ أأنتِ مُغرمة بركض الخيل إلى هذا الحد؟...

وشدت ماريا نيقولاييڤنا لجام فرسها بعنف مرة أخرى ولم تكن تعرف وسيلة أخرى لإيقافها.

ـ أنا لم أركض بالفرس إلا لأتحاشى سماع عبارات الشكر التي أوشك ذلك الرجل أن يفوه بها... إن عبارات الشكر تفسد مُتعتي. وأنا لم أعطه ما أعطيت إرضاء له، ولكن إرضاء لنفسي... فكيف يجرؤ على شكري؟ ماذا تقول؟ أنا لم أسمع ما قلت.

ـ لقد سألتك... لقد أردت أن أعرف سبب كل هذا الابتهاج اليوم؟...

وقالـت ماريـا نيقولاييڤنـا دون أن تُجِيب على سـؤاله، ولعل ذلك يرجع إلـى أنهـا لم تسـمعه، أو أنها لم تجده جديـرًا بالرد:

ـ اسـمع. لقـد ضقـت ذرعـا بهـذا التابـع الـذي يلازمنـا كظلنـا، ولعله لا يـزال يسـأل نفسـه: متـى يفكـر أولئك السـادة فـي العـودة إلى دورهـم؟... فكيـف السـبيل إلـى التخلـص منه؟

وأخرجت من جيبها "مفكرة" في سرعة وهي تقول:

ـ أأكتـب أيـة رسـالة أكلفـه بحملهـا إلـى المدينـة؟... ولكـن، لا. فهذا لا يجـدي. آه! لقـد اهتديـت إلـى حل، أليـس هذا البنـاء البادي أمامنـا نزلا؟...

ونظر سانين حيثما كانت تنظر وقال:

ـ يخيل إلى ذلك.

ـ عظيـم، سـأطلب إليـه أن يتخلـف فـي هـذا النـزل، ويتسـلى بشـرب الجعـة حتـى نعود

ـ ولكن أية ظنون ستراوده في هذه الحالة؟

ـ ومـاذا يهمنـا مـن أمـره؟ بيـد أنـه لـن يفكـر في شـيء، فهو سيشـرب الجعـة فحسـب... تقـدم يا سـانين.

وكانـت هـذه هـي أول مـرة تناديـه فيهـا بلقبـه... وعندمـا وصـلا إلـى ذلـك المنـزل أفضـت ماريا إلى التابـع برغباتها (وكان متأثـرا بطباع الإنجليز، ومتخلقـا بأخلاقهـم) فرفـع يـده إلـى قبعتـه، وترجـل سـحب حصانـه مـن لجامـه مبتعـدًا بـه.

وصاحت ماريا نيقولاييڤنا:

ـ نحـن الآن طليقـان كالريـح... فإلـى أيـن تذهـب؟ أشـمالاً أم جنوبًا أم شـرقًا أم غربًـا؟ إنـي أشـبه ملـك المجـر في يـوم تتويجه.

وأشارت بسوطها إلى الجهات الأربع واستطردت:

ـ كل مـا فـي العالـم ملكنـا ولكـن لا. دعنـي أحـدد مطلبي. أتـرى هذه الجبـال البديعـة الباديـة مـن بعيد!... وتلـك الغابات التي تكسـوها؟ لنتوجه إليهـا... إلـى الجبال... إلـى الجبال...

وانحرفـت إلـى الطريق الرئيسـي، وركضـت بجوادها فـي طريق فرعى ضيـق غيـر مطـروق يبدو متجهـا صوب الجبـال، واقتفى سـانين إثرها.

ـ 41 ـ

ازداد الطريـق ضيقًـا، وتَحَـول إلـى ممـر، ثـم إن الممـر لم يطـل كذلك فقـد قطعـه خنـدق عريـض بـدد معالمـه. وخشـى سـانين مغبـة مواصلـة السـير، فنصـح ماريـا نيقولاييڤنـا أن يعـودا أدراجهمـا ولكنهـا أبـت النصـح قائلة:

ـ لا، أنـا أريـد الوصـول إلـى الجبـال... فلنضعهـا نصـب أعيننـا ونتجـه إليهـا مباشـرة كمـا يفعـل الغـراب عندمـا ينقـض علـى هدفـه.

وقفـزت بفرسـها فـوق الخنـدق، وحذا سـانين حذوهـا. واجتـازا مروجًا يابسـة، ولكنهمـا لـم يلبثـا أن خاضـا غياضـا رطبـة، ثـم مسـتنقعات تنزنـزا. وتعمـدت ماريـا نيقولاييڤنـا أن تغوص بفرسـها في برك المـاء، وأبهجها ذلك فاسترسـلت فـي ضحـك عـال، وقالت:

ـ لِنَوهم أنفسنا أننا أطفال.

ثم سألت سانين:

ـ أتعرف المقصود من الصيد في المستنقعات والبرك؟...

فأجاب سانين:

ـ نعم

وواصلت ماريا نيقولاييڤنا كلامها:

ـ كان عمـي يسـتعين فـي طـراده بكلاب الصيد، وكنا نخـرج على ظهور الخيـل فـي الربيـع وراء الطرائـد، كان ذلك رائعًـا. ولكننا نحـن الإثنين نصيد اليـوم فـي البـرك والمسـتنقعات... انظـر إلـى! أنـت روسـي، ولكنـك تطـارد إيطاليـة تريـد أن تتزوجهـا. حسـنًا! هـذه مشـكلتك... ما هذا؟ خنـدق آخر؟ هوب لا. لا.

وقفـزت الفـرس، فسـقطت قبعـة ماريـا نيقولاييڤنـا، وانتشـر شـعرها المعقـود علـى أكتافهـا، وهـم سـانين بالترجـل ليأتي إليهـا بقبعتهـا، ولكنها أوقفتـه صائحـة:

ـ لا تلمسها، فسألتقطها بنفسي.

وانحنـت مـن فـوق سـرجها، ورفعـت طـرف وشـاح القبعـة بسـوطها، واسـتطاعت بالفعـل أن تلتقطهـا وهـي ممتطيـة جوادهـا. ووضعتهـا علـى رأسـها دون أن ترفـع شـعرها وتعقـده. وانطلقـت بفرسـها وهـي تصيـح صيحـات مجلجلـة. وركـض حصـان سـانين إلـى جانـب فرسـها. ووثـب كلاهمـا فـوق الحواجـز والحفـر والجـداول، وتسـلقا المرتفعـات فـي قفـزات قصيـرة، وصعـدا إلـى أعلـى التـلال وعـادا فهبطـا مـن الناحيـة الأخـرى إلـى سـفوحها، ولـم يتحـول نظـر سـانين طـوال ذلـك عـن وجـه ماريـا نيقولاييڤنـا... ومـا كان أروع ذلـك الوجـه! زهـرة فـي أنضـر ريعانهـا! كانـت عيناهـا المتلألئتـان النهمتـان الوحشـيتان متفتحتيـن كل التفتـح، وشـفتاها الورديتـان منفرجتيـن، وأنفهـا المتسـع الفتحتيـن يِسـتاف الهـواء

بشراهة... وقد صوبت نظرها إلى الأمام كأنما يريد روحها المقتحم أن يتملك كل ما يراه الأرض والسماء والشمس، بل حتى الهواء ولم تندم لشيء إلا لقلة المخاطر التي تتعرض لها في سعيها إلى أهدافها.

صاحت فجأة:

ـ سانين... ألا يشبه هذا قصة "برجر" المسماة "لينور"؟ ولكن الفرق أنك لم تمت، أليس كذلك؟ ألست حيا ترزق؟... أما أنا فعلى قيد الحياة كما ترى...

وبلغت ميولها الحيوانية غاية استهتارها، وهي لم تعد فارسة تركض بجوادها، ولكنها تحولت إلى عنقاء نصفها إله، ونصفها وحش مفترس. وأخذ رفيقها المهذب المعتدل المزاج يرقب في دهشة صامتة ذلك الطرب الجامح الصاخب.

وشدت ماريا نيقولاييڤنا أخيرا لجام فرسها المرغية المزبدة المغبرة. فحاولت الفرس التوقف وهي تتمايل تحت ثقلها. أما حصان سانين الشديد المراس فكان يتنفس بقوة.

وسألت ماريا نيقولاييڤنا في همس حالم:

ـ أليس هذا مبهجًا؟...

وأجاب سانين متحمسًا:

ـ نعم... هو كذلك:

وكان دمه يفور كذلك في عروقه.

ـ ولكن انتظر. فليس هذا كل ما في الأمر.

ورفعت يدها مشيرة إلى الفضاء البعيد... وكان قفازها قد تمزق:

ـ لقد قلت إني سأذهب بك إلى الجبال... إلى الغابة... وها هي ذي الجبال متوجة بالغابة!...".

وكانت الجبال المتوجة بالغابة بالفعل على بعد مائتي قدم منهما. وواصلت ماريا نيقولاييڤنا قولها:

ـ انظر... وهذا هو الطريق المؤدى إليها. سنتوقف برهة لنلتقط أنفاسنا، ثم نواصل السير... ولكن في هوادة حتى نتيح لجيادنا فرصة للراحة.

واستأنف المسير. وطرحت ماريا نيقولاييڤنا شعرها إلى الوراء بلفته قوية من رأسها، ثم نظرت إلى قفازها فخلعته. وقالت:

ـ ستفوح يدي برائحة جلد اللجام، ولكن هذا لن يضيرك، أليس كذلك؟

وابتسمت. وأجاب سانين على ابتسامها بابتسام. ويبدو أن مغامرتهما معا، وهما ينهبان الأرض بالخيل نهبًا، قد وثقت الألفة بينهما، وأحالتهما إلى صديقين حميمين وبادرته بسؤالها:

ـ كم عمرك؟

ـ اثنان وعشرون عامًا.

ـ أحقا ما تقول؟... وأنا في مثل سنك تماما. ما أبدع هذه السن؟ بيد أنك لو أضفت سني إلى سنك لظللت رغم ذلك بعيدا عن الشيخوخة... ما أشد حرارة الجو!!. خبرني... أوجهي محتقن؟

ـ نعم... في حمرة الزنبقة.

وجففت ماريا نيقولاييڤنا عرقها بمنديلها:

ـ آه لو وصلنا إلى الغابة... فهناك الجو الرطب في ظلها الظليل... إن مثل تلك الغابة القديمة أشبه بالصديق القديم... ألك أصدقاء.

وأطرق سانين مفكرًا.

ـ نعم... ولكنهم قلة... ثم إنهم ليسوا أصدقاء بحق.

ـ أما أنا فلى أصدقاء حقيقيون... ولكنهم أصدقاء جدد... ففرسى هذه صديقة صادقة، انظر كيف تحملني بعناية ورفق! آه... ما أبدع هذا المكان! أأنا راحلة غدًا إلى باريس حقًا؟

وردد سانين القول كأنه رجع الصدى:

ـ نعم... أأنت راحلة إلى باريس حقًا؟

ـ وهل أنت راجع إلى فرانكفورت؟

ـ أنا راجع إليها بالتأكيد.

ـ أخ... حسنًا، أتمنى لك السعادة... ولكن اليوم يومنا نحن... نعم يومنا نحن...

ووصلا إلى مشارف الغابة، ثم لم يلبثا أن غاصا في ظلالها الوارفة التي أحاطت بهم من كل جانب. وصاحت ماريا نيقولاييڤنا.

ـ ولكن هذه هي الجنة بعينها. لنتوغل في هذه الظلال المنعشة.

وتقدمت الخيل "متوغلة في الظلال المنعشة"، متمايلة تمايلاً خفيفًا، ومتنفسه بقوة. ثم عرجت بها الطريق وتحولت إلى ممر ضيق. وفاحت رائحة هيَّ مزيج من شميم الخلنج والسرخس، والأرض الرطبة، وأوراق الشجر القديمة المتآكلة المرنقة في ذلك الجو المتكاثف الراكد. وانبعثت موجة برد قارس من أعلى صخرة شهباء سامقة. واكتست المرتفعات الممتدة على جانبي الممر بالحشائش الخضر. وصاحت ماريا نيقولاييڤنا مشيرة إلى مرتفع من الأرض مكسو بالخضرة:

ـ قف، فأنا أريد أن أستريح على هذه الحشية الحريرية... ساعدني على الترجل.

ووثب سانين إلى الأرض وجرى إليها، فاتكأت على كتفه وقفزت بدورها من فوق سرجها، وصعدت إلى ربوة خضراء فجلست عليها، ووقف سانين أمامها وهو ممسك بزمام الجوادين. ورفعت إليه عينيها الواسعتين:

ـ أتعرف كيف تتغاضى وتنسى؟

وتذكر سانين ما حدث في العربة، فسألها بدوره:

ـ أهذا سؤال أم عتاب؟

ـ أنا لم أعاتب أحدًا طوال حياتي.

ـ أتعتقد في السحر؟

ـ ماذا تعنين؟

ـ في السحر والرقىَ... ألا تعرف هذه الأمور التي تتحدث عنها الأغاني الشعبية الروسية؟

وغمغم سانين:

ـ آه... أهذا ما تعنين...

ـ نعم... وأنا أؤمن بهذه الأمور، وستؤمن أنت بها كذلك في يوم من الأيام.

وكرر سانين قوله:

ـ السحر!... الرقىَ!... كل شيء ممكن... أنا لم أكن أُصدق ذلك، ولكنى أُصدقه الآن... فأنا لم أعد أعرف نفسي.

وبدا على ماريا نيقولاييڤنا أنها تفكر. ثم التفتت إلى الوراء.

ـ أنا أعرف هذا المكان بعض المعرفة. انظر خلف تلك الشجرة الضخمة يا سانين... ألا يوجد هناك صليب خشبي أحمر اللون؟

وسار سانين بضع خطوات، ونظر خلف الشجرة وقال:

ـ نعم، هذا صحيح.

وهمهمت ماريا نيقولاييڤنا:

ـ حسنًا. فأنا أعرف المكان. نحن لم نضل بعد. ما هذا الصوت. أهو صوت حاطب؟

وحدق سانين مخترقًا ببصره الظلال الكثيفة:

نعم. هذا رجل يقطع بعض أفرع الشجر الجافة.

فقالت ماريا نيقولاييڤنا:

ـ لا بد أن أمشط شعري حتى لا يراني ذلك الرجل على تلك الحال فيظن بي الظنون.

وانتزعت قبعتها من فوق رأسها، وأخذت تمشط خصائل شعرها في وقار صامت: ووقف سانين أمامها جامدًا، واستطاع أن يتحرى ببصره أوصال جسمها من تحت ثوبها الأسود الشفاف الذي علقت به بعض عيدان الحشائش.

وحرك الحصان رأسه بعنف على حين فجأة ففزع سانين دون وعى. وسرت الرجفة في أوصاله من رأسه إلى قدمه. وشاع الاضطراب في كيانه، وتوترت أعصابه حتى كادت تنقطع. لقد صدق حين قال إنه لم يعد يعرف نفسه. وبدا كأنه مسحور فعلا. كانت فكرة

واحـدة تسـتحوذ عليـه. كانـت رغبـة واحـدة تتمكـن فـي كل بضعـة مـن جسـده. وراح نظـر ماريـا نيقولاييڤنـا يتفحصـه. وقالـت أخيـرًا وهـي تضـع قبعتهـا علـى رأسـها:

ـ هـذا أشـبه بمـا كنت أرتقـب. لمـاذا لا تجلس يا سـانين؟ تعال اجلس هنـا. ولكن لا، انتظـر. ما هذا؟

ودوى الرعد فوق أعالي الشجر.

ـ أيكون هذا رعدًا؟

وأجاب سانين:

ـ يبدو ذلك.

ـ إنهـا نزهـة حقيقيـة! نزهـة حقيقية! وقـد توجت بـأروع نهاية. ودوى الرعـد مـن جديـد مشـتدًا عـن ذي قبل، ثـم تفتـت دويه وتلاحـق فصاحت ماريـا نيقولاييڤنا:

ـ مرحـى. أعـد. أتذكـر يـا سـانين حديثنـا أمس عن قصـة "أينايـد". لقد دهمـت العاصفـة بطلـي القصة كذلـك وهما فـي الغابة. ولكن لابـد لنا من البحث عـن مأوى.

وقامت على عجل وهي تقول:

ـ قـرب مربـط الفـرس منـى. ومـد يـدك. نعـم، هكـذا. أنـا لسـت ثقيلة الـوزن علـى أيـة حال.

وقفـزت فـي خفـة الطيـر إلـى السـرج. وامتطـى سـانين كذلـك صهـوة جواده.

وسألها مترددًا:

ـ أتنوين العودة إلى البلدة؟

ـ العودة! العودة!

كـررت هـذه الكلمـة بصـوت تعالـت نبراتـه. ثـم جمعـت اللجـام فـي يدهـا واسـتطردت فـي لهجـة آمـرة لا تخلـو مـن خشـونة:

ـ اتبعني.

ودفعـت بفرسـها إلـى الأمـام، ومـرت بالصليـب الأحمـر، وانحـدرت إلـى السـهل، وواصلـت المسـير إلـى مفتـرق طـرق. ومـن ثـم اتخـذت طريقًـا آخـر عـاد بهـا إلـى ناحيـة أخـرى مـن الجبـل، ودخلـت الغابـة مـن جديـد، وتوغلـت فيهـا، وبـدا أنهـا تعـرف الطريـق الذي تسـلكه جيـدا. ولم تنفـرج شـفتاها عـن كلمـة، ولـم تحـن منهـا التفاتـة واحـدة إلـى الـوراء... ظلـت تسـير قدمـا فـي صلـف وتعـال، وسـار سـانين خلفهـا فـي خضـوع وذلـة بعـد أن افتقـد قلبـه المضطـرب آخـر أثـر لقـوة الإرادة. وتسـاقط رذاذ خفيـف، فحثـت فرسـها علـى السـرعة، ولـم يتوان سـانين عـن اللحاق بهـا. ورأى أخيـرًا مـن خـلال الأغصـان كوخًـا متضعـا يقـوم فـي ظـل صخـرة شـهباء عاليـة؛ ويبـدو لـه بـاب واطـئ مربـع ودفعـت ماريـا نيقولاييڤنـا

فرسـها بيـن الأعشـاب المتشـابكة الجـذور، وترجلـت أمـام بـاب الكـوخ مباشـرة، وهتفـت بصـوت أشـبه بالهمـس: يـا "أنيـاس!".

***

بعـد أربع سـاعات كانت ماريا نيقولاييڤنا وسـانين فـي طريق عودتهما إلـى ڤيسـبادن، ومـن ثـم إلـى الفنـدق. وكان السـائس يهـوم خلفهمـا علـى سـرجه. وقابـل مسـيو پولـوزوف زوجتـه وهو ممسـك بالخطاب الـذي كتبه إلـى وكيـل أعمالهـا. وألقـى عليهـا نظـرة فاحصـة، ثـم عبـر وجهه عـن عدم الرضـا. وسـألها مغمغما:

ـ أتقصدين أن تقولي إني خسرت الرهان؟!...

وهزت ماريا نيقولاييڤنا كتفيها. وكان هذا جوابها الوحيد.

وبعـد مـرور سـاعتين كان سـانين يقـف أمامهـا فـي غرفته وقـد تحول إلـى رجـل مهـدم... ضائع.

وسألته وهي تحدجه بنظرها.

ـ إلى أين تزمع الرحيل؟... إلى باريس أم إلى فرانكفورت؟

ـ إلـى حيـث تأمريـن... سـأتبعك أينما تذهبين، وسـأرحل معـك حيثما ترحلين... سـألازمك حتـى تنبذيني

وسـقط علـى ركبتيـه بـلا حـول أو حيلـة. وتنـاول يديهـا وضغـط بهمـا شـفتيه، فسـحبتهما بخفـة ووضعتهمـا علـى رأسـه. ثـم غرسـت أصابعهـا

العشـر فـي شـعره، وداعبـت خصائلـه الناعمـة وهـي واقفـة أمامـه رافعـة الـرأس، معتـره الثغـر عـن بسـمة انتصـار... وكانـت عيناهـا المحملقتـان، المتألقتـان بنـور كاد يخفـى سـوادهما، مجردتيـن مـن كل معنـى إلا ذلـك اكتظـاظ الأجـوف بنشـوة الغلبـة والقهـر. إن الصقـر حيـن ينشـب أظافـره العشـرة فـي ريـش فريسـته هـو الذي تشـبه عينـاه في هـذه الحالـة عيني ماريـا نيقولاييڤنـا وهـي ممسـكة بـرأس سـانين.

- 42 -

هـذا مـا تذكـره سـانين حيـن عثـرت يـده بذلـك الصليـب وهو يدسـها فـي أدراج مكتبـه مقلبًـا أوراقـه القديمـة فـي سـكون غرفتـه الموحشـة، وقـد تلاحقـت هـذه الأحداث حيـة أمام عينـه الباطنـة. ولكنـه عندما وصل بذاكرتـه إلـى تلـك اللحظـة التي جثـا فيها علـى ركبتيه أمام مـدام پولوزوف فـي ابتهـال مهيـن... تلـك اللحظـة التـي بـدأ فيهـا عهـد عبوديتـه، أزاح عنه تلـك الصـور التـي أيقظهـا مـن رقادهـا، فقد تعـذر عليـه احتمـال باقي تلك الذكريات.

إن ذاكرتـه لـم تخنـه... لا، لـم يكـن العيـب عيـب ذاكرتـه، فقـد كان يعـرف مـا حـدث بعـد ذلك حـق المعرفـة. ولكـن العـار كان يخنق أنفاسـه كلمـا تذكـر تلـك الأيـام، حتـى بعـد أن ابتعـد بهـا القـدم. كان يخشـى أن يعـاوده احتقـاره لنفسـه، ذلـك الشـعور الـذي لا سـبيل إلـى قهـره... فهـو لـم يجهـل أن هـذا الشـعور سـينقض عليـه كالموجـة الطاغيـة الكاسـحة، فيغـرق مـا عـداه مـن مشـاعر، ولـذا كان لابـد أن يطلـب إلـى ذاكرتـه أن تصمـت. إنـه مهما حـاول الهروب من صـور الماضي المنبعثة مـن ظلماتها، فـإن الخـلاص منهـا جميعهـا، كان مسـتحيلا. فمـا ظـل يذكـر تلـك الرسـالة التعسـة الباكيـة الزائفـة التـي أرسـلها إلـى چيمـا دون أن يتلقـى عليهـا ردا. أمـا العـودة إليهـا، والالتقـاء بهـا وجهـا لوجـه بعـد أن خدعهـا ومـلأ قبلهـا

يأسًا... فلا... لا... إذ بقيت لديه بقية من الشرف والضمير حالت دون انحداره إلى هذا الدرك ثم إنه كان قد فقد ثقته بنفسه واحترامه لها، ولم يعد يستطيع احتمال أية مسئولية.

وتذكر سانين أيضا ويا للعار! إرساله پولوزوف إلى فرانكفورت ليحضر له ملابسه وحاجياته... تذكر الوجل الذي كان يعانيه... وتحرقه إلى السفر لباريس... كانت هناك فكرة واحدة مستحوذة عليه، هي الهروب إلى باريس بأقصى سرعة... تذكر كيف كان يبذل جهده ليتقرب إلى پولوزوف بناء على أمر ماريا نيقولاييڤنا، وكيف اضطر بناء على أمرها أيضا، أن يصادق ڤون دونهوف الذي كان يزين أصبعه بخاتم يماثل الخاتم الذي أهدته ماريا إليه أي إلى سانين ثم لاحقته ذكريات أخرى أسوأ من السالفة، وأدعى إلى الخزي والعار. فقد حمل إليه الخادم في أحد الأيام بطاقة مكتوبا عليها "پانتاليونى سيپاتولا، المغنى لبلاط صاحب السمو دوق مودينا." وتهرب من مقابلة ذلك الشيخ، ولكنه لم يستطع أن يتحاشى الالتقاء به في ردهة الفندق... وهو لايزال يذكر وجه الشيخ المتميز غيظا تحت فروة شعره الأشهب المجعد... وعينيه المتقدتين كجذوتي نار... وعبارات الوعيد واللعنات التي جلجلت في أذني سانين ومن الكلمات التي استطاع إدراكها من بين وابل السباب بالإيطالية: "ملديتسيونى"... يا جبان! يا عديم الشرف... "إنفامى".

ويتلوى سانين من الألم، ويهز رأسه لينفض عنه تلك الذكريات، ولكنه يرى نفسه مع ذلك جالسًا في كرسي عربة السفر الأمامي الضيق، بينما يضطجع پولوزوف وماريا نيقولاييڤنا أمامه في صدر العربة التي كانت تجرها أربعة جياد وهي تجتاز شوارع ڤيسبادن في طريقها إلى باريس، نعم إلى باريس... وانهمك پولوزوف في التهام كمثرى كان سانين نفسه هو الذي قشرها له وظلت ماريا نيقولاييڤنا تبتسم وهي تنظر إلى سانين نظرة كان قد ألفها في عهد عبوديته... نظرة السيد... نظرة المالك إلى ما يملك...

ولكن... يا لقدرة السماء! من هذا الذي وقف في طريق العربة أليس هو پانتاليونى؟! ومن ذا الذي يقف إلى جانبه؟ أيمكن أن يكون إميليو؟ نعم إنه هو الشاب المتحمس الذي أخلص يومًا لسانين كل الإخلاص! فأية حسرة فاض بها قلبه على بطله! على مثله الأعلى! وما أشد اصفرار وجهه! ذلك الوجه الجميل... الكريم... الذي بلغ من الحسن مبلغًا لفت نظر ماريا نيقولاييڤنا، وحملها على أن تنحني وتطل من نافذة العربة. لقد كان يتقلص حنقا وازدراء... أما عيناه الشبيهتان بعيني چيما... فكانتا تحدجان سانين، بينما شفتاه المطبقتان بقوة لم تتفرجا إلا لتقذفا ألفاظ السباب...

ومد پانتاليونى يده مشيرًا إلى سانين... ففيم هذه الإشارة؟ كان يلفت نظر "تارتاجليا" للخائن، فأخذ الكلب الأمين ينبح في وجه

ذلـك الخائـن... فيـا لهـول الإهانـة الصـادرة مـن الكلـب الأميـن... إخ! ثـم... الحيـاة فـي باريـس، ومـا أكتنفهـا مـن إهانـات، ومـن عـذاب مُبـرح لا يعرفـه إلا العبـد الذليـل الـذي لا يجـرؤ حتـى علـى الغيـرة، أو علـى الشـكوى. بـل يصبـر علـى الضيـم إلـى أن ينبـذ ويلقـى بـه كالقفـاز الخلـق...

ثـم العـودة إلى أرض الوطـن. إلى الحياة المسـمومة المُقوَّضة الأركان، إلـى المضايقـات التافهة، والمشـاغل الحقيـرة، والندم المؤلم غيـر المُجْدي. ثـم التناسـي المؤلـم غيـر المُجْـدي كذلـك. ولم يكـن عقابه واضحًـا محددًا، ولكنـه كان متلاحقًـا لا ينقطـع لحظة واحـدة. كان ألما متصلا مضجرًا مقلقًا كان شـبيهًا بسـداد ديـن ضخم فلسـا بعد فلس.

كانت كأسه قد امتلأت إلى الحد. الكافي!

***

ولكـن كيـف حـدث أن بقـي صليـب چيمـا عنـده محفوظًـا علـى كـر الزمـن؟ ولمـاذا لـم يـرده إليهـا بعـد أن قطـع صلتـه بهـا؟... ثـم كيف حدث أن عينـه لـم تقـع عليـه طوال تلـك المدة إلا في ذلـك اليوم بالـذات... غرق في تأمل طويل. ولم يسـتطع أن يفسـر، رغم ما أكسـبته السـنون من خبرة ومعرفـة، سـبب هجـره لچيمـا التـي كان يكـن لهـا ذلـك الحـب والعطـف العميقيـن، وانصرافـه عنهـا إلـى امـرأة لم يحبهـا على الإطـلاق! وقد أدهش أصدقـاءه فـي اليـوم التالـي حيـن أنبأهـم أنـه أزمـع الرحيل إلـى الخارج.

عجب مجتمع بطرسبورج لسانين كيف يغادر مدينتهم وفصل الشتاء في أوجه. لا سيما بعد أن استأجر منزلا جديدًا فخمًا، وزينه بأبدع الرياش، وحجز له مقعدًا في الأوبرا للموسم بطوله حيث، تقوم مدام پاتى نعم مدام پاتى نفسها بتمثيل دور البطولة!!. لقد حار أصدقاؤه ومعارفه في تصرفه هذا، ولكن الناس لا يشغلون طويلا بأمر الآخرين، ففي اليوم الذي قصد سانين فيه إلى محطة القطار لمغادرة المدينة إلى الخارج لم يحضر لتوديعه إلا شخص واحد هو حائك ملابسه الفرنسي، وكان سبب حضوره الطمع في حصوله على أجر مضاعف لسترة أنيقة للرحلات كان قد حاكها له.

- 43 -

عندما قال سانين لأصدقائه إنه مسافر إلى الخارج لم يحدد لهم وجهته. بيد أن القارئ لن يصعب عليه أن يستنتج أنه قصد إلى فرانكفورت رأسا. وبفضل السكك الحديدية التي انتشرت وقتئذ في كل مكان استطاع أن يصل إلى تلك المدينة بعد ثلاثة أيام من مغادرته لبطرسبورج، وهو لم يكن قد زارها منذ ١٨٤٠. وكان فندق "البجعة البيضاء" ما زال قائما في موضعه السابق، ولكنه لم يعد فندقًا من الطبقة الأولى كما كان فيما مضى، أما شارع "زايل" فلم يطرأ عليه تغير كبير، ولكن دار مدام روزيللى لم يعد لها أثر، بل إن الشارع الجانبي الذي كان دكان الحلوى يقع فيه زال بأسره من الوجود. وطاف سانين في الشوارع والطرقات دهشا مذهولا، فإن عينه لم تقع فيها على مشهد واحد من المشاهد التي ألفها فيما مضى، لقد توارت البيوت القديمة، واحتلت مكانها عمارات ضخمة وقصور بديعة قامت على جانبي الشوارع المستجدة في خطوط متوازية مستقيمة. وطالت الأشجار والأعشاب وتفرعت في الحديقة العامة التي التقى فيها سانين بچيما، وطارحها الحب لأول مرة، وقد حمل هذا التغير سانين على أن يسأل نفسه: أهذه هي تلك الحديقة العامة فعلا؟ أهيَّ تلك الحديقة العامة فعلا؟ أهيَّ مهد حبه ومرتعه؟ وحار فيما يفعل! كيف يستخبر أخبار چيما؟ وإلى من يلتجئ لتحقيق تلك الغاية. وفي

الواقـع إن مهمتـه لـم تكن هينـة، فقد انقضى ثلاثون عامـا على ذلك العهد. وهـو وإن طـال سـؤاله لـن يجـد شـخصًا واحدًا سـمع باسـم مـدام روزيللى فـي هـذه المدينـة التـي تعـج بأهلها. وقـد نصحه مديـر الفندق الـذي نزل بـه أن يتوجـه إلـى المكتبـة العامـة، ويراجـع هنـاك صحـف ذلـك العهـد جميعهـا. ولكـن، مـا فائـدة ذلـك، إن مديـر الفنـدق، وهو صاحـب الاقتراح، لـم يسـتطع الإجابـة علـى هـذا السـؤال. واضطـر سـانين وهـو يتخبـط فـي حبائـل اليـأس أن يسـأل عن هركلوبـر، وكان مدير الفندق يعرف هذا الاسـم حـق المعرفـة، ولكـن ذلـك لم يفد سـانين أيضا: فقد اسـتطاع مديـر المتجر الأنيـق أن يشـق طريقـة، ويجمـع ثـروة كبيـرة، ويقفـز إلـى طبقـة أصحاب رؤوس الأمـوال، ولكنه سـرعان ما سـقط كمـا ارتفع. وتبـددت ثروته، وتردى إلـى هاويـة الافـلاس، وزج بـه فـي السـجن حيـث لقـى حتفـه، ولـم يشـعر سـانين بأقـل حـزن لهـذا النبـأ. ولكنه مـا كاد ييأس مـن الوصول إلـى هدفه، ويـرى رحلتـه إلـى فرانكفـورت كأنها نـوع من صيـد الأوز البـري، حتى وقع بصـره، وهـو يقلب صفحـات "دليل" المدينة، على اسـم ڤـون دونهوف وقد كتـب أمامـه "صـاغ محال على الاسـتيداع"، فاسـتأجر عربة وانطلـق بها إليه ولـو أنـه عجـب لعثـوره علـى اسـم ڤـون دونهوف بالـذات. نعـم، لمـاذا لم ترشـده الظـروف إلا إلـى هـذا الرجل؟ ثم لمـاذا قدر أنه، أي ڤـون دونهوف، يعـرف شـيئًا عـن أسـرة روزيللـى بيـد أن الغريق يتعلـق بقشـة طافية على سـطح الماء.

ووجـد سـانين الصـاغ المتقاعـد فـي داره، واسـتطاع أن يتعـرف علـى

خصمه القديم رغم ابيضاض شعره، وعرفه ڤون دونهوف كذلك، بل لقد سره أن يراه، لأنه أذكره بصباه وصبيانياته القديمة. وعلم سانين منه أن أسرة روزيللى رحلت إلى أمريكا، وأقامت بنيويورك. وأن چيما تزوجت برجل أعمال هناك. وقال ڤون دونهوف إن له صديقًا من رجال الأعمال أيضا قد يعرف عنوان تلك الأسرة لأنه يعامل كثيرين من تجار نيويورك: واستطاع سانين أن يقنع ڤون دونهوف بالذهاب إلى صديقه وسؤاله عن العنوان المطلوب. ويا للسعادة!!. لقد وفق إلى عنوان زوج چيما وهو: "مستر چيريمى سلوكوم ٥٠١ برودويى. نيويورك" ولكن هذه المعلومات ترجع إلى عام ١٨٦٣.

وصاح ڤون دونهوف:

ـ لنستمسك بحبل الأمل. ونقدر أن حسناء فرانكفورت ما زالت على قيد الحياة، وأنها لم تغادر نيويورك!

وخفض صوته وهو يستطرد القول:

ـ والشيء بالشيء يذكر. أما زالت تلك السيدة الروسية. التي كانت تعيش على ڤيسبان. مدام ڤون بو.. پوزولوف.. أما زالت على قيد الحياة؟

وأجاب سانين.

ـ لا.. لقد ماتت منذ مدة طويلة.

ورفـع ڤـون دونهـوف بصـره إلـى سـانين، وعندمـا لاحـظ أنـه يشـيح بوجهـه مقطبًـا، انصـرف عنـه دون أن يزيـد كلمـة علـى مـا قـال.

***

أرسـل سـانين فـي نفـس اليـوم خطابًا "لمسـز چيمـا سـلوكوم" بنيويورك أخبرهـا فيـه أنـه يكتب لها مـن فرانكفورت حيـث قصد إليها بحثًـا عنها. وأنه يعلـم حـق العلـم بفقدانـه كل حـق فـي طلـب الـرد علـى خطابـه، وكل أمل فـي عفوهـا عمـا سـلف، فهو لم يعمل شـيئًا يسـتحق بـه ذلك. كل مـا يرجوه أن تكـون الحيـاة السـعيدة التـي تحياهـا قد أنسـتها حتى وجـوده. ثم أضاف فـي رسـالته أنـه لـم يفكر فـي تذكيرها بنفسـه ثانيـة إلا لأن مصادفة سـعيدة أيقظـت الماضـي فـي خاطـره نابضـا بالحيـاة. وحدثهـا بعـد ذلك عـن حياته، حيـاة الكآبـة والوحـدة بغيـر زوجـة أو ولـد. وتوسـل إليهـا أن تحـاول فهـم قصـده مـن الكتابـة إليهـا، وألا تدعـه يفـارق هذه الحيـاة حاملا معه شـعوره بالإثـم. ذلـك الإثـم الذي لـم يحظ بالصفح رغـم طول عهـده. وأن تثلج صدره بالكتابـة إليـه عـن بعـض أخبارهـا الخاصـة بحياتهـا فـي نيويـورك التـي تقيم بهـا، ولا بـأس إن قتـرت فـي ذلـك كل التقتيـر. ثـم ختـم خطابـه بقولـه: "لـو أجبـت علـى هـذه الرسـالة ولـو بكلمة واحـده فإنـك تكونين قـد أديت عملا مـن أعمـال الخيـر جديـرا بقلبـك الكبيـر الكريـم. وسـأظل أشـكرك عليـه إلى آخـر يـوم مـن أيام حياتـي": أنـا أقيـم الآن بفندق "البجعـة البيضـاء" (ووضع خطـا تحـت هذا الاسـم) وسـأظل بـه، منتظـرا ردك حتـى الربيع.

أرسل الخطاب بالبريد وظل ينتظر رده. وانقضت ستة أسابيع وهو مقيم بغرفته لا يكاد يبارحها أو يقابل مخلوقًا. ولم يكن هناك أحد في روسيا أو في غيرها يمكن أن يراسله. وقد ارتاح لهذا الخاطر إذ أن ورود أية رسالة في هذه الحالة لا يمكن أن يعنى إلا أنها الرسالة المرتقبة. وكان يقتل وقته بالقراءة التي لم تنقطع من الصباح حتى المساء. ولكنه لم يقرأ الصحف والمجلات بل مجلدات التاريخ الجادة. وكانت القراءة المتلاحقة، والهدوء المحيط به، وحياة العزلة الشبيهة بعزلة النساك. كان ذلك كله يلائم طبيعته، ويرجع الفضل في استمتاعه به إلى چيما.. ولكن أهيَّ لا تزال على قيد الحياة؟... أيمكن أن تجيب على رسالته؟...

وأخيراَ ورد إليه خطاب عليه طابع بريد أمريكي. وكان الخط المكتوب على غلافه إنجليزي الحروف. بيد أنه عرف الخط، وشعر بوخزة في قلبه. وتردد في فض الغلاف. وعندما فضه بحثت عيناه أولا عن التوقيع. فإذا هو چيما، واغرورقت عيناه سانين بالدموع. فقد كان توقيعها باسمها مجردا من لقبها دليلا على تسامحها ورضاها. ونشر ورقة الخطاب الزرقاء المطوية فسقطت منها صورة فوتوغرافية.. والتقطها ونظر فيها فكاد يصعق لقد كانت صورة چيما نفسها وهي في ريعان صباها. كانت صورة چيما كما عرفها من ثلاثين عاما. فالعينان هما هما كعهده بهما، وكذلك الشفتان والسيماء وقد كتب خلف الصورة "ابنتي مريانا": وكان الخطاب بسيطًا ورديًا، شكرت فيه چيما

سانين على كتابة خطابه إليها دون تردد، وعلى حسن ظنه بها وثقته فيها... وقد اعترفت له بأنها كابدت لوعة الأسى حقبة من الزمن على أثر تخليه عنها، ولكنها كانت تعد التقاءها به رغم ذلك فاتحة خير، وكيف لا، وقد أدى لك إلى إنقاذها من الزواج بهركلوبر، أدى، ولو بطريق غير مباشر إلى اقترانها بزوجها الحالي الذي قضت معه سبعة وعشرين عامًا نعمت خلالها بالسعادة والرخاء... وهو معروف لدى الجميع في نيويورك... ومضت چيما تقول في خطابها إنها رزقت خمسة أولاد بينهم بنت واحدة في الثامنة عشرة من عمرها، وهي مخطوبة الآن، وقد أرسلت له صورتها لأن الجميع يقولون إنها تشبه أمها كل الشبه. وأرجأت چيما ذكر الأنباء المكدرة إلى آخر خطابها... إذ قالت إن أمها، فراو لينور ماتت، بيد أنها صحبت چيما إلى أمريكا، ورأت أحفادها ودللتهم قبل أن توافيها منيتها. وكان پانتاليونى يزمع السفر كذلك إلى القارة الجديدة، ولكن الموت لم يمهله حتى يغادر فرانكفورت... أما إميليو... الحبيب المنقطع النظير... فقد مات في ميدان الشرف في سيسليا دفاعًا عن وطنه. لقد كان واحدًا من الفرسان الألف الذي قادهم غريبالدى إلى النصر. وظللنا نبكيه مدة من الزمن بحرارة، ولكننا بينما كنا نجود بالدمع السخين على الأخ العزيز، كنا في نفس الوقت نفخر به، وسنظل نفخر به، ونحوط ذكراه بالتقديس. إن روحه الشريف المجرد من الهوى جدير بإكليل الشهداء. ثم عبرت چيما عن أسفها لما آلت إليه حياة سانين، وتمنت له هدوء البال

وراحـة النفـس والسـلام. وقالـت إنهـا تـود أن تـراه ثانيـة ولـو أنهـا تـرى أن هـذا المطلـب بعيـد الاحتمـال.

ولـن نحـاول وصـف مشـاعر سـانين لـدى قراءتـه هـذا الخطـاب، فإننا لـن نجـد العبـارات القـادرة علـى أداء هذا الغـرض. ذلك لأن مشـاعره كانت أعمـق وأقـوى وأخفـى من أن تعبـر عنها الكلمـات... إن الموسـيقى وحدها هـي التي تسـتطيع التعبيـر عنها.

وأجـاب سـانين علـى خطاب چيما في الحال، وأرسـل هديـة ثمينة إلى ابنتهـا المخطوبـة... أرسـل إليهـا صليبـا مـن العقيـق معلقا بعقد مـن اللؤلؤ الحـر، وقـد نقـش عليـه: "من صديـق مجهـول إلى ماريانـا سـلوكوم": ورغم ارتفـاع ثمـن الهديـة فـإن ذلـك لـم يؤثـر فـي ثروتـه لأنـه اسـتطاع فـي بحر الثلاثيـن سـنة الأخيـرة أن يجمع ثـروة طائلة.

وفـى أوائـل مايـو عـاد إلـى بطرسـبوج، ولعلـه لـم يقصـد أن يقيـم بها طويـلا فقـد تـرددت إشـاعة مؤداها أنـه يقوم ببيـع جميع أملاكه اسـتعدادا للرحيـل إلـى أمريكا

(تمت)

بادن بادن عام 1871